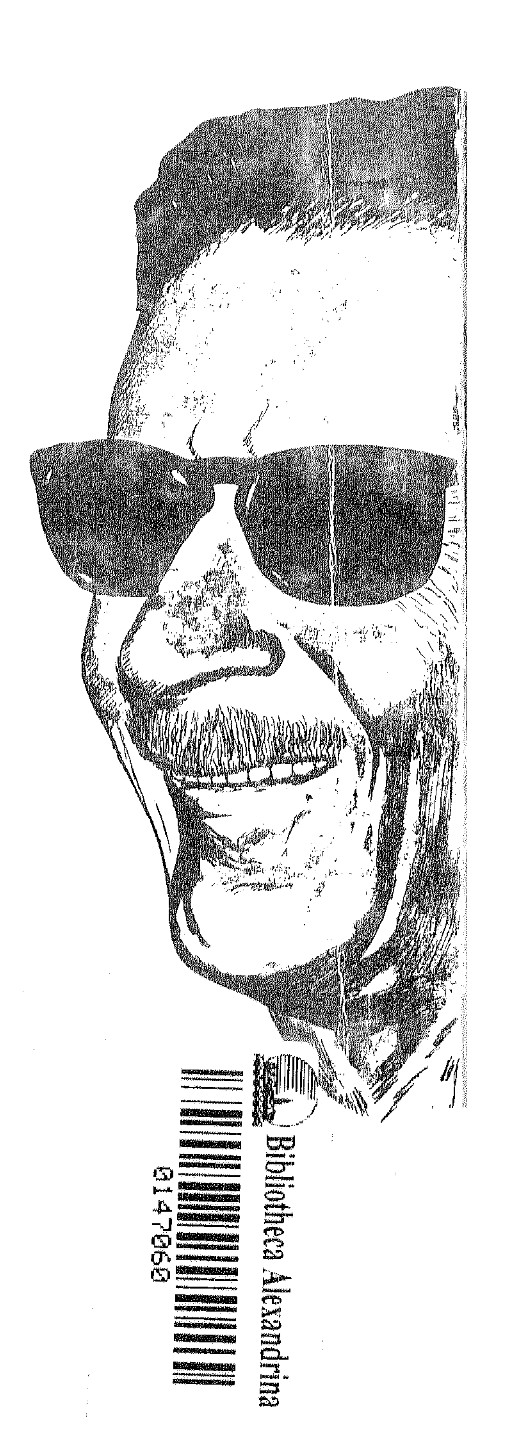
طه حسين

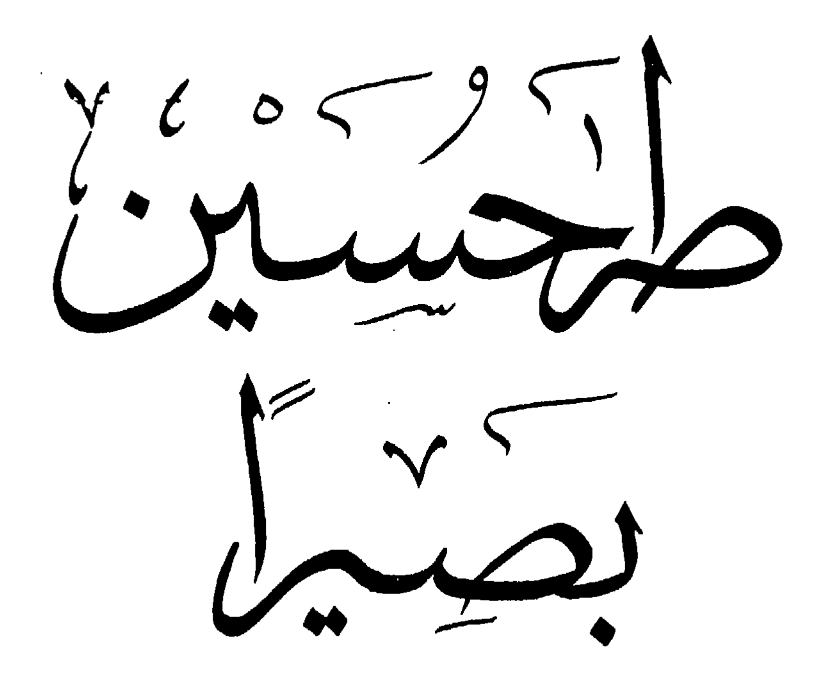
بصيرا

تأليف

الدكتور محمد صادق الكاشف



الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



الدكتور
محمد صادق الكاشف

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجى

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م

رقم الإيداع ٧٧٣٨ – ١٩٨٦

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

الإهــداء

إلى ذوات النون :

نَاهِدى

وَنِهَالِى

وَنِسْرِينِى

وَهُنَّ مِنِّى نَبْضٌ دَافِئٌ

يَتَنَدَّى

فَيَرْوِينِى

وَيُحْيِينِى

محمد الكاشف

بسم الله الرحمن الرحيم

إلـى البصـير :

آه ياسيّدى الذى جَعَلَ اللّيلَ نهاراً ، والأرضَ كالمهرجان
آرمِ نظارتَيْكَ كى أتملّى كيف تَبْلى شواطىء المرجان
آرمِ نظارتيك ما أنتَ أعمى إنما نحنُ جَوْقَةُ العميان
(نزار قبانى)

* * *

* * *

فيا أيها المحجوبُ عن رؤيةِ الورى وعن رؤية الدنيا ، حُجِبت عن الضررْ
عزاءك ! إن الله أعطاك فطنةً وأعطاك فكرا لم يشب صَفْوَهُ كدرْ
وأعطاك نوراً فى فؤادك نَبْعُهُ يريك وراء الغيْبِ ما سَطّر القدرْ
وأعطاك ألحاظا تُسَمّى « أنامِلا » سواء لديهن الأصائلُ والبُكرْ
وأعطاك حِسًّا رقّ حَتّى كأنه دموعُ الهوى العذرى أو نسمةُ السحرْ
وغطَّى على عينيك أن تبصر الذى به قَذِيَتْ عيناى من هذه الصُّوَرْ
(على الجنـــدى)

تقــــديم :

لقد حظى الدكتور طه حسين باهتمام دارسى الأدب العربى الحديث ومعطياته بقدر ما أعطى للحياة الأدبية والثقافة العربية من حيوية فياضة ، ونشاط دؤوب ، وعطاء فى التنوّع غير قليل .

ولن تتوقف الدارسات [١] فى جوانب هذه الشخصية وأعمالها ؛ لأن جوانبها فى تعددها وتباين أطوارها ، وفى مواقفها وظروف صراعها ستظل مجال خوض لإبداء الرأى ، ومنطقة جذب لتقليب النظر ، ولأنّ أعمالها فى تنوّعها واختلاف ألوانها ، وفى تميزُّها وذيوع أخبارها ، سوف تبقى ينبوعاً ثراً تُستقى من وفرة نضحه دوافع البحث ، وسوف تستمر أرضا خصبة يُستنبت فيها ضروب الدرس ، واختلاف وجهة النظر ، ما بين معارض ومؤيد ، وما بين قادح ومادح ، وما بين منقّب ومستنبط ، وما كل ذلك إلا لأن تلك الشخصية كانت على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان ثائرة مثيرة ، لا تأنس للراحة أو الإراحة ، ولا تقنع بإثمار أو استثمار ، حتى تحقّق لها من الشهرة ما كانت تشتهى ، ومن المجد ما كانت تحمل ، ومن الاستمرار ما سوف يبقى به صاحبها فى وجدان الأجيال ، وفى قوائم الخالدين من المجاهدين والأبطال .

والشهرة والمجد واستمرار الذكر – فى دنيا الناس – ليس هبة توهب ، فيمتنّ بها الواهبون على من يهبون ، ولكن هذا كله – فى الحق – وسام مجد يُتوّجُ به نضال المناضلين ، جزاء ما ناضلوا فى صبر ، وما قدّموا من خير ، وما أعطوا فى الحياة من إضافة أثْرت استمرارها ، ومن حركة هزّت سكونها ، ومن آراء اصطدمت بكثير من مفاهيم الأحياء وما كانوا يألفون .

وكذلك كان طه حسين مناضلا صبورا ، دؤوبا على العطاء والإضافة ، متوثّبا فى إثراء حياته والحياة من حوله بمواصلة التشييد والبناء ، ومتابعة النشاط والحركة .

---

(١) رصدت الدراسة البيبلوجرافية عن طه حسين ، التى ألفها د . حمدى السكوت ود . ما رسدن جونز ، ما كتب عن طه حسين حتى عام ١٩٧٥ من مؤلفات ومقالات عربية وأجنبية . راجع لهما : أعلام الأدب المعاصر فى مصر (١) طه حسين .

وكان الطريق – فى نضاله – وعرا ، فأخذ يحتُّ اليبيس من وعورته ومعوّقاته حتى تَعَبَّدَ له الإسراع فيه ، وكان النضال – فى هذا الطريق – قاسيا ، فدأب على ترويض قسوته حتى لان له عسرها ، وصار قيادها إليه .

وبداية وعورة الطريق وقسوة النضال كانت فى هذه الداهمة التى دهمته منذ صغره ، وتقلّب بها فى أطوار حياته ، وعلى امتداد عمره ، وكان بها كما قال : « يحمل فى نفسه ينبوعا من ينابيع الشقاء » ، ولكنها كانت له كما يقول هذا البحث قوة محّصت مكوّناته الشخصية بأساليب النضال ، واقتحام المصاعب ، وتجويد العمل ، فتحقق له ما تحقق من شهرة ومجد واستمرار بقاء ، بعد أن تساقى بها رحيق الحياة وخمر الأمل ، وسيظل طه حسين بها فى وجدان الحياة والأجيال بصيرا بفقده البصر صغيراً ، وبصيرا بمغاليته الظلمة كبيراً ، وبصيرا بما أراد فحقق ، وبصيرا بما تمنّاه فأنجز .

* * *

تمهيد

أولاً : دندنة لغوية :

بين المبصر والبصير

المبصر والبصير فى لغتنا الجميلة لفظان اشتقّا من أصل واحد فى المعنى ، وتفرّعا عن جذر بعينه فى البناء ، واتفقا فى كمهما التركيبى اتفاقا غير منقوص ، ولكنهما اختلفا فى البنية وفى دلالتها اللغوية اختلاف التؤامة غالباً ، والمغايرة أو الضدية فى استعمال خاص بأصحاب هذه اللغة ، وطبيعتهم فى تشكيلها شكلا ومضمونا ، بما يتساوق مع فطرتهم وينسجم وطبيعتهم ، ويوسّع فى مجازات لغتهم .

وإذا استقصينا ذلك فى المعاجم اللغوية لنجدنّ مادتهما الاسمية هى البصر ، والبصر فى مفهوم الإنسان وعلم وظائف الأعضاء هو حاسة الرؤية ، أو هو كما ينقل ابن منظور – صاحب لسان العرب – عن ابن سيده قوله : « هو حسّ العين » ، أو عن الليث قوله : « هو العين ذاتها إلا أنه مذكر » ، « وجمعه أبصار » [1] .

وفى القرآن الكريم آيات بيّنات تحفظ لهذه المادة هذا المدلول ، وتحدّدها بذاك القصد ، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوات وَالْأَرض ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ [2] . وما لمح البصر إلا البرهة الزمنية التى ينقل خلالها العصب البصرى ما ينطبع على العين من إحساسات إلى مراكز الإبصار ، فتتحقق الرؤية ، وتتميّز المرئيات . ومن ذلك أيضا قوله سبحانه : ﴿ الذِى خَلَقَ سَبْعَ سمٰوات طِباقا ، مَّاتَرىٰ فِي خَلْقِ الرحمٰنِ مِن تفاوت ۚ فَٱرجِع ٱلْبَصَرَ هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ۚ ثُم ارْجِعِ البَصَرَ كَرتينِ ۚ ينقَلِبْ إليكَ البصرُ خاسِئًا وهو حَسِيرٌ ﴾ [3] ، وغير ذلك فى القرآن الكريم كثير [4] .

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور مادة (ب ص ر) حـ ١ ص ٢٩١ .

(٢) سورة النحل (٧٧) .

(٣) سورة الملك (٣ ، ٤) .

(٤) راجع فى ذلك سورة الإسراء (٣٣) وسورة القمر (٤٩ ، ٥٠) ، وسورة القيامة (٩ ، ١٠) ، وسورة الجاثية (٢٣) ، وسورة ق (٢٠ ، ٢٢) .

وكذلك كان مدلول جمع هذه الكلمة فى مواطن شتى من كتاب الله ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحسبنَّ الله غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظالمونَ . إنما يُؤَخِّرهُمْ ليوْمٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبصارُ ﴾ [١] ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ أَلَم تَرَ أَنَّ الله يُزجي سَحَابًا . ثُم يُؤَلِّف بينَهُ . ثُم يجعَلُهُ رُكامًا . فَترى الوَدْقَ يخرجُ من خِلَالِهِ . وَيُنَزِّلُ مِن السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مَن بَرَدٍ . فَيُصيبُ بِهِ مَن يَشاءُ . وَيَصرِفُهُ عَن من يشاءُ . يكادُ سَنَا بَرقِهِ يَذْهبُ بالأَبصَارِ . يقَلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ ، إن في ذلِكَ لعبرةً لأولِي الأبصارِ ﴾ [٢] وغير ذلك من آيات الله البيِّنات كثير [٣] .

فالبصر للإنسان – إذن – هو آلة الرؤية أو أداة إبصار المرئيات ، وهذا على حقيقة استعمال الكلمة استعمالا لغويا حقيقيا . أما على مجازية استعمالها فهى تطلق حينا على العِلْم القوى المضاهى لإدراك الرؤية ؛ إذ البصر بالشيء يعنى علمه عن عيان ، فهو بصير به . من ذلك قول الله تعالى على لسان السامرىّ : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمالَمْ يَبْصُرُوا به . فقبضْتُ قبضةً من أثر الرسول . فنبذْتُها . وكذلِكَ سوّلتْ لي نَفْسِي ... ﴾ [٤] ، وتطلق حينا آخر على النفاذ فى القلب ، وبَصَرُ القلب نظره وخاطره كما كان نور العين الذى تبصر به .

هكذا استقر المدلول اللغوى لهذه المادة الاسمية ، أعنى البصر ، بالنسبة للإنسان فى استعماله لها على الحقيقة وعلى المجاز ، أما البصر بالنسبة لخالق الإنسان إنما هو الصفة التى ينكشف بها كمال نعوت المبصَرات ، والقدرة الإلهية التى لا تخفى عليها خافية فى بواطن الأرضين أو مجاهل السموات .

والمادة الفعلية لهذين المشتقين تمتح مدلولها من ذات الينبوع ، فنقول : بَصُرَ به [٥] ،

---

(١) سورة إبراهيم (٤٢) .

(٢) سورة النور (٤٣ ، ٤٤) .

(٣) راجع فى ذلك : سورة الأنعام (١٠٤) ، وسورة يونس (٣١) ، وسورة النحل (٧٨) وسورة السجدة (٩) ، وسورة الأحزاب (١٠) ، وسورة ص (٤٥) ، وسورة الحشر (٢) ، وسورة الملك (٣) ، واستعملت « الأبصار » منسوبة إلى الضمائر المختلفة فى كثير من السور منها : الأنعام (٤٦ ، ١١٠) ، وفصّلت (٢٠ ، ٢٢) ، والحجر (١٥) ، والنازعات (٩) ، والبقرة (٧ ، ٢٠) ، الأعراف (٤٧) ، والنحل (١٠٨) ، والنور (٣٠ ، ٣١) ، والأحقاف (٤٦) ، ومحمد (٢٣) ، والقمر (٧) : والقلم (٤٣ ، ٥١) ، والمعارج (٤٤) .

(٤) سورة طه (٩٥ ، ٩٦) .

(٥) أو بصير (بالكسر) كما حكى اللحيانى . انظر لسان العرب مادة (ب ص ر) جـ ١ ص ٢٩١ .

وأبصره ، وتبصّره ، أى رآه ونظر إليه ، قال سيبويه فيما ينقل عنه ابن منظور : « بَصُر أى صار مبصرا ، وأبصره إذا أخبر بالشىء وقعت عينه عليه » ، ويؤيد هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ رَبناَ أبصَرْناَ * وسَمِعْنَا * فارْجِعْنَا نعْمَلْ صَالحا ﴾ (١) . وزيادة هذه المادة الفعلية بالهمزة الابتدائية فى قولنا : أبصر الرجل ، تنقل المدلول من حقيقة الإبصار بالعين إلى مجازية الإبصار بالقلب ، فيتحقق بسببه الهداية بعد عصيان ، والخروج من الكفر إلى بصيرة الإيمان ، وفى الاستشهاد على ذلك أنشد ابن الأعرابى :

قحطان تضرب رأس كل متوج   وعلى بصائرها وإن لم تبصر (٢)

والكلمة فى مجازيتها الدلالية هذه ، تقرر إدراك الحقيقة ، والوقوف على الحق ، ذلك شأن من أبصر ، أما من عمى فقد غفل عن إدراكه ، واستمر فى ضلاله ، قال عز وجل : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائرُ مِن ربكُمْ * فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنفْسِهِ ، ومَنَ عَمِى فَعَلَيْهَا ﴾ (٣) ، ومفهوم الآية أنْ قد جاءكم من ربكم القرآن الذى فيه بيان لكم ، فمن أبصر بإدراك الحق فاهتدى ، فلنفسه نفع ذلك ، ومن عمى بالتمسك بالكفر فضلّ ، فعلى نفسه ضرر ذلك .

وفى ظلال الدلالات اللغوية لدوران المادة فى استخدام اللسان العربى يتضح لنا أن المبصِر هو ناظر الشىء ورائيه ، أو العالم به والمخبر عنه ، أو المدرك الحقَّ والمتجنّب للضلال (٤) ، وبهذا كله تكون الرؤية سطحية حسية بطريق العين : العضو والآلة ، وتكون الرؤية كذلك جوانية معنوية بطريق القلب : موطن الإيمان ، ومستقر الهداية .

والمبصر والبصير سواءٌ فى الدلالة اللغوية لكل منهما ، إذ البصير صفة من بَصُر به

---

(١) سورة السجدة (١٢) .

(٢) لسان العرب (ب ص ر) حـ ١ ص ٢٩١ .

(٣) سورة الأنعام (١٠٤) .

(٤) والمبصر أيضا هو الواضح البيّن المضىء ، قال تعالى فى سورة يونس (٦٧) : ﴿ هُوَ الذِى جَعَلَ لَكُمُ الليلَ لِتسكنُواْ فيهِ * والنهارَ مبصرًا * إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لقوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ . فالنهار مضىء بشمسه ، بيّن ببيان المرئيات إبَّانه ، واضح بوضوح الرؤية فيه . وكذلك قال تعالى فى سورة النمل (١٣) ﴿ فَلَما جَاءَتهُمْ آياتُنَا مبصرةً * قالُوا هذاَ سِحْرٌ مبينٌ ﴾ ، فآيات الله التى جاءتهم كانت بيِّنة بلا خفاء ، واضحة بكل دليل .

بمعنى رآه أو علِمه ، فنقول : رجل بصير بمعنى مبصر [١] ، وهو خلاف الضرير . وجاءت الصفة على فعيل بمعنى فاعل ، قال تعالى فى تصوير شأن الفريقين : المؤمنين والكافرين : ﴿ مثَلُ الفريقَيْنِ كَالأعْمَى والأصَمِّ ، والبصيرِ والسمِيعِ ، هلْ يستوِيَانِ مثلاً ، أفَلا تذَكَّرُونَ ﴾ [٢] . وقال سبحانه على لسان يوسف عليه السلام مخاطبا إخوته : ﴿ اذهَبُواْ بِقَميصِى هَذَا ، فألقُوهُ على وَجْهِ أَبِى يَأتِ بَصِيرًا وأتُونِى بأهْلِكُمْ أجْمَعِينَ ﴾ [٣] . وقال الزهاوى :

ليس يبدو من الحقيقة نورٌ لعيون : لِحِسِّها هى عورُ
وإذا اسودّت الليالى على النا س تساوىٰ الأعمى بها والبصيرُ [٤]

وإذا كان البصير هنا هو المبصر بمعنى ناظر الشىء ورائيه ، فهو أيضا المبصر بمعنى العالم بالشىء ، المستبين له ، المحيط بحقائقه ، المدرك لأسراره ، وقد جاء فى اللّسان : « قال اللحيانى وإنه لبصير بالأشياء أى عالم بها ، ويقال رجل بصير بالعلم أى عالم به » [٥] . وبهذا المدلول كانت الكلمة صفة لله سبحانه وتعالى فى أكثر من آية من آيات الذكر الحكيم ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ أؤُنَبِّئكُم بخَيْرٍ من ذَلِكمْ ، للذِينَ اتقَوْا عِندَ رَبهِمْ جَناتٌ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأنهارُ ، خالدِينَ فِيهَا ، وأزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ، واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ ﴾ [٦] وكذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَو يؤَاخِذُ اللهُ الناسَ بِمَا كسَبُوا ، ماتَرَكَ على ظهرِهَا مِن دابةٍ ، ولكن يُؤَخرهُمْ إلى أجَلٍ مُسمّى ، فَإذَا جاءَ أجلهُمْ فإن اللهَ كانَ بِعبَادِهِ بَصِيرا ﴾ [٧] .

ولأن الله سبحانه يشاهد – بغير جارحة – الأشياء كلها ، ظاهرها وخافيها ، ويعلم أسرار خلقه كلها ، بقدرة مطلقة لا شريك له فيها ؛ فإن صفة البصير من حيث

---

(١) قال اللحيانى : إنه لبصير بالعينين . انظر لسان العرب (ب ص ر) حـ ١ ص ٢٩٠.
(٢) سورة هود (٢٤) .
(٣) سورة يوسف (٩٣) .
(٤) ديوان الزهاوى ص ٢٦٦ .
(٥) لسان العرب (ب ص ر) حـ ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٦) سورة آل عمران (١٥) .
(٧) سورة فاطر (٤٥) .

الاشتقاق تكون اسما من أسماء الله الحسنى من حيث الدلالة ، وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ فَاطِرُ السمٰواتِ والأرض ۚ جَعَلَ لَكُم مِنْ أنفسكُمْ أزواجا ۚ ومِن الأنعامِ أزواجًا ۚ يذرؤكُمْ فيهِ ۚ ليسَ كمثلِهِ شىء وهو السمِيعُ البصِيرُ ﴾ [1] .

وإذا كان من دلالات المبصر هو من كان ذا بصر ، ومن معانى البصر أنه نفاذ فى القلب ، فإن من دلالات البصير هو من كان على بصيرة [2] ، والبصيرة عقيدة القلب ، قال الليث « البصيرة اسم لما اعتقد فى القلب من الدين وتحقيق الأمر » [3] .

والبصيرة أيضا الفطنة ، تقول العرب : أعمى الله بصائره أى فطَنه ، وفى حديث ابن عباس أن معاوية لما قال لهم : يابنى هاشم تُصابون فى أبصاركم ، قالوا له : وأنتم يابنى أمية تصابون فى بصائركم .

والبصيرة أيضا العمد واليقين ، فنقول فعل ذلك على بصيرة أى على عمد ، وفعل ذلك على غير بصيرة أى على غير يقين ، وفى حديث عثمان : لتختلفن على بصيرة ، أى على معرفة من أمركم ويقين .

والبصيرة أيضا العبرة ، يقال : أما لك بصيرة فى هذا ؟ أى عبرة تعتبر بها ، ويقول الشاعر :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

والبصيرة أيضا هى البيان القوى ، والحجة الواضحة ، وفى ضوء هذا المدلول يفسر كثير من المفسرين قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أدعُوا إلَىَ اللهِ عَلَى بصيرةٍ أنَاْ ومَنِ اتّبعَنِى ﴾ [4] .

والبصيرة كذلك هى الشاهد الصادق الذى يلجم الكذب ، ويدحض الكذابين ، وهذا مايهدى إليه قول الله تعالى : ﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [5] ،

---

(١) سورة الشورى (١١) .

(٢) راجع لسان العرب (ب ص ر) حـ ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٣) المصدر السابق والصفحة .

(٤) سورة يوسف (١٠٨) .

(٥) سورة القيامة (١٤) .

أى أن جوارح الإنسان شهود عليه يوم القيامة ، وفى ذلك يقول الفراء : على الإنسان من نفسه شهود يشهدون عليه بعمله : اليدان والرجلان والعينان .. وأنشد

كأن على ذى الظن عينا بصيرة　　بمقعده أو منظر هو ناظره
يحاذر حتى يحسب الناس كلهم　　من الخوف لا تخفى عليهم سرائره (١)

والبصيرة فى مفهوم الصوفية هى قوة للقلب منورة بنور القدس ؛ يرى به حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس الذى يرى به صور الأشياء وظواهرها . وهى القوة التى يسميها الحكماء : العاقلة النظرية ، وإذا تنورت بنور القدس ، وانكشف حجابها بهداية الحق يسميها الحكيم القوة القدسية (٢) .

ومما سبق كله نلاحظ أن وضوح الرؤية وتمييز المرئى ، والثبات بالحجة والتميّز بالعلم القوى ، كل هذا دلالات مشتركة لوظيفة كل من البصر والبصيرة ، وصفات متداخلة عند المبصر والبصير ، مما يوثق بينهما – كما سبق أن أشرت – علاقة المتاءمة ؛ لما بينهما من الموافقة والملاءمة ، فكانت إحداهما توأمة الأخرى ، أو توشك أن تكون .

ولكن من جانب آخر – غير ماسبق – يقع بين المبصر والبصير من الخلاف فى الاستعمال مايقرب أن يكون خلاف المغايرة والتضاد ؛ لأن المبصر فى كل معطيات معانيه لا يكون إلا الرائى والعالم ومايدور فى فلكهما ، ولكن البصير يعطينا هذا من جانب ، هو ذاك الذى عرضناه ، ويعطينا ما يخالفه من جانب آخر ، إذ البصير هو مرادف عرفى – إذا صحّ هذا التعبير – لفاقد البصر ، ولقد استعمله العرب قديما بهذا المدلول على التطيّر حينا ، فأُطلق – مثلا على الشاعر الأعشى – أبو بصير ، وفى أحيان أخرى استعملوه بهذا المدلول على التفاؤل لا التطيّر ، كما جاء فى قول رسول الله (ﷺ) « اذهب بنا إلى فلان البصير » وكان أعمى ؛ تفضيلا لاستخدام لفظ البصر ومايشتق منه على لفظ العمى ، وما يتولد عنه .

---

(١) لسان العرب (ب ص ر) جـ ١ ، ص ٢٩٢ .

(٢) انظر : اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشانى ، تحقيق الدكتور عبد الخالق محمود ، ص ٥٩ .

وكان للعرب هذه الوسيلة فى لغتهم ، يستخدمون اللفظ فى ضد ماوضع له لمجرد التفاؤل ، كاستخدامهم المفازة فى المكان الذى تغلب فيه الهلكة ؛ تفاؤلا بالسلامة والفوز بالنجاة ، وإخبارهم عن المريض بأنه فى عافية ؛ تعلقا بالأمل ، وتمنيا له بامتداد الحياة ، وإشارتهم إلى العطشان بأنه الناهل والريان ... وهكذا [١] .

ويستعملون - أيضا - اللفظ فى ضد ماوضع له لا للتطيّر أو التفاؤل ، وإنما لمجرد التهكم وانتهاج الذم فى كلمات مدح ، من ذلك إطلاقهم لفظ العاقل على المعتوه أو ذى الحماقة ، ولفظ الخفيف على الثقيل موفور السماجة ، ولفظ الأبيض على الأسود ... وهكذا .

ويستعملون - أيضا - اللفظ فى غير ماوضع له ، لا تطيراً ، ولا تفاؤلا ولا تهكما ، وإنما تأدُّبا بأدب أهل اللسن المتحدثين ، ورعاية لمشاعر المخاطبين والآخرين ، واتّقاءً للتلفّظ بما يُكره التلفّظ به أو الإعلان له ، أو بما يمج الذوق استعماله ، أو يؤلم المخاطب سماعه ؛ كإطلاقهم لفظ الملآن على الفارغ ، والمولى على العبد ، وكذلك البصير على الأعمى .

وبهذا القصد من استعمالهم اللفظ فى ضد ماوضع له ساد استعمال كلمة البصير على فاقد البصر فى العراق مثلا ، وكثر استعماله عند العرب قديما وحديثا ، وصفا ولقبا .

وليس بخاف أن هناك كلمات أخرى قد اشتقت من مصادرها لتكون - كلٌّ منها - صفة لمن ابتُلى بهذه الآفة ، وتحديدا أو تلقيبا للشخص الذى فقد البصر مثل : الأعمى ، والأعمه ، والعاجز والضرير ، والأكمه والمكفوف ، واحتفظ كل لفظ منها بحظه من الانتشار فى مناطقنا العربية المختلفة ، أو بقدره من الرواج والاشتهار فى لهجاتنا البيئية والمتنوعة ، أو بحده من الدلالة فى بيئاتنا الدراسية المتباينة .

ويقينى أن صفة البصير هى أحق هاتيك الصفات بأن تكون الحال المميزة

---

(١) راجع فى ذلك كتاب فقه اللغة ، د . على عبد الواحد وافى ، باب التضاد ، ص ٢٢٠ .

لشخصية المبحوث أعنى طه حسين ، وبأن تكوّن الفكرة المبتغاة من وراء ذلك البحث ؛ ذلك لأن كل صفة غيرها إنما تحمل فى منطوقها مايؤذى حسّ الموصوف بها ، حتى وإن كانت لا تخرج عن أنها قررت حقيقة ، وحددت موصوفا ، وأنها تطوى فى مضمونها والدلالات اللغوية لمادتها مايفيد بأن صاحبها منقوص البناء ، مضرور الصفاء ، مذموم الابتلاء ، بلا عوض يعوّض هذا النقص ، ويبدّد آثار الضُرّ ، ويصبرٍّ على مداواة البلاء . وما هكذا حال المنعوت بكل نعت منها ، حتى وإن صدقت دلالته على فترة من فترات حياته أو طفرة من طفرات تصرفاته .

ولتوضيح ذلك ، فإنا إذا استقرأنا المعاجم لوجدنا أن كلمة العمى مأخوذة من العماء ، والعماء هو الضلالة [(١)] . وما كل أعمى على ضلال ، هذا فضلا عن أن الكلمة فى صراحتها تفسد على فاقد البصر استسلامه للحقيقة برضا نفس وإيمانُ مبتلَى ، وهى فى معطيات مدلولها اللغوى ترهق القوى المعنوية التى يستعيض بها فاقد البصر عما فقده ؛ فيكون أدقّ رؤية بحواسه الأخرى ، وأقوى ثباتا بمطامحه الكبرى ، يضاف إلى ذلك كله أن العمى يقال فى فقد البصر ، وفقد البصيرة ، وما هكذا يكون كل أعمى إذ :

ربّ أعمى له بصيرة كشف	نفذت من غياهب الأسدال
أخذ الله منه شيئا وأعطى	وأعـاض المكيـال بالمكيـال
يلمح الخطرة الخفيفة للنفـ	ـس ، لها فى الصدور دبّ النمال
ويرى الحق فى جلالة معنا	ه ، فيحيا فى ضوء هذا الجلال
كان شيخ المعرة الكوكب السا	طع فى ظلمة القرون الخوالى
فأتى وهو آخِر – مثلما قا	ل – بما ندّ عن عقول الأوالى [(٢)]

أما كلمة الأعمه ، فهى مأخوذة من العمه ، وفى العمه تحير وتردد [(٣)] ، أو كما قيل : تردد فى الضلالة ، وتحيّر فى منازعة أو طريق ، والأعمه كما قال ثعلب : هو ألاّ يعرف الحجة ، أو كما قال اللحيانى : هو المتردد الذى لا يدرى أين بتوجه [(٤)] . والعمه – مدلولاً – أسوأ من

---

(١) لسان العرب (ع م ى) جـ ٤ ، ص ٣١١٥ ، وانظر أيضا نكت الهميان للصفدى ، ص ٢٠ ومابعدها .

(٢) ديوان الجارم ، قصيدة الأعمى ، ص ٨١ .

(٣) نكت الهميان للصفدى ، ص ١٠ .

(٤) لسان العرب (ع م ه) جـ ٤ ص ٣١١٤ .

العمى ، إذ العمه عند ابن الأثير يصيب البصيرة فيطمسها ، وعمى البصيرة لا يغنى فيه حدّة البصر شيئا ، ولكن العمى إنما يصيب البصر ، وعمى البصر يغنى عنه نور البصيرة دوما . والكلمة فى الاستعمال لا تستعمل إلا فى مواطن الذم لمن تكون صفة له ، وبهذا ورد استخدامها فى القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى . ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوْا قَالُوْا : آمَنَّا ۞ وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ۞ إِنَّمَا نَحن مستهزِئونَ ۞ اللهُ يَستهزِئُ بهم ۞ وَيَمدهُمْ فِي طُغيانِهِمْ يعمهُونَ ﴾ (١) ، ومن ذلك أيضا قول الله سبحانه : ﴿ لَعَمرُكَ إِنَّهم لَفِي سَكْرَتِهِمْ يعَمهُونَ ﴾ (٢) ، ومن ذلك أيضا قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينِ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرةِ زيَّنا لهم أعمالهم فَهُمْ يَعْمَهُوَن ۞ أولئكَ الَّذِينَ لهم سوءُ العذَابِ ۞ وَهُمْ فِي الآخرةِ هُمُ الأخسَرونَ ﴾ (٣) .

وكلمة العاجز ، وإن كانت لا تدل على ضلال ، ولا تومىء بحيرة واضطراب إلا أنها تدل على فقدان القدرة وانعدام الحزم ، وغباء التصرف ، وذل النفس ، وقصر الباع وقصور العزم ، وقد جاء فى اللسان : « .. العجز نقيض الحزم ... وفى حديث الجنة : مالى لا يدخلنى إلا سقط الناس وعجزهم ، جمع عاجز ، كخادم وخدم ، يريد الأغبياء العاجزين فى أمور الدنيا » (٤) ، والعجز أصله التأخر عن الشيء ، وصار فى المتعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء (٥) .

وكلمة الضرير ، وإن لم تحمل فى منطوقها عدم القدرة ، وقصور الهمة كما كان أمر العاجز ، ولا الضلال والتحير وعدم الحجة كما فى الأعمى والأعمه ، إلاّ أنها تذكر صاحبها – بمنطوقها – ما أصابه من ضُر ، وما آل إليه حاله من سوء ، وقد جاء فى اللسان : « رجل ضرير : بيّن الضرارة ، ذاهب البصر . وفى حديث البراء : فجاءه ابن

---

(١) سورة البقرة (١٤ ، ١٥) .

(٢) سورة الحجر (٧٢) .

(٣) سورة النمل (٤ ، ٥) .

(٤) لسان العرب (ع ج ز) حـ ٤ ، ص ٣١١٤ .

(٥) فى عالم المكفوفين ، أحمد الشرباصى ص ٢٠ .

أم مكتوم يشكو ضرارته أى عماه ، والضرير : المريض المهزول : وكل شىء خالطه ضر فهو ضرير ومضرور » [١] .

والأكمه ، وإن اختلفوا فى أن يكون قد وُلد أعمى فيكون الكمه خلْقة ، أو أن يكون قد اعترته ظلمة ، فطمست عينه ، فيكون الكمه حادثا بعد بصر ، أو أن يكون كما يقول ابن الأعرابى ، يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل [٢] ، أقول : وإن اختلف اللغويون والمفسرون فى ذلك كله إلا أن اللفظ يُعلن من بين حروفه قساوة الضر ، وفداحة العيب ، بل ويذهب هذا اللفظ فى بعض معانى مادته إلى أن يكون الأكمه مسلوب العقل ، ويتفق فى بعض تفسيراته مع مدلول يذهب إليه لفظ الأعمه من حيث إنه لا يدرى أين يتوجه .

وأخيراً كلمة المكفوف ، وقد جاء فى لسان العرب : المكفوف : الضرير ... وقد كُف بصره ، وكفّ بصره كفا : ذهب . ورجل مكفوف أى أعمى [٣] . ويرى بعض الدارسين أن مادة هذه الكلمة لا تذكّر بما يسوء أو يؤلم ، ولذلك يفضلون استعمالها ، ويزيّنون لاستحسانها ، ومن هؤلاء الشيخ أحمد الشرباصى فى كتابه « فى عالم المكفوفين » إذ يقول : « وأمَا كلمة المكفوف فهى الكلمة الجميلة المقبولة التى أستحسنها ، وأدعو إلى تعود استعمالها وإطلاقها على من فقد البصر ؛ وذلك لأن مادتها لا تذكّر بما يسوء أو يؤلم ، ففى لسان العرب « كفّ الشىء يكفّه كفا : جمعه ، والكف : اليد ، والمكفوف : الضرير ... ويكفّ ماء وجهه أى يصونه ويجمعه عن ذل السؤال ، وأصله المنع ، والكفاف – أيضا – من الرزق : القوت ، وهو ماكفّ عن الناس أى أغنى ، وفى الحديث « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا » . وفى أساس البلاغة مايفيد أن كلمة مكفوف مأخوذة من معنى انكفافه عن الشر ، وفى مفردات القرآن : « يقال رجل مكفوف لمن قبض بصره ، ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ أى كافًّا لهم عن المعاصى ، والهاء فيه للمبالغة ، ويقال للجماعة : الكافة . وكفّفت الثوب إذا خطت نواحيه بعد الخياطة

---

(١) لسان العرب (ض ر ر) جـ ٤ ، ص ٢٥٧٣ .

(٢) المصدر السابق (ك م ه) جـ ٥ ص ٣٩٣٣ .

(٣) المصدر السابق (ك ف ف) جـ ٥ ص ٣٩٠٣ .

الأولى ... وممّا يقوّى استحساننا استعمال هذه الكلمة أن نلحظ أنّ المكفوف قد كفّ الله بصره ، أى حجبه وستره ، وكذلك قد كفّ الله المكفوف عن تمام الاختلاط بالناس ، وكمال المشاركة لهم فى كل شىء . وقد كفّ المكفوف نفسه عن الإساءة غالباً فهو مكفوف الشر ، ولذلك أتمنى أن يشيع استعمال كلمة مكفوف بدل الكلمات الأخرى ... » [١] .

وما أظن أن الخلاف فى الرأى يضيق به صدر باحث ، وأن وجاهة رأيين فى هذه المسألة تمنع احتمال رأى ثالث . ومن هذا المنطلق فإننى لا أرى فى كلمة المكفوف فضلا يميزها على كلمتى العاجز والضرير أو غيرهما مما يحمل فى مادته – من هذه الألفاظ – نقصان جارحة أو انعدام مقدرة أو إعلان عجز ، أو الإصابة بضر ...

وإذا كان فى كل كلمة من هاتيك الكلمات : العاجز ، والضرير ، والأعمى ، والأعمه ، والأكمه مايؤلم صاحبها ، ويؤذى حسه ، أو مايذكّره بسوء حاله ويعكّر صفوه ، فكذلك الأمر فى كلمة المكفوف ، فهو مكفوف القدرة على الرؤية ، أو ممنوع المتعة بنعمة الإبصار ، ففى الكف منع ، وفى المنع ضر وسوء حال ، وماهكذا كان أو يكون الأمر فى إطلاق كلمة البصير على فاقد البصر ، على حقيقة مدلول اللفظ ، تذكيراً بما عوّضه الله به من نور بصيرة يغنى عن فقدان البصر ، أو على مجازية مدلوله : تفاؤلا أو تأدبا [٢] .

هذا إذا كان الأمر يختص بتحكيم الذوق السليم والخلق النبيل ، والعقل اللبيب ، فى اختيار مايحسن إطلاقه صفة أو لقبا على مَنْ :

لم يَسِرِ من خطوة فى إثرها   خطوة إلا تأنّى واستجم
عمره ليل طويل ، ما لَهُ   كوكب يبدو ، ولا صبح يعم

---

(١) فى عالم المكفوفين ، الشيخ الشرباصى ، ص ١٩ وما بعدها .

(٢) ولذلك يستعمل لفظ البصير فى البيئات المهذبة المثقفة مثل المجالس العلمية والمنتديات الأدبية ، وكذلك كثيرا ما يستعمل لفظ البصير وتوأمه المبصر فى بيئاتنا الريفية ذات الحياء الطبعى والأدب العرفى ، حيث ينبو اللسان بحكم النشأة والتعود عن ذكر عيوب الآخرين ، وعن التنابز بالألقاب .

ليس يدرى الصبح إلا خبرا قد رووه أو حديثا قد زُعِمْ
وهو فى شك وريب مرمض حيث ولّى ، وعناء حيث همْ [١]

وإن كان الواقع يثبت لنا أن المكفوفين أنفسهم وكذلك المتحدثين إليهم وعنهم لم ينشغلوا بقضية أىّ هذه الألفاظ أنسب ، ولا أيها أخف ، فهذا أبو العلاء المعرى يستخدم من هذه الألفاظ لفظ الأعمى ، يقول :

إذا مر أعمى فارحموه وأيقنوا — وإن لم تكفّوا — أن كلكم أعمى [٢]

وهذا بشار يذكر من هذه الألفاظ لفظين : الضرير والعمى حيث يقول :

وعيّرنى الأعداء والعيب فيهم و ليس بعار أن يُقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس يُضير
رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير [٣]

ومن بين من تحدثوا عن أصحاب هذه العاهة حافظ إبراهيم ففى قصيدته « أكملوا نقص المكفوفين » يستعمل أربعة ألفاظ هى : المكفوف ، والأكمه ، والضرير ، والبصير ، من ذلك قوله :

كم رأينا من أكمه لا يجارى وضرير يُرجى ليوم عبوس
لم تقف آفة العيون حجازا بين وثباته وبين الشموس
عَدِمَ الحسَّ قائدا فحداه هَدْىُ وجدانه إلى المحسوس

ويختم هذه الأبيات بقوله :

فعلى كل أكمـــــه وبصير شكر أعضائكم وشكر الرئيس [٤]

وهذا شوقى فى قصيدته « الأزهر » يذكر من هذه الألفاظ أربعة ألفاظ أيضا هى

---

(١) من قصيدة تمثال الأعمى للشاعر فخرى أبو السعود ، مجلة الثقافة س ١ ، ع ٣٧ ، ص ٤٠ ، بتاريخ ١٩٣٩/٩/١٢ .

(٢) لزوم مالا يلزم ، لأبى العلاء المعرى ص ٢٤٢ .

(٣) ديوان بشار ، حـ ٤ ، ص ٥١ .

(٤) ديوان حافظ إبراهيم ، حـ ١ ، ط ٢ ، ص ٣٠٦ .

الأعمى ، والكفيف ، والمبصر ، والضرير ، وفى القصيدة يستعطف الشاعر قلب الأمير على مكفوفى الأزهر ، وفى آخرها يقول موجها كلامه للأمير :

نظرا وإحسانا إلى عميانه ... وكن المسيح مداويا ومجبّرا
والله ماتدرى لعل كفيفهم ... يوما يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد ... غبنا ، وجلّ المشترِى والمشترَى
إن فاتهم من نور وجهك فائت ... لم يعدموا لوجوه بِرِّك منظرا
لمسوا يداك كمن يشاهد مزنة ... ويد الضرير وراءها عين ترى (١)

وهذا على الجارم فى قصيدته « الأعمى » يستخدم لفظتى الأعمى والعاجز وفى ذلك يقول :

أنقذوا العاجز الفقير وصونوا ... وجهه عن مذلة وابتذال
علموه يطرق من العيش بابا ... وامنحوه مفاتح الأقفال
لا تضموا إلى أساه عمى الجهـ ... ـل فيلقى النكال بعد النكال (٢)

أما إذا كان الأمر يختص بأنسب هاتيك الكلمات وصفا لطه حسين ، أو لقبا يجمع بين شخصيته الفذة الأثر ، وبين عاهته الممتدة العُمُر ، فلا أجد ذلك فى تلقيبه بالكفيف أو المكفوف ، بالمدلولات التى استحسن الشيخ الشرباصى بسببها استعمال هذه الكلمة ؛ لأن طه حسين لم يكن مكفوف الشر كما سوف نعرف ، ولا متجنبا مخالطة الناس .. ولا أجد ذلك فى تلقيبه بالأكمه ؛ لأنه لم يولد أعمى ، ولا فى تلقيبه بالضرير ؛ لأن عاهته لم تُسقطه فى قيعان الضر وسوء الحال ، ولا فى تلقيبه بالعاجز ، إذ لم يؤخذ عليه فقدان القدرة ، وانعدام الحزم ، ولا فى تلقيبه بالأعمه ؛ لأنه لم يكن ضال القصد ، متحير الخطى لا يدرى أين يتوجه ، ولا فى تلقيبه بالأعمى الذى :

من رآه يرى خليطا من البؤ ... س ، هزيلا يسير فى أسمال
هو فى ميعة الصبا وتراه ... مطرق الرأس فى خشوع الكهال
ساكنا كالظلام يحسبه الرا ... ءون معنى لليأس فى تمثال (٣)

---

(١) الشوقيات ، حـ ١ ، ص ١٧٧ .
(٢) ديوان الجارم ، حـ ١ ، ص ٨١ ومابعدها .
(٣) ديوان الجارم ، قصيدة الأعمى ، حـ ١ ، ص ٧٨ .

وإنما أنسب هاتيك الكلمات – فى رأيى – وصفا لطه حسين أو لقبا يجمع بين شخصيته وعاهته هى كلمة البصير ، فهو – فى ظنى – بصير بحقيقة مدلول مادة هذه الكلمة ، وما توحى به من معرفة ، وفطنة ، وعقيدة قلب ، وتمييز رأى ، ووضوح بيان ، وقوة حجة ... وهو أيضا بصير بمجازية مدلولها وعرف استعمالها ، وما تفيد به من تأدُّب فى التعامل مع فاقد البصر ، ومن تذكر لما عوّضه الله به من نِعَم أخرى ، وأظهرها نور البصيرة .

* * *

ثانيا : وقفة تأملية :

حول العلاقة بين المحنة والمُمْتَحَن

لم تكن محنة فقّد البصر – فى عصر من العصور أو فى وطن من الأوطان – محنة تتوقّف بسببها حياة إنسان ، أو كارثة يتكدّر بحدوثها صفاء إيمان ، حتى وإن شقِى بها صاحبها لشعوره بنقص فى الجوارح ، وهلعت بحدوثها أفئدة آلِهِ بحكم الطبيعة البشرية فى مواجهة المكاره .

وفى البيئة المصرية بعامة ، والبيئات الريفية فيها بخاصة ، تعوّد الناس مواجهة هذه المحنة فى المولود بها إرثاً وقَدَرًا . وتقبّلوا مداهمتها المبتلى بها صغيرا ، ليحمل بها إلى دنياه الجديدة آثار عوامل البيئة البائسة جهالة وإهمالا ، وتلوّثا وضررا . وألفوا مفاجأتها المصطلى بها عقاباً أو ابتلاء فى حادثة ، أو مضاعفات لعلاج من صدمة ، أو نتيجة لأيّة أزمة استشاطت شررا ، وقنوعا بمصاحبتها المنتهى إليها عجوزا يشكو فى ليلها المتصل بلواه : شيخوخة مستضعفة ، وعهداً نكرا .

وأكثر من ذلك فإن مصر – طبقا لإحصائيات منظمة الصحة العالمية لهيئة الأمم المتحدة – تحتل مركز الصدارة بين دول العالم فى زيادة النسبة المئوية لظاهره فقّد البصر بين سكانها (١) ، مما دفع بعض الباحثين إلى الزعم بأن مصر أكثر بلاد الأرض عميانا (٢) ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن جداول الإحصائيات هذه تثبت

---

(١) يؤيد هذا الزعم ما ورد فى إحصائية سنة ١٩٦٧ م لأعداد المكفوفين ، ونسبتها المئوية لعدد سكان العالم وكانت كما يلى :

اسم الدولة	عدد المكفوفين لكل ألف نسمة	اسم الدولة	عدد المكفوفين لكل ألف نسمة
١ – مصر	٤ر٠٠	٢ – الأرجنتين	٢٥٣
٣ – روسيا	٢ر١٠	٤ – الولايات المتحدة	–و٩٧
٥ – المملكة المتحدة	–ر٨٨	٦ – ألمانيا	–ر٨٥
٧ – فرنسا	–ر٨٤	٨ – كندا	–ر٦٢
٩ – هولندا	–ر٨٤		

الفكر التربوى لرعاية المكفوفين . د. لطفى بركات ص ٤٥ .

(٢) راجع : الأهرام ١٩٥٥/٩/٦ م مقال بعنوان : دراسة إحصائية للمكفوفين ، للأستاذ السيد عبد الحميد الدالى ، وكذلك راجع : فى عالم المكفوفين للشيخ أحمد الشرباصى ، ص ٧٠ .

ارتفاع النسبة المئوية لمحنة فقد البصر بين مواطنى الدول النامية جميعا عنها بين الأجانب الذين يسكنون هذه الدول ذاتها ، مما يؤكد أن لمستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية دخلا كبيرا فى حجم حدوث هذه الظاهرة فيمن يسكنون نفس المكان ، ويتزامنون نفس الحقبة التى أحاطت بها الاحصائية [١] . ومن ناحية ثالثة فإن البيئة المصرية ، كغيرها من البيئات قد كانت – إبّان لثّمتها عهود التعطّل الثقافى والتخلف الحضارى – أرضا خصبة لآفات الفقر والجهل والمرض ، وما ينتج عنها فى آحادها أو مجموعها من سوء يُرى فى حياة الناس اليومية مظهراً ومأكلا ، ومشربا ومسكناً ، ويُرى فى أحوال البلاد السياسية من استبداد الحاكم وطغيان الظالم ، واستمرار المحتل واستسلام المواطن ... ولكنها برغم ذلك كله كانت كلما خطت خطوة على طريق الكفاح ، وجلت فكرة من أجل إصلاح ، واقتفت أثراً لتحقيق نضج ، وانتضت عرقا لإتمام وعى ... إنما هى بذلك تفتح أمامها أبواب المعرفة ، وتمهد لمستقبلها سبل التحديث ، وتحجّم فى أنحائها مضاعفات التخلّف ، وتجلجل فى أعماقها صيحات الأمل فى غد أفضل ، وأنات الأسى والغضب على أمس أعسر .

وفقْد البصر فى هذه البيئة أو فى غيرها حين لا يكون خلقة وإرثاً ، أو شيخوخة وضعفا ، إنما يكون ظلا من ظلال نقص الإمكانيات المتوفرة للتطبيب ، وسمة من سمات الجهل بالاجراءات الصحيحة للوقاية ، ونتيجة طبيعية لتلوث البيئة ، وتخلّف الوعى الصحىّ عند الناس ، ومن أجل ذلك كانت نسبة فقْد البصر بمصر – فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن – مخيفة مفزعة ، ثم بدأت هذه النسبة تنخفض [٢] فى تدرج ،

---

(١) فى مصر مثلا ، طبقا لتعداد ١٩٣٧ م ، وصلت نسبة فاقدى البصر بين الوطنيين ٥ر٥ فى الألف ، ولكن النسبة فى سكان مصر من الأجانب كانت ٥ر١ فى الألف ، وفى إحصائية ١٩٤٧ م كانت النسبة المئوية بين الوطنين المصريين ٠٠ر٤ فى الألف ، ولكنها كانت فى الأجانب ساكنى مصر ١ر١ فى الألف ، ومثل هذا حدث فى الجزائر ، وفى جنوب أفريقيا وغيرهما ، ففى تقرير ١٩٧٣ م لمنظمة الصحة العالمية لهيئة الأمم المتحدة كان عدد المكفوفين بين الوطنين ٣٩١ فى كل مائة ألف نسمة ، فى حين أنها كانت بين الأجانب ١٢٣ فقط ، وفى جنوب أفريقيا كانت النسبة بين الوطنين ٣٦٧ فى كل مائة ألف نسمة ، فى حين أنها كانت بين الأجانب ٩٧ فقط . راجع الفكر التربوى فى رعاية المكفوفين .د. لطفى بركات ص ٣٠ ومابعدها .

(٢) سجل الدكتور لطفى بركات عدد المكفوفين بجمهورية مصر العربية ، فى كتابه الفكر التربوى فى رعاية المكفوفين ص ٣٣ ، وكانت النسبة المئوية لهم كما يلى : =

فطه حسين ، وهو ابن مصر فى محنته هذه ، لم يكن إذن نادرة زمانه ، أو منكوب عصره ، وإنما كان شأنه شأن العشرات والمئات والألوف ممن يبتلون بهذه المحنة صغاراً ، أو يولدون بها ابتداء ، أو يمتحنون بالصبر عليها كبارا ، وهى محنة تزداد نسبة حدوثها فى الأقاليم عنها فى المدن ، وفى البيئات الزراعية عنها فى البيئات الحضرية ، وفى عهود الجهل والقهر والفقر عنها فى عهود الوعى والاطمئنان واليسر .

وطه حسين فى قهره لمحنته هذه ، وفى رفضه أن تتحطم - فى ليلها - ذاته ، لم يكن وحيد شركائه فى مصابه ، وإنما كان لهذه المحنة من التأثير عليه ماكان لها على غيره ممن سبقوه فى الابتلاء بها أو لحقوا به ، حيث دفعتهم دفعا إلى أن يتسلح البصير منهم : بتدريب حواسه الأخرى ، ومنها السمع ، واللمس ، والشمّ ، مما يعوّضه عن فقدان البصر ، ويفوّقه على أكثر المبصرين . وأيضا باستغلال ملكاته وتنمية مواهبه وقدراته بما يؤدى به إلى الإبداع أو الاختراع فيما يقيم جهده عليه ، والتفرّد أو التميّز فيما يظهَرُ على الناس به . وبدربة ذكائه ، وقوة ذاكرته ، ودقة ملاحظاته ، وبراعة استنباطاته ، ووفرة مخزونه ومحفوظه ؛ مما يخلّد ذكره ، ويعظّم أمره ، ويجعل منه فى دنيا الشهرة بؤرة إشعاع ومضاء ، ومثيرا لا تلجمه الأهواء ، وصدق ابن عباس فيما أنشد له الجاحظ :

=

سنة التعداد	عدد السكان	عدد المكفوفين	النسبة المئوية
١٩٠٧	١١٫١٨٩٫٩٨٠	١٤٨٫٢٨٠	١٫٣٪
١٩١٧	١٢٫٧١٨٫٢٥٥	١٥٤٫٣٢٩	١٫٢٪
١٩١٧	١٤٫٧١٨٫٨٦٤	١٠٩٫٩٣٤	٠٫٨٪
١٩٣٧	١٥٫٩٢٠٫٩٦٤	٠٨٦٫٧٢٧	٠٫٥٪
١٩٤٧	١٨٫٩٦٦٫٧٦٧	٠٧٥٫٣٤٤	٠٫٤٪
١٩٦٠	٢٦٫١٥٩٫٠٠٠	.٩٢٫٣٥٨	٠٫٣٦٪
١٩٧٠	٣٤٫٥٠٠٫٠٠٠	١٠٠٫٠٠٠	٫٤٥٪

والملاحظ أن النسبة المئوية للمكفوفين بمصر فى إحصائية عام ١٩٠٧ وهى أقرب إحصائية للمرحلة الأولى من حياة طه حسين أعلى مما صارت إليه فى كل عقد تالٍ ، وأن الانخفاض أخذ فى تدرج تنازلى حتى انتصف القرن ، ثم أخذت فى التدرج التصاعدى فى التعدادين الأخيرين بهذه الإحصائية ؛ لما مُنيت به مصر - فى مرحلة التحول بعد قيام الثورة من زيادة ديون ، وفتح معتقلات ، ودخول فى حروب متعددة الدوافع ، متناقضة النتائج .

إن يأخذ الله من عينىّ نورهما ففى لسانى وسمعى منهما نور
قلبى ذكى، وعقلى غير ذى دَخَلٍ وفى فمى صارم كالسيف مأثور [١]

وما أظن ابن عباس مغالياً فى تقدير ماعُوّض به عن فقْد البصر من ذكاء العقل وذكاء القلب ، ومن قوة اللسان ودقة السمع ، فقد ينعم الله بالبلوى وإن عظُمت ، « قال رجل للقاسم بن محمد ، وقد ذهب بصره : لقد سُلبت أحسن وجهك ، قال : صدقت ، غير أنى مُنعت النظر إلى ما يُلهى ، وعُوِّضت الفكرة فى العمل فيما يجدى » [٢] ، وقال الصفدى صاحب نكْت الهميان فى نكت العميان : « قَلَّ أن وُجد أعمى بليدا ، ولا يُرى أعمى إلا وهو ذكى ... والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمعان عليه ، ولا يعود متشبعا بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئا نسيه أغمض عينيه ، وفكّر ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفى المثل « أحفظ من العميان » [٣] .

وحدة الذكاء وقوة الحافظة عند فاقد البصر وثيقا الارتباط عنده بقدرة حاسة السمع ومالها من أهمية فى العوض عن فقد البصر ، بل قد رجح عند الأكثرين – فى مجال المقارنة والتفضيل – فضل السمع على البصر ، مؤيدين هذا الترجيح عندهم بأن الله سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه : ﴿ صم بكم عمى ﴾ قد قدّم متعلق السمع على متعلق العين ، والتقدم دليل الفضيلة ، ومؤيدين هذا الترجيح أيضا بأن السمع شرط فى النبوة بخلاف البصر ، ولذلك لم يأت فى الأنبياء صلى الله عليهم من كان أصم ، وجاء فيهم من طرأ عليه العمى ، ومؤيدين هذا الترجيح أيضا بأنه بالسمع تصل نتائج العقول فالسمع كأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف والعلوم ، وهو متصرف فى الجهات الست ، بخلاف البصر الذى لا يتصرف إلا فيما يقابله من المرئيات ، ومؤيدين هذا الترجيح أيضا بأن السمع هو أصل للنطق ، ولهذا لا ترى الأخرس إلا أصم ، وليس كذلك البصر ؛ لأنه إذا بطل لم يبطل النطق [٤] .

---

(١) نكت الهميان فى نكت العميان للصفدى ، ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٣ .

(٤) راجع فى ذلك : نكت الهميان فى نكت العميان للصفدى ، ص ١٨ ، وقد أورد =

وحدة الذكاء وقوة الحافظة وفضيلة حاسة السمع عند فاقد البصر لا تغنيه فى تعويض فقد البصر عن دربة بقية الحواس غير السمع ؛ لتكون كل منها باستكمال مهاراتها عنده عينا يرى بها بطريق الشم أو طريق اللمس أو طريق السمع أو طريق قوة الذاكرة ، أو دقة الحس وغير ذلك كله من مصادر الرؤية عند فاقد البصر ، بحيث يصبح بكل منها على انفراد ، أو بتفاعلها معاً فى تآزر واتحاد ، صاحب تفوق وإبداع ، وواحداً من الأفذاذ والرواد فى مختلف المجالات .

أو ليس المطلع على سجل الخالدين من الروّاد والمبدعين بمبهور بما قدَّم هؤلاء العمالقة العباقرة من المكفوفين فى مختلف الأوطان ، وعلى تتابع الأزمان شرقا وغربا ؟

فإذا قصدنا تذكار بعض هؤلاء من غير العرب ، فهل ينسى ما قدّمه هوميروس للأدب فى عمليه العظيمين : الإلياذة والأوديسة ؟ وما اشتهر به « نيكولاس ساوندرسُن » فى علم الرياضيات وما يتصل به من الفلسفة وعلم الهيئة ؟ وما ظهر به « جون متكالف » فى الهندسة وشق الطرق ؟ وما تميزت به « ماريا تيريزيا » فى الموسيقى ودنيا النغم ؟ وما خُلِّد به ميلتون فى الشعر ومجال القصيد ؟ ومابقى به ذكر « لويس بريل » فى ميدان تعليم المكفوفين بالطريقة التى سُميت باسمه ؟ وما احتفظ به التاريخ « لماسويللى » الإيطالى من براعة فى فن النحت ، وأصابع حساسة فى معالجة الصلصال ، فأبدع فيما نحت من تماثيل تخيلها بنور بصيرته أو حاكى فيها قسمات وجوه لمسها بأصابعه ؟ وكلٌّ من هؤلاء كان بصيرا .

وإذا قصدنا تذكار بعض هؤلاء من العرب [1] ، فهل ينكر منكر ما للمعرى فى أشعاره ولزومياته ورسالة غفرانه من فضل عظيم على حياتنا الأدبية والفنية فى زمانه وما بعد زمانه ، أو ما لبشار بن برد فى عطائه الشعريّ ، مما يشهد له بأنه حقيق بما تبوّأ من مقام

= المؤلف رأى القلة التى فضلت البصر على السمع مستدلين بأن متعلق قوة الباصرة هو النور ، ومتعلق القوة السامعة هو الريح ، والنور أفضل من الريح ، ولكن صاحب نكت الهميان يختم هذا العرض للرأيين بقوله : ولا شك أن أدلة فضيلة السمع أقوى من دليل فضيلة البصر » . راجع نكت الهميان ص ١٨ .

(١) ترجم صلاح الدين الصفدى (المتوفى بدمشق سنة ٧٦٤ هـ) لثلاثمائة وعشرة من مشاهير المكفوفين العرب فى مختلف مجال العطاء والإبداع ، وذلك فى كتابه نكت الهميان فى نكت العميان ، من ص ٨٧ إلى ٣١٧ .

فى عالم الأدب ، وبما حق له فى زعم بعض الزاعمين من أنه زعيم الشعراء المحدثين ؟ أو ما للعلامة أبى الخطاب قتاد بن دعامة السدوسى البصرى المفسّر من تفوق ، حتى ضرب به المثل فى قوة الحفظ وحضور الذاكرة ، فكان يقول لقائده : تجنّب بى الحلق التى فيها الخطأ ، فإنه ماوصل إلى سمعى شيء فأداه إلى قلبى ، فنسيه ؟ ، أو ما لإمام النحاة أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الغرناطىّ من فضل فى التفسير والحديث والتراجم ، وما لغير أولئك وهؤلاء ممن تجمعهم بهم فضيلة السبق ، وعظمة الريادة فى مختلف مجالات العطاء ، وكان كل منهم بصيرا .

وبين المحنة والممتحن علاقة ثائرة أبداً ، ما تفتأ تدفع به إلى تحطيم قيدها ، وتحدى ضعفها ، وتعويض نقصها ، فإذا كان الممتحن بها من ذوى الشخصية القوية ، والهمّة الفتية ، والطموح الراشد ... انطلق الممتحن بها وتحدّى وعوّض ، وزاحم ليلفت إليه الأنظار ، وخالف ليثير حوله الغبار ، وقاوم حتى يظهر على محنته بما شق على نفسه بسببها فأبدع ، وحتى يظهر على بيئته بما أجهض توقعها لضعفه بها ، فإذا به الأعلى والأقوى والأروع .

ولا تختص وجهه النظر هذه بمحنة دون أخرى ، وإنما هى ترجمة شاملة لعمومية الحكمة الشائعة : كل ذى عاهة جبّار ، ولملمة موجزة لأراء علماء النفس فى بناء الشخصية ، فالرجل الصحيح الجسد قد لا يحتاج فى إظهار شخصيته ، والتأثير فى غيره إلى مايحتاج إليه المشوّه الخلقة أو المنقوص الجوارح ، فبينما نجد الرجل الصحيح طبيعيا فى معاملته ؛ لأنه لا يشعر بنقص خارجى يريد أن يكمله ، إذ نجد ذاك المُبتلى محباً للتظاهر ، مرتجيا التّميز ، منتهزا استغلال الفرص للظهور ، بل إنهم يبرهنون على أن الإنسان حينما يحس نقصا من الناحية الجسمية ، إنما يعمل دائما على أن يملأ هذا الفراغ ، ويكمل ذلك النقص بتعويضه عن طريق تفوّقه العقلى أو الخلقى أو هما معا ، ويضربون على ذلك الأمثال من مختلف الأوطان ، وفى مختلف الأزمان (١) .

---

(١) راجع فى ذلك : كتاب الشخصية ، تأليف محمد عطية الأبراشى ص ٩٧ - ٩٩ ، ومن بين الأمثال التى نوّه بها الأبراشى كان ذكره لسقراط شيخ فلاسفة اليونان ، إذ كان أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، جاحظ العينين ، قبيح المنظر ، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى ذروة المجد . وكان من بين الأمثال التى رَصدها أو اختارها من بين أصحاب العاهات من العرب كان الجاحظ ، أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، وكان دميم=

وبين محنة فقْد البصر والممتحن بها علاقة أخرى لا من حيث أنها أبداً دافع للشخصية القروية الطموح إلى التحدى والإثارة والظهور ، وإلى السبق وتخليد الذكر وإثبات الوجود ، ولكن – أيضا – من حيث ظلالها الممتدة فى أعماق الممتحن بها ، والملثمة لإحساسه بذاته ، والمسيطرة على تصرفاته ، والكامنة فى شعورة ولا شعوره ، فتظهر للآخرين فى مزاجه من حيث تقبله لمحنته ، وتأقلمه معها ورضاه عليها ، فإذا هو بها مطمئن ، ومن خلالها مفاخر ، وبدفعها مثير وثائر . أو من حيث هروبه منها بالمداراة لها ، أو هروبه بها بالانطواء عن الناس بسببها ، فإذا هو بها قلق ، ولذكرها زاهد ، وفى ظلها ملول مهموم . كما أنها تظهر للآخرين فى مزاجه من حيث أن يكون متفائلا ، واثقا من نفسه ، غيورا على عمله ، صافى الذهن ، حاد الذاكرة . أو أن يكون عنيدا ، سريع الانفعال ، قوى الإرادة . أو كسولا ، قليل الاكتراث ، بطىء التأثر ، أو أن يكون ظنينا ، تنتابه الوساوس ، حزينا تتقاسمه المخاوف . أو عصبيا حاد الطبع ، سريع التأثر ، كثير التشاؤم .. إلى آخر هذه النعوت التى تندرج تحت اختلاف الأمزجة [1] ، والتى تنتج عنها اختلاف الشخصيات ، وتباين السلوك فى الحياة بصورة عامة ، وفى الموقف الفرد بصورة خاصة .

وتاريخ حياة الممتحن بهذه المحنة من الأدباء يشهد باختلاف علاقتهم بها ، وموقفهم منها . ولنكتف بالإشارة إلى ثلاثة اختلفوا زمانا وتاريخ ميلاد ، ومكانا وظروف نشأة ، واتفقوا جميعا فى الابتلاء بهذه المحنة ، ولكنهم اختلفوا فى موقفهم منها ، وصلتهم بها ، فمنهم من اعتبرها نعمة فحمدها وأحسن استغلالها ، ومنهم من اعتبرها نقمة فحاول سترها ، وشكا ظُلمتها ، ومنهم من تجاهلها مقتنعا ، وعايشها ممتنعا ، فلم يذكرها راضيا بها أو ساخطا عليها ، وقضى حياته بها وكأنما هو المبصر وغيره هو البصير . وهؤلاء الثلاثة على التتابع هم : بشار بن برد ، وأبو العلاء المعرى ، وأحمد الزين .

= الخلقة ، بشع المنظر ، جاحظ العينين ، ولكنه قد وصل بمواهبه العقلية والخلقية الأخرى إلى أن صار دائرة معارف فى الآداب والعلوم واللغة والتاريخ ، وحتى أصبح لقبه – الذى كان يكرهه – دليلا على التبحّر فى العلم والأدب ، والفوّق فى فنون البلاغة ودنيا البيان .

(١) راجع تفسير العلماء قديما وحديثا لاختلاف الأمزجة فى كتاب الشخصية للأبراشى ص ١١٤ ومابعدها .

فهذا بشار بن برد المولود بالبصرة فى أواخر القرن الأول للهجرة – يحمد فقد البصر ، وتعطل هذه الجارحة نثراً فيقول : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء ، فيتوفر حسه وتقوى قريحته ، ويحمد هذه المحنة شعراً فيقول :

عميت جنينا ، والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا لقلب إذا ماضيّع الناس حصلا [1]

وعاش بشار يفخر بهذه المحنة ، ولا يتردد فى الإعلان عنها ، والإشارة إليها وهو يمدح أو يهجو أو يتغزل أو يتفكه ويتندر ، فإذا كان فى البيتين السابقين قد مدح نفسه من خلال محنته ، وجعلها هى سر تفوقه وفطنته ، فإنه فى هجائه الناس وبسْط لسانه فيهم ، كان يرى فى محنته دافعا إلى ذلك ؛ ليُرْهَب فيُستمال ، وليُخاف فيُعطى . فمن أخباره أنه كان وهو صغير يهجو الناس فيجيئون إلى أبيه ، فيشكونه ، فيضربه أبوه ضربا شديدا – على حبه له – فكانت أمه تقول : « كم تضرب هذا الصبى ! أما ترحمه ؟ فيرد عليها : بلى والله إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرّض للناس فيشكونه إلىّ ، ولما سمع بشار هذا القول من أبيه ، طمع فيه ، فقال له : ياأبت ، إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر ، وإنى إن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلى ، فإن شكونى إليك فقل : أليس الله يقول : « ليس على الأعمى حرج » . والبصير – عادة وحساسيةً – يكره أو يستنكر أن يسمع هذا اللفظ ، بله أن يُلقَّب به ، ولكن بشار بنفسه يستعين باستخدام هذا اللفظ على اتباع هواه ، وعلى قضاء حوائج دنياه ، فيفقِّه به أباه ؛ ليتخذه وسيلة مكرٍ فى إسكات شكوى الناس ، ودهاء تحايل فى تبرير فحش ولده ، واستمراره فى التقحم على الآخرين بالشتم وتكدير الإحساس .

وكذلك كان أمر بشار فى الإكثار من ذكر محنته وهو يتغزل أو يروض القول فى دنيا الغرام ، وأحوال العشق ، فكان السمع فى هذا المجال يكفيه غيبة البصر فى تكوين الصورة ، وتصوّر الهيئة ، وتحديد الملامح ، فيصف وكأنه يرى ، بل خيرا ممن يرى ، مما يثير الدهش ويُغرى بالتساؤل ، وفى ذلك يقول :

---

(١) ديوان بشار ، حـ ١ ص ٣٠ ، وراجع نكت الهميان للصفدى ، ص ٧٥ .

عجبت فَطْمة من نعتى لها ... هل يجيد النعت مكفوف البصر ؟[١]

وإذا ما استخفّ به المبصرون فى التغزل بمن لا يراها ، والعشق لمن لم يدر مرآها ، عاب عليهم جهلهم بوسائل الغرام ، وعلّمهم حقيقة موطن العشق . يقول :

ياقوم أذنى لبعض الحىّ عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا : بمن لا ترى تهذى ، فقلت لهم ... الأذن كالعين توفى القلب ماكانا
هل من دواء لمشغوف بجارية ... تَلْقَى بلقيانها رَوْحاً وريحانا [٢]

فهو يعشق بأذنه لا بعينه ، وما العين أو الأذن إلا وسائل استقبال وإرسال تنقل إلى القلب دواعى الهوى ، أو تنقل من القلب ذبذبات الغرام ، فبالقلب وحده يعشق الإنسان ويحب ، وبالقلب وحده يبصر ذو اللب ويرى ، وفى دنيا العشق لا تبصر العين إلا ما يمدها به القلب ، ولا تسمع الأذن إلا ما يأذن به وله الحب ، ولذلك قالوا : الحب هو عمى الجوارح عن عيوب المحبوب ، ولذلك أيضا يقول بشار :

يزهدنى فى حب عبدة معشر ... قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى ... فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان فى موضع الهوى ... ولا تسمع الأذنان إلا من القلب [٣]

بل إن بشارًا فى دنيا عشقه وهواه يكفيه السمع غيبة البصر ، دون أن يجد فى ذلك منقصة أو ضررا ، لذلك يقول :

بُلِّغت عنها شكلا فأعجبنى ... والسمع يكفيك غيبة البصر [٤]

وإذا كان هذا شأن بشار مع محنته فى الإكثار من ذكرها ، والتلهى عن ضررها ، فإنه فى بعض الأحايين كان لا يملك إلا البكاء رثاء لها أو رثاء لموقف الناس منها ، ولكنه سرعان مايعزى نفسه ، ويفقّه غيره بأنّ فى ضميره غناء له ، إذ به يرى ، وبه يتصور من لا يرى :

---

(١) راجع ديوان بشار ، حـ ٤ ، ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٦ ، والجزء الأول من ديوان بشار ص ٣١ ، والملاحظ فى البيت الثانى اختلاف الروايات فى كلمتى تهذى ، وتولى ، فالأولى فى رواية أخرى تُغْنى ، والثانية رويت : تؤتى مرة ، وتُولى مرة أخرى .

(٣) ديوان بشار ، حـ ١ ص ٣١ ، وحـ ٤ ، ص ١٢.

(٤) ديوان بشار ، حـ ١ ، ص ٣١ .

وكاعب قالت لأترابها ياقوم ما أعجب هذا الضرير
هل يعشق الإنسان من لايرى فقلت – والدمع بعينى غزير
إن تك عينى لا ترى وجهها فإنها قد صُوِّرت فى الضمير [١]

وفى قليل من الأحايين كان بشار يفصح فى ظرف ومرارة عن حقيقة أثر العمى على طاقاته الهائلة فتحدّها ، وتصرفه عن كثير من الأعمال التى يزاولها المبصرون ، من ذلك مثلا ما اشتهر من أخباره من أنْ : « دخل يزيد بن منصور الحميرى على المهدى ، وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها ، فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد – وكانت فيه غفلة – فقال له : ياشيخ ماصناعتك ؟ قال : أثقب اللؤلؤ ، فضحك المهدى ، ثم قال لبشار : أُغرب ويلك ، أتتنادر على خالى ؟ قال بشار : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى قائما ينشد الخليفة مديحا ، ويقول له ما صناعتك ؟ » [٢] . ولولا مرارة يجترها بشار بين الفينة والأخرى فى تعايشه مع محنته لما كانت الإجابة على السؤال بهذا الذى قال ، إذ ليس بالضرورة أن يكون منشد الشعر فى حضرة الخليفة بلا صنعة . وأيضا لولا إحساس قوى كمين بنقص هذه الجارحة ، وحرمانه من وظائفها لما ثارت لهذه الأمنية – أمنية أن يكون ثاقب لؤلؤ – فى أعماقه ثورة ، وإن كان ظاهر الحادثة ينبىء بغفلة السائل ، ويعلن عن طبيعة التهجم والسخرية فى سجية المسؤول . وحتى إذا مافهم من ذلك الحوار بين يزيد وبشار أن يزيدا هذا قصد التعريض بقدرات بشار ، وأراد التنكر لشهرته وذيوع صيته ، فلا يخفى مافى إجابة بشار من الاستخفاف بيزيد ، والجرأة عليه فى إظهار بلاهته وعمى بصيرته ..

وهكذا كانت علاقة بشار بمحنته ، علاقة معايشة ومناصرة : تنصره من حيث تمده من ضعفها قوة ومن عجزها صلابة وقدرة ، وصدق قول من قال : حينما أكون ضعيفا أكون قويا ، وينصرها من حيث أنه يعدّها من قبيل النعم وإن كذّبه المبصرون ،

---

(١) نكت الهميان للصفدى ، ص ٧٦ . وجاء فى – فى رواية أخرى – الشطر الأول من البيت الثانى : « هل تعشق العينان مالا ترى ، والشطر الأول من البيت الثالث : إن كان طرفى لا يرى شخصها » .

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ .

ويردّ إليها ماينعم فيه من فضل وإن سخر منه الساخرون ، ويتخذ منها سلاحاً يدفع به عن نفسه خطراً ، أو يقضى به لنفسه وطراً ، دون أن يدع للناس عليه من سلطان فى موقف جد ، أو من استظهار فى موقف هزل ، بل كان بسلاحه هذا فيهم يحوّل جَدّهم هزلا ، ويقلب هزلهم إلى جد ، ويكون معهم فى حاليه كليهما جاداً فى عبثه ، ذاهبا إلى قصده ، وعابثا فى جده ، مؤلما فى وخزه ، وبذلك سرت بين الناس أخباره ، وتردد فى الأفاق شعره وحواره ، وماخرج على هذا المنهج حين سأله سائل : ما أذهب الله كريمتى مؤمن إلا عوّضه الله خيرا منها ، فبم عوضّك ؟ قال : بعدم رؤية الثقلاء مثلك [١] .

ولعل تمدّح بشار بآفته جهراً ، والإكثار من ذكرها شعراً ونثراً ، لم يكن خدعة يخدع بها نفسه ، ويضلل بها غيره ، بقدر ماكان تأقلما مع ماخُلِق به ، وارتباطا بما شبّ وترعرع عليه ، وفى هذا يقول المازنى : « وبديهى أن بشاراً لم يكن يدرك قيمة ماحرم إلا من الناحية العملية ، بما يحصل فى ذهنه من المقارنة بين حاجته واستغناء غيره ، وعجزه واقتدارهم ، وتقيدّه وحريتهم ، أما قيمة النظر وجدواه فى إفادة الصور والمعانى فأمر نشك فى أنه كان يدركه على حقيقته ، أو يفهمه ويعرفه إلاّ توهّما وتخيّلا ؛ لأن معرفة هذا لا تكون إلا بالتجربة والمعاناة ، وهو قد وُلد مكفوفا ، فليس فى وسعه أن يقيس ماصار إليه من الحرمان ، إلى ماكان ينعم به من المزية ، ولا أن ينتفع بما سبق له من القدرة على النظر ، فيستعين بذلك على إفادة المعانى والصور على نحو ما يفيدها المبصر » [٢] .

وإذا ما اكتفينا بهذه الظلال الموحية والأخبار المثيرة المدهشة من سيرة بشار فى علاقته بمحنته ، وتركنا وراءنا مايقرب من ثلاثة قرون من الزمان لنلتقى بفيلسوف المعرّة [٣] ، ورهين المحابس الثلاثة باعترافه حيث يقول :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث [٤]

---

(١) راجع : نكت الهميان للصفدى ، ص ٦٦ .
(٢) راجع : بشار بن برد ، للمازنى ، ص ٢٣ .
(٣) هو أبو العلاء المعرى المولود بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .
(٤) راجع ديوان « الزوم مالا يلزم » للمعرى ، ط ١ ، ص ١٦٠ .

فإذا بنا نلتقى ببصير اختلفت علاقته بمحنته عما كانت عليه علاقة بشار بها ، وفى هذا يقول الدكتور طه حسين : « نشأ أولهما [بشار] يتمدّح بآفته جهراً ، ونشأ ثانيهما [أبو العلاء] لا يذكر هذه الآفة إلا كارهاً ، فإذا تحدث عنها قال إنها عورة يجب أن تستر » (١) .

وأبو العلاء عاش مثقلا بهموم هذه المحنة فى واقعه من جميع نواحيه ، وكذلك فى تخيّله وأمانيه .

ففى واقعه الذى عاشه على امتداد عمره الطويل كانت هذه المحنة أولى المحن ، وبداية الخطو فى طريق المعاناة التى أحنت عوده ، وأحكمت قيوده ، حتى إنه لم يجد مفرا من الاعتراف أو جدوى من الكتمان فيقول : « ... وقد علم الله أن سمعى ثقيل ، وبصرى عن الأبصار نقيل ، قضى علىّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع ، ثم توالت مِحَنى ، فأشبه شخصى العود المنحنى .. » (٢) وإذا ماذكّره الناس بمحنته الأولى هذه ، وما تكسب صاحبها من قبح المنظر ، لم يتذكر ما عوّض به من جمال المخبر وعظمة الجوهر ، أو حدة الذكاء والتميزّ فى العطاء ، وكأنما لم يجد فى شىء من هذا أو فى كل هذا عوضا عن فقده البصر ، فأخذ – فى بعض ماينسب إليه من شعر – يصبِّر نفسه وكأنه يخدعها ، ويؤكد لها وكأنها تكذبه ، يقول :

قالوا العمى منظر قبيح ... قلت : بفقدانكم يهون
والله مافى الأنام شىء ... تأسى على فقده العيون (٣)

وحتى إذا لم يذكِّره الناس بهمِّ المحنة ، وسوء حاله بها ، كان أبو العلاء غير المنقوص الجوارح ، الكامن فى داخله ، يفجِّر لأبى العلاء – المبتلى بفقد بصره – أحزانه

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه ، د . طه حسين ، ص ٦٧ . ولم يثبت أن أبا العلاء حمد لله على محنته هذه إلا فى ما رصده أبو منصور الثعالبى ، فى تتمة اليتيمة ، من حديث لأبى الحسن المصيصى الشاعر إذا قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن لى ، إذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء . راجع أبو العلاء المعرى ، د . بنت الشاطىء ، ص ٤١ .

(٢) أبو العلاء المعرى ، د . بنت الشاطىء ، ص ١٦٣ .

(٣) نكت الهميان للصفدى ، ص ٧٥ .

الكامنة فى أعماقه ، ويثير أشجانه الصامتة فى ظلماته ، فلا يملك معه وسيلة ردع أو سبيل إقناع إلاّ ماكان له مع غير ذاته من ذوات الناس ، فيخاطب نفسه قائلا :

أبا العلاء ، يا ابن سليمانا   إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الورى   ما أبصرت عيناك إنسانا (١)

وإذا لم يكن الموقف مع الآخرين أو الموقف مع الذات مرتبطا بذات العاهة وأثرها – بأن كان منشغلا بعلاج القول فى غرض من الأغراض التى شدّته إليها ، أو موقف من المواقف التى تلاحم بها – فإنه لم يشغله القول فى رثاء أو وصف أو فخر أو غير ذلك من ضروب القول ودواعيه عن أن يبثّ – فيما يقول – إحساسه المظلم الملول بواقعه فى ظل هذه المحنة دون أن يصرِّح أو يخصّص . نقرأ هذا فى ثنايا قصيده ومختلف أغراضه ، وشتى دواوينه ومؤلفاته ، فالحياة – كما جرّبها وعاشها – تعب ومشقة :

تعب كلها الحياة فما أعجب   إلا من راغب فى ازدياد (٢)

وأيامه بها قسوة ممتدة :

تأمّلنا الزمان فما وجدنا   إلى طيب الحياة به سبيلا (٣)

لم يغب عنه إبّانها سوء بخته :

لابد للحسناء من ذام ، ولا   ذام لنفسى غير سىّء بختها

ولكنه تحدّى تعب الحياة وقسوتها ، وسوء بخته فيها بعزيمة قوية ونفس أبيَّه :

أقلّ نوائب الأيام وحدى   إذا جمعت كتائبها احتشادا
وقد أثبتّ رحلى فى ركاب   جعلت من الزّماع له بدادا (٤)

إلى أن يقول فى ختام القصيدة :

ولى نفس تَحُلّ بى الروابى   وتأبى أن تحلّ بى الوهادا
تمدّ – لتقبض القمرين – كفا   وتحمل لى كى تبذّ النجم زادا (٥)

---

(١) نكت الهميان ، للصفدى ، ص ٧٥ .
(٢) المصدر السابق والصفحة .
(٣) سقط الزند ، لأبى العلاء المعرى ، ص ٦٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٦ .
(٥) المصدر السابق ص ٤٨

ولكنها الدنيا لاتُعطى قيادها لأحد ، ومهما طال التحدى لرزاياها ، والصبر على خطوبها ولقياها ، فإن للتحدى أجلاً ، وللصبر أمداً ، وفى النهاية لا يملك مُتَحدٍّ غير الاستسلام حيلة ، ولا يملك صبور حكيم مثل أبى العلاء إلا أن يُعلن قبوله :

ولمّا أن تجهمنى مرادى   جريت مع الزمان كما أرادا
وهوّنت الخطوب علىّ حتى   كأنّى صرت أمنحها الودادا
أأنكرهـــا ومنـــبتها فؤادى   وكيف تناكر الأرض القتادا (١)

فيسير فى تجربتها حتى يزهد ، ويستسلم :

إن زمـانى برزايـاه لى   صيّرنى أمرح فى قدّه
كأننا فى كفّـه مالـه   يُنفق ما يختار من نقده (٢)

وفى معايشته لتجربة الدنيا وأفعالها ، وصبره على غدرها به ، وإيقادها نار الظلام له ، يطغى إحساسه برزء محنته فيها ، ويضعف أمله فى الفرار من رزاياها ، فيسترحم لحاله بها من ضياع الأمان ، وظلام مشبوب العنفوان فيقول :

علّلانى فإنّ بيض الأمانى   فنيتْ والظلام ليس بفان (٣)

وكيف يفنى الظلام بالنسبة له ! وقد صار ملازمه فى حياته مُذ كان ابن أربع ، وسوف يصير دثاره فى رقاده ، حين لا يكون للإنسان غير القبر مضجع (٤) ، بل إنّ ضجعة القبر وظلمة الثرى عنده آمن للعين من حياة تصاب فيها برمد أو عمى (٥) وآمن لفاقد البصر من دنيا لا ينجاب فيها ظلام ، ولا ينجلى عنها ليل .

وتوتُّر العلاقة بين أبى العلاء وبين محنته لم يجمد عند حدود واقعه ، وعلى امتداد عمره ، وإنما امتد جفاؤه لها فى أمانيه التى رسمها بفكره ، وجنّته التى أبدعها بتخيُّله ،

---

(١) سقط الزند ، أبو العلاء المعرى ، ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٣ .

(٤) وفى هذا يقول فى لزومياته :

وإظـلام عين بعـده ظلمـة الثرى   فقُل فى ظلام زيـد فوق ظلام

(٥) وفى هذا يقول فى لزومياته :

إذا طفـــــئت فى الثرى أعين   فقد أمنتْ من عمـى أو رمـد

فهى جنّة كما تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن « ليس فيها من امتُحن بعاهة فى الدنيا إلا رفعت عنه ، بل إنه لا يكتفى بأن يرتدّ الأعمى بصيرا ، والأعشى أحوراً [١] ، والهرم شابا [٢] ، والسوداء بيضاء [٣] ، والبخراء طيبة النكهة [٤] ، وإنما يلتمس تعويض كل منهم تعويضا لا يقترح مثله سوى المبتلى المحروم : فأحدّ أهل الجنة بصراً هم الذين حُرموا نعمة الإبصار فى الدنيا ، وأجملهم عيونا عوراء قيس ، وأطيب نسائها نشراً ، وأذكاهن رائحة فم امرأة كانت تُدعى فى الدنيا حمدونة الحلبية ، وقد طلّقها زوجها بائع السقط ؛ لأنه كره رائحة فمها ، وأنصعهن بياضا جارية كانت تُدعى « توفيق السوداء ، وتخدم فى دار العلم ببغداد ، والأعشى يبْدو فى جنة أبى العلاء وقد صار عشاه حوراً معروفا ، وانحناء ظهره قواما موصوفا » [٥] .

وإذا ما قفزنا إلى عصرنا الحديث بحثا عن النموذج الثالث ، الذى اختلفت علاقته بمحنته عما كانت عليه علاقة كلٍ من سابقيه بها ، فإننا نلتقى « بأحمد الزين » [٦] صاحب الذهن اللاقط الفاحص ، والبصير الذى فاق المبصرين فى مجال التحقيق ومشقّة التصحيح ، حتى قال عنه أحمد أمين : « ولست أنسى يوما – وقفنا فى عبارة نحو أسبوعين لم نعرف تصحيحها ، وهى عبارة أبى حيان عن ابن مسكويه ، بأنه كان غبياً بين أنبياء ، فوقفنا فيها حتى جاء الزين يوما فرحاً ، وقال : إنى وجدت حلّها ، وهى أنه كان عييًّا بين أبيناء ، فشكرته على اكتشافه ، وهنأته بحسن توفيقه ، ومثل هذا عشرات من الكلمات » [٧] .

وإذا كان بشار – كما يشهد نتاجه وما اشتهر من أخبار حياته – قد تمدّح بعاهته وأكثر من ذكرها ، وإذا كان المعرى – كما ينبىء شعره ويتحدّث نثره . قد يئس بمحنته

---

(١) وهو ميمون بن قيس ، انظر رسالة الغفران للمعرى ، ص ١٧٨ .
(٢) وهو زهير بن أبى سلمى المزنى ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
(٣) وهى توفيق السوداء ، المصدر السابق ، ص ٢٨٦ .
(٤) وهى حمدونة الحلبية ، المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .
(٥) أبو العلاء المعرى ، د. بنت الشاطىء ، ص ١٨٩ .
(٦) ولد أحمد الزين بمصر أوائل القرن الرابع عشر للهجرة وأواخر القرن التاسع عشر للميلاد .
(٧) ديوان أحمد الزين . كلمة أحمد أمين ، ص (ح) .

ويئس من امتداد ظلمته ، فإننا هنا فى صحبة ممتحَن لم تفقده ظلمة المحنة طبعية الاعتدال فى الحياة ، أو تكسبه همجية التعامل مع الأحياء ؛ فيتخذ منها وسيلة للتجبّر والاندفاع والتهجم ، بلا تحفّظ أو تحرّج ، ولم تسلمه قسوة المحنة إلى قيد الاعتزال عن الناس ، ورفض الاندماج فى المجتمع ، فيتخذها تميمة للتشاؤم وحرمان الذات ، وإعلان التذمر فى إصرار وتعنُّت .

عاش « أحمد الزين » بمحنته ، يأبى أن يقوده فى مسيره أحد ، وينأى عن الموقف – أىّ موقف – يذكِّره بأنه فاقد البصر ، فإذا ما أُكره على الاستذكار لم يضطرب ، فيؤخذ عليه هذا الاضطراب نقطة ضعف فى تقدير الناس ، ولم يرتعد فيكون تذكيره بمحنته مجال إثارة فى عرف الخنّث ، وإنما كان الرجل يلجِم مذكِّره بما يؤلمه ، ويوجّه الموقف إلى ما يفحمه ، بتذكيره نقصه أولا ، والانشغال بعيبه قبل أن ينشغل بعيوب غيره ، ومصداق ذلك ماذاع بين معاصريه من خبر اصطدامه برئيسه فى القسم الأدبى بدار الكتب حيث كان يعمل ، فإذا برئيسه يقول له : ألا تحمد الله على أننا احتملناك وأنت أعمى ، فيردّ عليه الزين – وكان على يقين من صدق الناس فيما يقولون عن هذا الذى يتثنّى فى مشيته حين يسير ، وينغّم صوته حين ينطق – يرد عليه فى تعريض آلم للنفس من التصريح ، وفى جرأة لا تُخرجه عن تعقُّل المطمئن وجلال الوقور ، فيقول له : إن كفَّ البصر خير من أشياء أخرى [1] .

أما إذا لم يُكره أحمد الزين على التذكار ، فهو إنسان منسجم الطبيعة ، طبيعى المسيرة ، جلىّ السيرة ، لا ينقصه إلا ماينقص كل بنى آدم من حيث استحالة الكمال ، إذ الكمال لله وحده ، ولا يشغله إلا ما يشغل الأتقياء من وعاة القوم ودعاة الإصلاح ، فإذا به طوال حياته شاعر :

مُغَـنّ يشبِّب فى مصره   سجلّ يحدِّث عن عصره [2]

وطوال حياته مصلح جرىء القلب ، برىء الهوى ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ،

---

(١) راجع : فى عالم المكفوفين ، الشيخ أحمد الشرباصى ، ص ٢٠٢ .

(٢) ديوان الزين ، ص ز .

ينتقد الأدعياء فى كل مجال ، ويسفّه الرياء فى كل حال ، ويوقظ الضمائر لإصلاح الحياة ، ولا يترك فكرة يثرى بها الوطن فى وطنيته ، والفرد فى فرديته ، والشعب فى جهاده ومسيرته إلاّ وأذكاها ، وأبان عن مغزاها [١] .

وطوال حياته هو إنسان يُقبل على الحياة بكل مافيها من خوف وأمن ، وألم وأمل ، وذبول أمانٍ ويُنوع أمانٍ أخر ، وبكاء أحزان حينا ، وغناء بأعذب الألحان فى أحيان أخرى ، يُقبل على الحياة فى كل أحواله بقلب :

قطَعَ العيش بين خوف وأمن ... ورجاءٍ ناء وآخر دان
فهو راثٍ لما ذوى من أمانيـ ... ـه ، ومستبشر بباق الأمانى
باكيا شجوه ، وآنا تراه ... يتغنىّ بأعـذب الألحان
فهو كالعود فى يد الدهر يشدو ... بالذى شاء دهره من أغان
فتراه حينا يلجّ به الوجـ ... ـد ، وحينا يلوذ بالسلوان
وتراه يسيل كالماء لطفا ... وتراه كالنار فى سلوان
صامت وهو لا ينى عن حديث ... مطمئـن فى ثورة البركان
يالسلطانه القوىّ ولا شى ... ء عليه فى الأرض ذو سلطان
لاتلمنى إذا اتّبعت هواه ... هو بعضى وآخذ بعنانى [٢]

وكان هذا هو قلبه الكبير الذى وسع كل شىء فى دنياه ، من عذوبة ومرار ، فأخذ من كلٍّ بمقدار ، فى رضا لا يناقضه ابتلاء ، إذ ليست الدنيا يسراً محضاً ، وصبر الصبور على الابتلاء فيها إنما هو إثبات لوجوده ، وتخليد لذكره ، وحياة دفوق بالنبض من أجل حياته ، وفى هذا يقول :

مِن لم يذق ألم الحياة ... قضى سنيها وهو فان [٣]

وأخذ من كلٍّ بمقدار بقلب لا يؤرّقه الشقاء ؛ إذا ليست الدنيا عسراً محضا ، وعظمة الانسان فى المواجهة لها أن يكون بها فى يومه الذى هو عليه ، متحسِّساً طريقه إلى يومه الذى هو له ، مادام هذا الإنسان صاحب قلب مثل قلب أحمد الزين الذى :

---

(١) المصدر السابق ، باب الاجتماعيات ، ص ٣ .

(٢) ديوان الزين ، قصيدة وصف قلب ، ص ٧٣ .

(٣) المصدر السابق ، قصيدة البيانو ، ص ٥٩ .

غرس الحب به دوحته فزكت أصلا ، وطالت أفرعا
صادفت منبتها فانبسقت وأصابت من وفائى منبتا [(١)]

وهكذا كانت حياة أحمد الزين فى ظلال محنته ، حياة طبيعية لا أثر للمحنة عليها ، قلبه يملؤه الحب ، إذ إن قلبا لم يحيه الحب ميت لا محلّ للحياة فيه ، ونفسه يغمرها الرضا والسعادة ؛ فيواجه المصاعب بالابتسام ، ويغالب المتاعب بالرجاء ، فعاش – لذلك كله – حياته كما يعيش أسعد الناس حالاً ، وأهنأهم بالاً ، ولذلك أجدنى فى موقف الحذر من قبول رأى الشيخ الشرباصى فى دراسته : « الشاعر المكفوف أحمد الزين » وفيها يقول : « ... لا نجد له حديثا فى المكفوفين لا بالتصريح ولا بالتلميح ، وليس هذا من ضعف شعوره بكفّ البصر ، بل لعلّ هذا من قوة شعوره بهذا النقص الحسّى ، وشدّة ضيقه به ، ولذلك تجاهله أو تناساه ... » وبعد قليل يقول : « ... وكان الزين يلبس العمامة فى أول أمره ، ثم تركها فجأة إلى الطربوش ، والبدلة الإفرنجية ، ولكنه كان غير أنيق فى الحالتين ، ويخيّل إلىّ أن فراره من العمامة كان فراراً من الظهور بمظهر المكفوفين ؛ لأن الأغلبية الغالبة من مكفوفى الشرق يلبسون العمامة أو مايقاربها ... » [(٢)] .

والحذر المترصّد فى مواجهة هذا الرأى منبثق عن ناظر متنقل بين صفحات حياة هذا الشاعر ، إذ كانت كما سجلها فى ديوانه حياة إنسان عاش وفيًّا لمصره وعصره ، رضيًّا بما كان له فى شخصه وصفاء نفسه ، قويًّا بثاقب فكره وإيمان صبره ، وبهذا كله كان له الغلبة على قسوة المحنة ، فلم يُسقطه أثرها فى دوامات التشاؤم ، ولم يدفعه ضررها إلى اعتزال حياة الجماعة ، ولو كان قوىَّ الشعور بهذا النقص الحسّى ، شديد الضيق به ، لكان أقوى شعوراً بأثره ، وعندئذ يكون تجاهله مستحيلا ، ولكان أشدّ ضيقا بضرره ، وعندئذ يكون تناسيه ليس معقولا .

ثم لِمَ يكون أمر علاقته بمحنته أمر تجاهل وتناس ، بسبب قوة شعور بنقص ،

---

(١) المصدر السابق ، قصيدة بين الحب والحرب ، ص ٣٤ .

(٢) فى عالم المكفوفين ، أحمد الشرباصى ، ص ٢٠٢ .

وشدة ضيق بضرر ؟ ولا يكون أمر تصالُح مع واقع مستمر ، وقضية تآخ مع قضاء محتوم ، مادامت أعماق الإنسان وضَّاءة بصفاء الإيمان ، واعتدال الطبيعة ، وقوة الإرادة ، والسمو فوق ركام الأحزان ؟؟

ولم لا نصدق هذا فى أحمد الزين ؟ مع أن الباحث يصدق هذا فى « هيلين كيلر » [١] تلك الأمريكية العمياء الصماء البكماء ، والتى تقول :

« ... ومع ذلك فإنه يبدو لى أن علامة السعادة بالحواس صغيرة جدا ، فإننا إذا قرنا فى أذهاننا أن هذا العالم تافه ، يسير جزافا بلا غاية ، فإنه يبقى كذلك ، ولن تتبدَّل صورته ، بينما نحن إذا اعتقدنا أن هذا العالم هو لنا خاصة ، وأن الشمس والقمر يتعلقان فى الفضاء ؛ لنتمتع بهما ، فإن هذا الاعتقاد يملؤنا سروراً ؛ لأن نفوسنا تتمجَّد بالخلق ، وتسر به ، كأنها نفس رجل الفن ، والحق أنه مما يكسب هذه الحياة كرامة ووجاهة أن نعتقد أننا وُلدنا لكى نؤدى أغراضا سامية ، وأن لنا حظا يتجاوز الحياة المادية ... » وتقول أيضا : « ... وقلّما أفكر فى نقص حواسى ، ولا أحزن إذا فكرت فيها ، وربما يحدث لى فى بعض الأوقات ما يشبه التشوّف والتمنى ، ولكن هذا الشعور غامض كأنه النسيم يتخلل الزهر ، ويمر النسيم ويبقى الزهر راضيا ... » [٢] .

وأمّا ترْك أحمد الزين لبس العمامة فجأة إلى الطربوش والبدلة الإفرنجية ، فما أظنه - كما ظنه الباحث - فراراً من الظهور بمظهر المكفوفين ؛ لأن هذا الزىّ « الجبة والقباء والعمامة » كان ومايزال الزىّ الرسمى للعالِم الفقيه ، والشيخ الجليل ، والسالك سبيل العلم فى الأزهر الشريف ، مبصرا كان أو بصيرا ، وفى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن كان قد حدث انقلاب اجتماعى يقول عنه محمد عبد الجواد : « زهد الشيوخ فى زيّهم ولقبهم ، وبالغ الخاصة والعامة فى مقابلتهما بما لا يليق من احترام وإجلال كانا شعارهما ، فأدى ذلك إلى تمسّك الطلاب العائدين من البعوث بزيِّهم الأوربى ، وحمل غيرهم من الشباب خاصة على التشبُّه بهم ، فألقوا عمائمهم ، وخلعوا أرديتهم ، وهرعوا إلى

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٥ ومابعدها .

(٢) راجع مقال : عمياء صماء وسعيدة ، مجلة الهلال ، عدد نوفمبر سنة ١٩٢٨ م .

مايزعمون من بحبوحة الاحترام ، والحرية فى المشى ، وغشيان الأماكن التى يلذّ لهم ارتيادها ، وقد سرت العدوى من هؤلاء الشباب – الذين ربما لهم مأرب شريف أو غير شريف – إلى غيرهم من غير ذوى المآرب ، من شبان وكهول وفتيان وشيوخ » .

وقد شجعهم على ذلك الانقلاب ماكان يلقى كثير منهم من أسباب السخرية وعدم الاحترام اللذين كانوا يتعرضون لهما فى الطرق والأندية ومحال التجارة ، وحتى دواوين الحكومة . وقد سرى هذا التقدير الخاطىء إلى كثير من الرؤساء المتعلمين فيما بعد ، إذ أصبحوا ينظرون إلى التمسّك بالزىّ نظرتهم إلى المحافظة على القديم الذى كان رمزاً للجمود » (١) .

ففرار أحمد الزين إلى الزىّ الإفرنجى كان – فى رأيى – فراراً من مظهر هو رمز للجمود فى تلك الفترة ، إلى مظهر هو دلالة على التطور ، واقتحام لمواطن التحضُّر ، ومسايرة لما يطرأ على حياتنا من تقلبات اجتماعية فى المظهر والسلوك مادام فى هذه المسايرة مواكبة لمزاج العصر ، ومواءمة لمتطلبات التجديد والتحديث ، ولم يكن فراره هذا فراراً من الظهور بمظهر المكفوفين ، وإلاّ لفرّ إلى هذا الزىّ الجديد جميع المبصرين من المعمَّمين .

وفيما سبق من نماذج – فى ظنى – كفاء للتعرف على اختلاف علاقة الممتحَن بمحنة فقد البصر ، فمنهم فى حياته بها من اعتبرها منحة ، واتخذها ذريعة للجموح والطموح ، ومنهم فى حياته بها من اعتبرها محنة فعاش بها نزْفاً ناضحا فى قلب جريح ، ومنهم فى حياته بها من اعتبرها بصدق إيمانه كأن لم تكن نقيصة فيه ، متفهِّما قول الله سبحانه : « وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » (٢) ، وما دام الأمر كذلك فليكن هذا الممتحَن بها كما يكون غيره بغيرها ، مادام لا فرار من قضاء الله ، ولابد من استمرار الحياة .

وفيما سبق من نماذج كفاء – أيضا – فى شحذ الرغبة إلى البحث عن موقف

---

(١) راجع تقويم دار العلوم ، محمد عبد الجواد ، ص ٥٥٢ .

(٢) سورة الأحزاب (٣٦) .

طه حسين من محنته ، وتوجيه الدفة للاندفاع من الساحل إلى الأغوار ، أغوار طه حسين
فى طفولته ، وفى شبابه وكهولته ، وفى لحظات ضعفه ويأسه ، وفى ساعات عنفه وقوته ،
إذن فنأمن الأخطار ، ونتغلب على مصاعب الإبحار فى أحوال طه حسين بصيرا . ولقد
كان الرجل فيما استهدفه البحث بصيرا .

نعم ، هو البصير بفقده البصر صغيرا ، وكان بعد ذلك بصيرا فى مغالبته الظلمة
كبيرا ، نعم ! وكان بصيرا بما أراد فحقق ، وبصيرا فى كل ماتمنَّاه فأنجز .

* * *

الآفة وطه حسين
علاقة وصراعا

كانت **علاقة طه حسين بآفته** نموذجاً مغايرا لما كانت عليه عند شركائه فى الابتلاء بها ، ولدى نظرائه المحمولين – فى رحلة الحياة – على هودجها : راضين أو كارهين ، سعداء أو ساخطين ، فهى لم تكن عنده نعمة فتُمدح ، ويفخر بها صاحبها بين الناس كما كانت عند بشار . ولم تكن عنده عورة فتُستر ، ويعزِل بها صاحبُها نفسَه عن الناس ، كما كانت عند أبى العلاء . ولم تكن عنده إرادة سماوية فتُقبل ، ويندمج بها صاحبها – بطبيعة الحال – فى حياة الناس ، كما كانت عند أحمد الزين . وإنما كانت عنده علاقة إدانة لجهل البيئة وظلم دنياه ، وعلاقة عداء لهج به لسانه طوال الحياة ، و صلة جفاء لها تمكّن من نفسه منذ صباه .

وإذا ما التزمنا الصدق فى إثبات هذه العلاقة ، وتبيان أثرها ، وتسجيل رحلة أديبنا فى ظلها ... فلن يكون ثمة أصدق إثباتا ، وأوضح بيانا ، وأدق تسجيلا من طه حسين نفسه ، وعندئذ لا يُكره الباحث نفسه على مهمة الاستنباط والتأويل ، وإنما يكفيه أن يوجِّه عزمه إلى اختيار الاستشهاد ، والاجتهاد فى التأصيل . فطه حسين هو وحده – من بين الناس – الذى يدرك كنه هذه العلاقة ؛ لأنها بالنسبة له حقيقة ، ولا يملكها غيره ممن حوله ، « ومن يملك الحقيقة يصبح – دون شك – أقدر على تسجيلها وعرضها ممن لا يملكها ، إذا ما تحرّى الدقة والأمانة فى هذا التسجيل » [1] .

وقضية تحرى الدقة والأمانة فى تسجيل الحقيقة من قِبَل مالكها ، قضية لا نطمح

---

(١) السيرة فن وتاريخ ، د. ماهر حسن فهمى ، ص ٢٣٩ .

أن تأخذنا بها – فى هذا المجال – شُبهة ، ولا نطمع فى أن تبغّضها إلينا – فى نطاق السيرة الذاتية – ريبة ؛ لأن صاحب التجربة ، ومالك الحقيقة ، إن ضلّ سبيل تحرى الدقة والأمانة فى تسجيل ما يشعر ، ورصد ماهو به أعلم ، فغيره من المتلقين عنه ، لابدّ أن يكون عن هذا السبيل أنأى ، وفى القصد إليه أضلّ .. هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية ، ما أظن أديبا يُقدم على إبراز داخلية نفسه ، أو إظهار نفسه من داخل ، وهو على هذا قادر وفيه راغب ، ثم لا ينجح – فى هذا الذى يريد باقتدار ، ويرغب بلا اضطرار – لا ينجح فى تحرى الدقة والأمانة بقصد أو بغير قصد ، ثم يكون لنا من بعده أن نطمع فى أن تتحقق لنا الدقةُ والأمانة فى هذا الأمر على يد الغير ، وهو يطلب أثراً بعد عين .

وإذا أضفنا إلى هذا كله ماينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار من أن طه حسين – حين أبان عن **جوانب علاقته ببيئته** – كان مسئولاً عن كلمته إذا قال ، منطلقا بسجيته إذا روى ، واعيا بغايته وما ارتضى ... إذن فلا مبرر لنا فى هذا المجال أن نرتاب فى ضوء الشمس إبَّان النهار .

ولقد أبان طه حسين عن جوانب علاقته بآفته التى بُلى بها ، فى تواصل لم ينهه عنه مذمة التكرار ، وفى تتبُّع لم يخفِ فيه طبيعة ما بينهما من جفوة وعداء . فهو يكثر من ذكرها – كبشار – ولكن لم يحمدها بعوض ، ويمقتها كأبى العلاء ، ولكن لم يعتزل بها مجامع الزحام ، أو يتجنّب بها مواطن الأَوَد ، ويعلم أنها قضاء محتوم ، وليس له عنها مفر ، كأحمد الزين ، ولكن لم يَلْهُ عنها فى زمان أو مكان ، ولم يطمئن فى علاقته بها إلى واقع ، أو مأمول ، أو خبر .

فهاهو يتخذ من علاقته بها علاقة **إلا إدانة لبيئته الاجتماعية** الضّيقَة ممثلةً فى حدود الأسرة ، والكبيرة الواسعة التى تتجاوز الأقرباء إلى الأصدقاء ، وتمتد من حدود البيت إلى حدود القرية ، فحدود المدينة المذمومة الأصداء أو المدينة الموصولة الأضواء . ولم تتجمد عنده علاقة الإدانة فى دوائر المحيط الاجتماعى الذى يتحرك من حوله ، وإنما تنتقل إدانته للبيئة التعليمية فى أىّ من هذه الأماكن التى تحرَّك بها قدراً مرسوماً ، أو سعى إليها أملا مرقوما : فى الكتاّب وفى الأزهر ، وفى الجامعة المصرية ، وفى الجامعات الفرنسية .

أولا : إدانة البيئة الاجتماعية :

اتخذ طه حسين من علاقته بعاهته علاقة إدانة لبيئته الاجتماعية الأسرية ، من حيث ما اتسمت به من انتشار الجهل ، وشيوع الإهمال ، وفساد الأخلاق . يذكر هذا وهو يتذكر فترة طفولته وأوائل صباه ، فيرصد شعوره تجاه معاملة أسرته له ، وما سبَّبه جهل هذه البيئة وإهمالها له من نقص جارحته ، وما انتهى إليه ذلك كله فى أعماقه من حزن صامت وعميق ، امتد به العمق إلى نهاية الحياة .. يقول :

« ... كان يحس من أمّه رحمة ورأفة ، وكان يجد من أبيه لينا ورفقا ، وكان يشعر من أخواته بشىء من الاحتياط فى تحدثهم إليه ، ومعاملتهم له ، ولكنه كان يجد – إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أمه – شيئا من الإهمال أحيانا ، ومن الغلظة أحيانا أخرى . وكان يجد – إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه – شيئا من الإهمال والازورار من وقت إلى وقت ، وكان احتياط إخوته وأخواته يؤذيه ؛ لأنه كان يجد فيه شيئا من الإشفاق مشوبا بشىء من الازدراء . على أنه لم يلبث أن تبيَّن سبب هذا كله ؛ فقد أحس أن لغيره من الناس عليه فضلا ، وأن إخوته وأخواته يستطيعون مالا يستطيع ، وينهضون من الأمر لما لا ينهض له ، وأحسّ أن أمه تأذن لإخوته وأخواته فى أشياء تحظرها عليه ، وكان ذلك يُحْفِظُه ، ولكن لم تلبث هذه الحفيظة أن استحالت إلى حزن صامت عميق ، ذلك أنه سمع إخوته يصفون ما لا علم له به ، فعلم أنهم يرون مالا يرى ... » (١) .

هذه هى البيئة الضيقة التى تحدّها حدود **الأسرة** ، يدينها طه حسين من خلال علاقته بآفته فى صراحة وجرأة ، فهى بيئة غير تربوية ؛ تفرِّق فى المعاملة بين المبصر والبصير جهلا منهم بالمسؤولية . وبيئة غير صحية ؛ إذ تُعامل طفلها الضرير معاملة غير عادية ، وبيئة فاقدة الوعى ، مضطربة السعى فى مواقفها السلوكية ؛ فالأم إلى جانب رحمتها غلظة وإهمال ، والأب إلى جانب لينه انحراف وإعراض ، والإخوة لا يخلو إشفاقهم من غبن وازدراء .

ولا يفتأ طه حسين يقيم هذه الإدانة لهذه البيئة الاجتماعية الضيقة حتى

---

(١) الأيام ، طه حسين ، حـ ١ ص ٢٠ ، ٢١ .

وهو يتحدث عن غيره من أبناء هذه البيئة ، من الأطفال الذين أصابهم ما أصابه من جرَّاء جهلها ، وفعْل إهمالها ، وفساد سلوكها ، وإن اختلفت الإصابة – فيما بينهم – فى نوعها ، أو أثر ضررها على المصاب بها ، ففى حديثه عن أخته – صغرى أبناء الأسرة ، وكانت فى الرابعة من عمرها – يقول :

« ... أقبلت بوادر هذا العيد (عيد الأضحى) وأصبحت الطفلة ذات يوم فى شيء من الفتور والهمود، لم يكد يلتفت إليه أحد ، والأطفال فى القرى ومدن الأقاليم معرّضون لهذا النوع من الإهمال ، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد ، وربّة البيت كثيرة العمل ، ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة ، وعلم ليس أقلّ منها إثما ، يشكو الطفل وقلّما تعنى به أمه ، وأى طفل لا يشكو ! ، وإنما هو يوم وليلة ثم يفيق ويُبلّ ، فإن عُنيت به أمه فهى تزدرى الطبيب أو تجهله ، وهى تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء وأشباه النساء ، وعلى هذا النحو فقد صبيٌّنا عينيه ، وعلى هذا النحو فقدتْ هذه الطفلة الحياة ، ظلت فاترة هامدة محمومة يوما ويوما ويوما ، وهى ملقاة على فراشها فى ناحية من نواحى الدار ... حتى إذا كان عصر اليوم الرابع ... عرفت أم الصبى أن شبحاً مخيفا يحلّق على هذه الدار ، ولم يكن الموت قد دخل هذه الدار من قبل ... ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاء الناس جميعا لم يفكر فى الطبيب ... وإذا الطفلة قد فارقت الحياة » (١) .

فالموقف هنا – كما هو بيّن – إنما هو موقف تسجيل لمحنة غير محنته ، وذكر لحياة أخته ، ولكن الرجل لم يلهه تذكار محنة غيره عن تذكّر محنته ، والشيء بالشيء يذكر ، ولم يلوه اختلاف المحنة عن إدانة بيئته ، فبجهلها ، وتخلّف سلوكها ، وسوء إهمالها ، كانت النكبة أقسى ، وكانت المصيبة أشدّ .

وطه حسين لم ينس إثم بيئته الأسرية فى حقه ، حتى وهو فى السنوات الأخيرة من شيخوخته ، تقول زوجه فى كتابها « معك » :

---

(١) المصدر السابق ص ١١٨ – ١٢٠ .

« ... كان فى السنوات الأخيرة يقول بحزن ، كنت أقلّ الجميع اعتباراً فى نظر أسرتى ، كنت مهملا محتقراً ... ومع ذلك فإن كان لهم أن يفخروا ... ولم يكن ليتم جملته » [1] .

يقول طه حسين هذا القول وقد مضت السنون عقوداً متتابعة ، فصلت بينه وبين ذاك الزمان الذى يتحدث عنه بـ « كنت » ، إلاّ أن بُعد ذاك العهد لم يُبْلِ فى أغواره موجدة القلب ، ولم يقض فى أعماقه على أحزان الصمت .

ويقول طه حسين هذا القول وكان قد تقلّد من الوظائف والمناصب ، وتحقق له من الاشتهار والانتشار ، ماصار به ملء العين والسمْع فى كل مكان وفى كل وقت ، إلاّ أن وخز تلك الحقبة بين جوانحه لم يُطَب ، وغيلان أوجاعها فى حناياه لم تهرم ، أو تمت .

ويقول طه حسين هذا القول وكان قد نال من الأوسمة والألقاب ، وحظى من الأنصار والأحباب ،مالم ينله بصير فى عصره ، أو يحظى به مبصر بمثل حظّه ، إلاّ أنّ ذلك كله لم يحمله تجاه بيئته إلى التماس عذر ، ولم ينصره على قسوته تجاه أسرته بإعلان مغفرة ، ونسيان وزر .

وقد يخطر بالبال أن هذه السنوات الأخيرة من شيخوخته كانت سنوات ضعف ، ومرحلة ضياع ، ولحظات الضعف والضياع فى حياة الإنسان تستدعى عنده تذكار ما أشبهها من لحظات مرّت ، فتنزف فى أعماقه من صديد ما اندمل من جروح الطعان ، فإذا به يتلهّى عن أوجاع حاضره بندب آلام ماضيه ، أو استرجاع الزمان ، فيستمد من صبره هناه ، ومن قواه مايعينه على الاحتمال واستمرار الحياة ، إلاّ أن ذلك الخاطر وإن صحَّ حدسه لا يحجب علاقة الإدانه لبيئته ، ورغبة الثأر منها بالتفاخر عليها ، ولولا خوف من منقصة ، وإيمان بتلك الحكمة القائلة : « ذراعك منك وإن كان أشلّ » — وإن كان مضمون الحكمة يحمل الجزء على الكل ، ومضمون حال طه حسين مع الأسرة يحمل الكل على الجزء ، بمنطق تعلُّق الكل بعظمة الجزء ، لا بمنطق تبعية الجزء لمبنى الكل — أقول لولا خوف من ذاك ، وإيمان بتلك لكان الرجل أكمل جملته .

---

(١) انظر « معك » سوزان طه حسين ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

ولم يتوقف طه حسين فى تسجيل هذا الجانب من جوانب علاقته بمحنته عند حدِّ الإدانة لبيئته المحدودة بحدود الأسرة الصغيرة ، وإنما انطلق من خلال هذه العلاقة إلى إدانة البيئة الكبيرة التى تتجاوز الأقرباء إلى الأصدقاء ، وتسع الناس جميعا . وتسجيله هذا يتعدى دواعى الحديث عن النفس إلى انتهاز كل فرصة متاحة ، فيتحدث عن أثر هذه الكارثة على صاحبها أيا كان هذا الصاحب ، فإذا به يزعم أنه يتحدث عن غيره ، وهو فى الحقيقة إنما يغرف من ينبوع أعماقه ، ويصور مأساته وهول مصيبته ، من ذلك ما سجله فى دراسته لأبى العلاء المعرى ، وقد داهمته هذه الداهمة وهو صبى ، فيقول :

« ... أثر هذه المصيبة من الحزن عظيم ، يلزم صاحبه فى جميع أطوار حياته ، لا يفارقه ولا يعدوه ، ذلك لأنه يذكر بصره كلما عرضتْ له حاجة ، وكلما ناله من الناس خير أو شر ، بل كلما لقيهم فى مجمع عام أو خاص ، فما زال الحزن يؤلمه و يحزه إلاّ أن يفقد الشعور ، وتصيبه البلادة المطلقة ، وكلما قوى فيه الحياء والحرص على مجاراة الناس فى المحافظة على آدابهم وأوضاعهم العامة اشتد أثر هذا الحزن فى نفسه ؛ لأنه لم يوفّق – إذا لقى المبصرين – أن يكون مثلهم مهما كان فطنا ذكيا ، قد يهزءون منه ويسخرون به ، وإن كان حظهم من الأدب قليلا ، ولكنهم يتغفّلونه ، ويقلّون الاحتفال به فى أنفسهم مهما عظم نصيبهم من الأدب وحسن الأخلاق ... » [(١)] .

وليس فى هذا الحديث ما يخصّ المعرى أو يدلّ عليه ؛ فالمعرى لم يحرص على مجاراة الناس ، ولم يتعرض لسخريتهم ... بل ليس فى هذا الحديث مِن شعور شاعر المعرة وفيلسوفها إلاّ ماهو مرآة لشعور طه حسين ، ومعاناته الحقيقية ، وماهو صدى لأشجان مأساته وآثارها الخفية ، ويكشف طه حسين عن ذلك بوضوح أدق ، وذاتية أعمق ، فيقول :

« والمكفوف إذا جالس المبصرين أعزل ، وإن ندّهم بأدبه وعلمه ، وفاقهم فى ذكائه وفطنته ، فقد يتندّرون عليه بإشارات الأيدى ، وغمز الألحاظ ، وهز الرءوس ، وهو عن كل ذلك غافل محجوب ، فإن نمّت عليهم بذلك ظاهرة ، أو صوت مسموع ، فحجّته عليهم منقطعة ، وحجتهم عليه ناهضة ، وليس له من ذلك إلا ألمٌ يكتمه ،

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء ، طه حسين ، ص ١١٩ ومابعدها .

وحزن يخفيه ، ثم هو إن اشتدّ ذكاؤه ، وانفسح رجاؤه كثرت حاجتهم إليه ، وكثرت نِعَمهم عليه ، فهو عاجز عن تحصيل قوته إلا بمعونتهم ، وهو عاجز عن شفاء نفسه من حب العلم والمطالعة إلاّ بتفضُّلهم ، وهو عاجز عن الكتابة والتحرير إلا إذا أعانوه ، وتطوّلوا عليه . وللمنن المتظاهرة والآلاء المتواترة فى نفس العاجز الفطن أثر هو الشكر يشوبه الحزن ، والثناء يمازجه الأسى ، والحرمان أخف عليه من مِنَّة يعقبها مَنٌّ ، ونافلة يشوبها استطالة ، ولِشعور الإنسان بعجزه وقع ليس احتماله ميسورا ، ولا الصبر عليه إلا متكلفا ، وليس يلقى المكفوف من رأفة الناس به ، ورحمتهم له ، وعطفهم عليه إلا ما يذكو الألم فى صدره ، ويضاعف الحزن فى قلبه ، ثم هو لا يلقى من قسوتهم وشدتهم ، ولا استهانتهم وازدرائهم إلا مايشعره الذل والضعة ، وينبهه إلى العجز والضعف .

ومكان المكفوف من نفْس زوجه وبنيه دون مكان المبصر ، فإجلالهم إياه محدود ، وطاعتهم له مقصورة على مايتنبَّه إليه ، ثم هو بعد ذلك قد حُرم التمتع بلذة يكبرها الناس ، وجهله إياها يضاعف خطرها فى نفسه ، فإنْ تعاطى صناعة الشعر أو الوصف ، فإنّ هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله ، وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والوصافين فيما يتنافسون فيه ، إلاّ أن يكون مقلّدا أو محتذيا ... فإذا أضيف إلى هذه الآلام فساد الأخلاق ، وانحطاط النفوس ، وازدراء المنكوبين وأصحاب الآفات حتى من الخاصة وأصحاب العلم ، ثم اشتداد الفقر ، ونضوب موارد العيش ، أنتجت هذه المصيبة من الآثار ما ستراه فى حياة أبى العلاء . » (١) .

وما أظن أن أبا العلاء وأثر هذه المصيبة فيه كانا المقصودين حقا بهذا الوصف الدفوق ، وكانا الدافع الحقيقى والنبض الحىّ لهذا التحليل الدقيق لأعماق المكفوف ، وماتهجس به نفسه فى مختلف المواقف والظروف .

وما صلة أبى العلاء بمكان المكفوف من نفس زوجه وبنيه ؟ ولم يكن لأبى العلاء زوج ولا ولد يستدعيان فى نفس الدارس الإشارة إليهم ، والإبانة عن أثر نكبته فى مكانه بينهم ، وإنما الأوْلى بالصلة الوثيقة بهذا الأمر إنما هو طه حسين نفسه ، إذ كان له زوج وبنون ، وكان من قبل يتوقع لنفسه أن يكون له زوج وبنون ، فهو أدرى – وليس أبو العلاء – بمكان المكفوف فى نفس زوجه وبنيه ، من حيث أن إجلالهم إياه محدود ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٠ .

وطاعتهم له مقصورة على ما يتنّبه إليه ، فتحليل طه حسين لهذا الأمر إنما هو تحليل مجرِّب عانى من هذا حقيقة أو توجساً .

وما صلة أبى العلاء بمضاعفة خطر هذه العاهة على المكفوف فيما يتصل بصناعة الشعر ؟ من حيث أن الحرمان من نعمة البصر يستتبع ضعف الخيال ، ويحول بين البصير وبين مجاراة الشعراء المبصرين فيما يتنافسون فيه ، أقول ماصلة أبى العلاء بهذا ، وقد حقق الرجل لنفسه فى مجال الشعر – بشهادة طه حسين نفسه – مجداً لا ينضب له رواء ، واعتلى به فى موازين المتلقين والناقدين – معا على السواء – منزلة البقاء ، حتى إنّ الدكتور طه حسين فى دراسته لشعر أبى العلاء يجعل له خصائص تميزه عن شعراء عصره ، بل من شعراء المسلمين كافة ، وفى ذلك يقول :

« ... وليس فى شعراء العربية كافة من يشارك أبا العلاء فى خصال امتاز بها ، منها أنه أحدث فناً فى الشعر لم يعرفه الناس من قبل ، وهو الشعر الفلسفى الذى وضع فيه كتاب اللزوميات [١] ... ولأبى العلاء خاصة أخرى وهى أنه أول من أفرد ديوانا خاصاً فى موضوع من الموضوعات التى ألفها الشعراء ، وهذا الديوان هو الدرعيات التى لم يتناول فيها إلا وصف الدروع .. » [٢] .

وإذا أضفنا إلى ذلك الذى قال ، ماكان لأبى العلاء فى رسالة الغفران من إبداع تخيُّل أو اتساع خيال ، لأدركنا أن الأوْلى بهذه الصلة الوثيقة بهذا التحليل فى أثر الآفة على صناعة الشعر إنما هو الدكتور طه حسين نفسه ، لا المعرى ، إذ بدأ طه حسين حياته الأدبية شاعراً لا كاتبا ، ولكنه لم يثبت فى هذا المجال ، أو لِنقُل إنه لم يصبر على نفسه كى يثبت فيه كما سوف نعرف .

ثم ما صلة أبى العلاء بذلك الذى قاله طه حسين من شعور المكفوف بالذل والضعة ؟ ولم يثبت للدارس فى تجديد ذكرى أبى العلاء من قسوة الناس عليه ، واستهانتهم له وازدرائهم به ، مايشعره دائما بالذل والضعة ، وما ينبِّهه دائما إلى العجز والضعف ،

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء ، طه حسين ، راجع ص ١٢١ ، وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

وإنما أثبت الدارس نفسه لأبى العلاء عكس ذلك . فأسرته أسرة علم وشعر وقضاء ، والعشرون سنة الأولى من حياته لم تكن فترة عوز واضطراب ، ولمَّا أتم الدرس وفرغ من طلب العلم لم يبق له إلا أن يحيا حياة علمية مستقلة ، يفرض الشعر ، ويجالس من حضره من ظرفاء قومه ، غير ساع إلى التماس عيش ، وليس فى حاجة إلى اكتساب قوت ، إذ كانت له ثروة تقوم بحاجته يغلّها عليه وقْف أمِّه [١] .. وإنما الأولى بالصلة الوثيقة بهذا التحليل هو طه حسين نفسه ، إذ لاقى من قسوة الناس - بسبب آفته - مابقى أثره فى نفسه طوال فترة الصبا ، ومرحلة الشباب ، بل وإلى أن نضب زيت الفتيل ، ودنا الرحيل .

لقى طه حسين ضروبا من هذه القسوة - التى لا يمحّى لها فى أعماقه أثر - وهو طفل لم يزل يتلمس الخُطى إلى عالم أوسع من أركان ذاته ، ومن أركان البيت ، وإلى دنيا أجدى عليه من الانطواء فى لفائف العتمة ، أو الانكسار فى زوايا الصمت .. فماذا حدث له ؟

استغفر الله . ولأتدثَّر بجوهر القصد ، إذ الحق فى أن أختار مما حدث ، وليس التجميع والاستقصاء لما حدث ، والقصد هو التحليل لظاهر الحدث المختار ، والإبانة عما له من أثر ، وما كمن فيه من أسرار .

وهاهو طه حسين نفسه يذكر أنه لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفى نفسه حسرة لاذعة ؛ لأنه كان يقدّر أنه سيُقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى ، فتخرج ، فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة ، وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض ، وتضع رأسه على فخذ أمِّه ، ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين ، فتفتحهما واحدة بعد الأخرى ، وتقطر فيهما سائلا يؤذيه ، ولا يجدى عليه خيراً » [٢] .

وأىّ قسوة على الطفل أقسى من الحرمان مما يلذّ له ، ويستمتع به ؟ بَلْه الإصرار

---

(١) راجع المصدر السابق ، ص ١٢١ ، ومابعدها .

(٢) الأيام ، حـ ١ ، ص ١٠ .

على هذا الحرمان بتكرار وقوعه فى كل ليلة ، وإرغامه عليه ؟ وما أدرانا بضراوة هذه القسوة ؟ ومدى ماتحفره فى أعماقه من حسرة ؟ إذا لم نحسب حساب أنّ هذا الذى يُحرم منه هو عنده كل مايملك فى دنياه من ألوان المتعة وضروب اللذة ، ثم إذا لم نضف إلى قسوة هذا الحرمان قسوة معاملة أخته له ، وهى تحمله – مُكرها – بين ذراعيها كأنه الثمامة ، وقسوة هذا السائل الذى يُقطر له فى عينيه به ، ولم يكن حصاده منه إلا الأذى واستحكام الغِمامة .

وألوان القسوة التى لقيها طه حسين فى البيت وما يتصل به ، ومن الأهل ومواقفهم منه ، كانت متعددة الحدوث فى طفولته ، معقدة الأثر فى نفسه ، باقية الذكر فى مختلف أطوار حياته :

– فإذا جلس أبوه وطائفة من صحبه ، مجتمعين إلى واحد منهم « يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح ، وأخبار عنترة والظاهر بيبرس ، وأخبار الأنبياء والنساء والصالحين ، وكتبا فى الوعظ والسنن ، كان صاحبنا يقعد منهم مزجر الكلب ، وهم عنه غافلون » (١) .

– وإذا ما أخذ اللقمة بكلتا يديه وهو يأكل مع أسرته ، وغمسها من الطبق المشترك ، ثم رفعها إلى فمه ، بالغ الأخوة فى الضحك عليه ، والسخرية منه (٢) .

– وإذا ماخشى أن يوصف بالشَّرَهِ أو أن يتغامز عليه إخوته ، فأسرف فى تصغير اللقمة ، نهره عمّه ، وغضب عليه (٣) .

– وإذا ماذهب لأداء الصلاة ، وسُرق نعلاه ، تحايل أبوه على عقابه ، فاستدعاه ليختبره فيما حفظ من القرآن ، فإذا ما انعقد لسان طه ، وجفّ ريقه ، وأخذته رعدة منكرة ، تصبَّب على أثرها فى وجهه عرق بارد ، قال له أبوه فى سخرية وقسوة وتندر : « قم واجتهد فى أن تنسى نعليك كل يوم ، فما أرى إلا أنك أضعتهما كما أضعت القرآن ... » (٤) .

---

(١) راجع المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢) راجع المصدر السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) راجع المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٤) راجع المصدر السابق ، ص ٥٩ .

– وإذا ما ثقل أمر هذا الموقف على طه ، وارتجّت أعماقه من أذاه ، تلمّس طريقه إلى « الكرار » وانعطف فى اضطرابه وتعثّره وهياج أساه إلى الزاوية التى فيها القرمة ، وأهوى إلى الساطور ؛ فأخذه بيمناه ، وأهوى به إلى قفاه ضربا ، فتناثر الدم المتفجر غيظا وغضبا ، وانطلق صياح طه المتكرر استغاثه واضطرابا ، فإذا بأمّه تلقى نظرة إلى الجرح « وما أسرع ماعرفت أنه ليس شيئا ، وماهى إلا أن انهالت عليه تأنيباً وشتْما ، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ ، فألقته فيها إلقاء ، وانصرفت إلى عملها ، ولبث صاحبنا فى مكانه ، لا يتحرك ، ولا يتكلم ، ولا يبكى ، ولا يفكر ، كأنه لاشيء ، وإخوته وأخواته من حوله يضطربون ويلعبون لا يحفلون به ، ولا يلتفت هو إليهم ... » [١] .

– وإذا ما ختم القرآن ولم يتجاوز التاسعة من عمره اكتفى أبواه « من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذى أضافاه إلى اسمه كبْرا منهما وعجْبا ، لا تلطفا به ، ولا تحببا إليه ، أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أول الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئا آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع ، كان ينتظر أن يكون شيخا حقا فيتخذ العمة ، ويلبس الجبة والقفطان ، وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يحمل الجبة ، ومن أن يدخل فى القفطان ، وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن ؟ ، وكيف يكون الصغير شيخا ؟ وكيف يكون من حفظ القرآن صغيرا ؟ هو إذن مظلوم ، وأى ظلم أشد من أن يحال بينه وبين حقه فى العمة والجبة والقفطان ؟ وماهى إلا أيام حتى سئم لقب الشيخ ، وكره أن يدعى به ، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع » [٢] .

– وإذا ما ارتفع قدر طه حسين ، وكبر شأنه ؛ بسفره إلى القاهرة والتحاقه بالأزهر – وهاتان خطوتان فى حياة فتى الريف ، فى ذاك العهد ، يعظّمان من قدره فى تقدير نفسه ، أو هكذا كان طه حسين يشعر ، ويرفعان من شأنه فى مقاييس غيره ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

أو هكذا كان طه حسين يقدِّر – يعود طه – فى الإجازة الصيفية لعامه الدراسى الأول – إلى قريته ، وأخذ فى طريق العودة يدير فى نفسه كثيرا من الأحلام المرجوة ، والأمانى الفساح ، فى أن يُستقبل من أهله وذويه بمثل ماكان منهم فى استقبال أخيه ، من حفاوة وابتهاج وحسن استعداد ، فإذا به يخفق فيما طمح إليه وطمع فيه ؛ إذ ينزل من القطار فلم يجد أحداً فى الانتظار ، ثم يدخل على أهله فيحيونه تحية العائد ، ولكن ليس بذلك الذى كان يحلم ، ثم يقبّل يد أبيه ، فإذا بالأب لا يسأله إلا عن أخيه ، وليس هذا الذى كان ينتظر ، ثم تأوى الأسرة كلها إلى مضاجعها ، فإذا بهم ينيمونه فى مضجعه القديم وليس ذلك ماكان يأمل ، ولا يملك العائد المغرور أو المخدوع – بسبب ذلك كله – إلا أن يكتم فى صدره كثيرا من الغيظ ، وكثيرا من خيبة الأمل [١] .

– وإذا ما سافر مع الأسرة بالقطار ، منتقلين جميعا إلى مدينة جديدة بأقصى الصعيد ، حيث المقر الجديد لعمل أبيهم ، يقف القطار بالمحطة المقصودة ، فيدفع كبار الأسرة النساء والأطفال والمتاع إلى الأرض ، ثم يتواثبون من ورائه فى عجلة من الأمر ، ويمضى القطار « ولم ينسوا فيه إلا أخاهم هذا الضرير ، وقد ذُعر الفتى حين رأى نفسه وحيدا عاجزا عن أن يقضى فى آمره بشيء ، ولكن جماعة من السفر .. « فى أول محطة [وقف بها القطار] أنزلوه ، وأسلموه إلى صاحب التلغراف ، وعادوا إلى قطارهم ، وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها فى مدينتها الجديدة ، فجعلت تزور الدار ، وتتفقد حجراتها وغرفاتها ، وتقرّ كل شيء فى مكانه ، ثم أقبل الشيخ عليها ، فجلس يتحدث إلى هذا وذاك من أبنائه ، وإلى هذه وتلك من بناته ، ثم جرى عرضا ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قليل » [٢] .

إلى هذا الحدّ كان الإهمال الذى لا يغفره عند « طه » ظروف البيئة الريفية فى ذاك الزمان ، وظروف الأسرة المنهوكة بمشاكل الحياة وكثرة العيال ..

وإلى هذا الحدّ كانت القسوة التى لا يغفرها عند « طه » طبيعة الغفلة أو النسيان

(١) راجع الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٧٢ .

عند الإنسان ؛ لأن هذا الصبى العاجز – وبخاصة فى مواقف التنشئة والتكيف ، والأسفار والتنقل – أولى أفراد الأسرة بالرعاية والتلطُّف .

وإذا كان هذا هو بعض ماكان يلاقية « طه حسين » من قسوة فى مختلف مواقف الحياة من أبيه وأمه ، وإخوته وعمه داخل البيت ، ومن أهل البيت ، فإن ماكان يلقاه « طه حسين » فى هذه البيئة – خارج البيت ، ومن أناس هم ليسوا من أهل البيت – ليس بأقل من ذاك أثراً تضطرب له نفسه ، أو ضرراً يتمزق به حسه ، وإنما الأوقع أن يكون أثر مالقيه من هذه البيئة خارج البيت – ومن غير أهله – أشد قسوة ، وأمضّ إيلاما ، فجرح ذوى الرحم قد يُطاق أو يلتئم ، وأما جرح غيرهم فأثره ينزف ، ونزفه فى الأعماق لا ينقطع ، وهكذا كان أمر طه حسين مع بيئته خارج البيت :

« يذهب إلى الكتاب – إبان عطلته الصيفية – وكان قد انقطع عنه وعن زملائه فيه ، بسفره إلى القاهرة والتحاقه بالأزهر – وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديما ، لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم ، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع فى القاهرة ، ولو قد سألوه لخبّرهم بالكثير ... » [1] .

وأكثر من هذا أنه لم يُقبل أحد من أهل القرية على الدار ، ليسلّم على هذا الصبى الشيخ وقد عاد إليها ، بعد أن غاب عنها سنة دراسية كاملة ، وإنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك ، فيلقى إليه فى فتور وإعراض هذا السؤال :

ها أنت ذا ؟ أعدت من القاهرة ؟ كيف أنت ؟ ثم يلقى إليه هذا السؤال الأخير معنيًّا به ، رافعا به صوته : وكيف تركت أخاك الشيخ ؟

وإذا ما تحركنا مع طه حسين خارج بيئته ، إلى دائرة أوسع من زملاء صباه وأهل قريته ، لوجدنا معاناته أصعب ، وإحساسه بقسوة الناس أمرّ ، وهو بهذا يجزم وكأنه يقسم على أنه لم ينس قط مجلسه عند صاحب التلغراف – بالمحطة التى أنزله الناس بها ، بعد أن نسيه أهله بالقطار – فإذا بصاحب التلغراف يجتمع إليه جماعة من موظفى

---

(١) الأيام حـ ٢ ص ٣٠٢ .

المحطة فلماّ رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ، ولما رأوه شيخا ضريراً « فما شكّوا فى أنه يحسن قراءة القرآن ، أو يحسن الغناء ، وهم يطلبون إليه أن يغنّى لهم شيئا ، فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئا من القرآن ، فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه ، وأبوا إلا أن يسمعوه ، واضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجِلا وَجِلا ، ضيِّقا بالحياة ، لاعناً للأيام ، وإذا صوته يحتبس فى حلقه ، وإذا الدموع تنهمر على خديه ، وإذا القوم يرفقون به ، وينصرفون عنه ، ويتركونه وحيدا أو كالوحيد ، حتى يأتى من يردّه إلى أسرته .. » [1] .

وحسب طه حسين هذا الموقف وحده ؛ ليبقى أثره الدميم مغلِّفا أعماقه فى علاقته بهذه البيئة الأوسع من بيته وأركانه ، ومن قريته وأقرانه – من خلال علاقته بآفته – وأىّ إدانة لجهل هذه البيئة وجاهليتها أعلى صوتا من أن يُقسم لهم أنه لا يحسن الغناء ، فإذا بهم يستبدلون ذلك بأن يقرأ لهم شيئا من القرآن ، فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه ، وأبوا إلا أن يسمعوه ... لماذا كل هذا ؟ فقط لأنهم رأوه شيخا ضريرا ... وأى عداء فى علاقته بهذه البيئة أبقى أثراً ؟ وأى جفاء لها أوضح تعبيرا من أن يضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجلا وجلا ، ضيقا بالحياة ، لاعناً للأيام ، ولا يملك إعلانا عن هذا الضيق ، واستنطاقاً لهذا العداء والجَفاء إلا استسلام صوته للاحتباس فى حلقه ، وإلا استدرار دمعه لينهمر على خديه .

ثانيا : إدانة البيئة التعليمية :

ولقد أدان الدكتور طه حسين البيئة التعليمية بعد أن أدان البيئة الاجتماعية ، من خلال علاقته بآفته فى الحالين كلتيهما ، فإذا كانت علاقة إدانته لبيئته الاجتماعية حصاداً لما أصابه منها ؛ بسبب إهمالها وفساد أخلاقها وتخلف سلوكها – وكانت علاقة الإدانة تلك وريثة علاقة عدائه لآفته وجفائه لنقصه بها – فإن علاقة الإدانة للبيئة التعليمية كانت نتاجاً لما تحطَّم فى عقله من قيم كان يعقل توافرها لهذه البيئة ، فإذا بما تراءاه – من قبْل الاحتكاك بها عقلا – وجده بها نكرا ، وكانت جزاء لما تبدَّد فى نفسه من رحمة كان

---

(١) الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٧١ – ٣٧٣ .

يرجو خيرها من هذه البيئة ، فإذا بما رجاه أملاً وجده بها قسوة وقهرا ، وما وجده فى هذه البيئات التعليمية - الأزهر ، والجامعة المصرية ، والجامعات الفرنسية - كان يخصه هو لا غيره ، وكان مرتبطا بآفته لا بشيء غيرها .

ففى الأزهر - وهو مجمع العلماء ، وكعبة المتعلمين - لقى طه حسين ضروبا من هذه القسوة التى لا يمحى لها فى أعماقه أثر ، وعانى ألوانا من التوتر والقلق وأشجان الضرر ، فأخذ يسجل فى استيعاب لما وراء مواقف هذه القساوة من همز يعنيه ، وفى استنفار لما كمن فى الأعماق مما كان يؤلمه ويشقيه ، ويكفينا من ذلك كله مثالٌ ، فيه يقول :

« وقد أقبل اليوم المشهور ، فأُنبيء الصبى بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان فى حفظ القرآن ، توطئه لانتسابه إلى الأزهر ، ولم يكن الصبى قد أنبيء بذلك من قبل ، فلم يتهيأ لهذا الامتحان ، ولو قد أنبيء به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم ، ولكن لم يفكر فى تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة ، فلماّ أُنبيء بأنه سيتمحن بعد ساعة خفق قلبه وَجَلاً ، وسعى إلى مكان الامتحان فى زاوية العميان خائفا أشد الخوف ، مضطرب النفس أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحِنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة ، وامتلأ قلبه حسرة وألماً ، وثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط ، فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذى كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع : اقبل يا أعمى . ولولا أن أخاه أخذه بذراعه ، فأنهضه فى غير رفق ، وقاده إلى الممتحِنين فى غير كلام ، لما صدّق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه ، فقد كان تعوّد من أهله كثيراً من الرفق به ، وتجنُّبا لذكر هذه الآفة بمحضره ، وكان يقدِّر ذلك ، وإن كان لم ينس قط آفته ، ولم يُشغل قط عن ذكرها ، ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحِنين ... ... حتى قال له أحد الممتحنين : انصرف يا أعمى فتح الله عليك » . [1] .

---

(١) راجع الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

عندئذ خرج طه حسين من الامتحان ، ومرارة ما لحق بياء النداء أفسدت عليه إحساسه بالنجاح ، وكدّرت له سعادته باجتياز اختبار القبول ، ولم يكن سوء وقعها من أذنه ومن قلبه فى جملةٍ تعلن صلاحيته بأقل منها فى تلك الجملة التى تطلب قدومه ، إن لم يكن وقعها فى الحال الأخيرة أسوأ وأقبح .

وأى استهانة أو قسوة كانت هناك فى البيئة الاجتماعية تعدل فى أثرها القبيح على نفسه ، أثر هذه الجملة مرتبطة بمكانها الذى قيلت فيه ، وكان مكانها الأزهر مهد الإشعاع العلمى ، ومصدر الرقى السلوكى ، وميدان النقاء اللغوى ، وفيه يتعلم المتعلم أول ما يتعلم أساسيات خصال المؤمن ، ومنها الامتناع عن التنابز ، وعدم اللمز بالألقاب !! بل وأى استهانة أو قسوة كانت هناك فى البيئة الاجتماعية ، تعدل فى أثرها القبيح أثر هذه الجملة مرتبطة بمن قالها ، وهو العالم الذى يؤخذ عنه ، ويُتعلم على يديه ، ويُقتدى به سلوكا فى التعامل ، وتصرفا فى المواقف ، ولساناً فى البيان !! بل وأى استهانة أو قسوة كانت هناك فى البيئة الاجتماعية تعدل فى أثرها أثر هذه الجملة ، مرتبطة بزمانها عند من قيلت له ، وهو موقفٌ حرج يأمل فيه الرحمة والتبشير ، ويخشى منه القسوة والتنفير ، وينتظر فيه من خالقه الفرج ، ومن ممتحِنه الإحسان !! وأى استهانة أو قسوة فى الحياة كلها تعدل فى أثرها القبيح أثر هذه الجملة ، مرتبطة بالموقف نفسه بجميع أطرافه زمانا ومكانا وعناصر بشرية ، ومؤثرات معنوية ، بَلْهَ الانفعالات النفسية عند الصبى طه حسين أو طاهر حسين ، وهو يرى فى نفسه أن صار الآن طالب علم بالأزهر ، وفى منزلة لا يصل إليها غير الأوعى والأقدر ...

من هنا تكون خطورة الاستهانة على نفسية طه حسين فى هذا الموقف ، وضخامة هذه القسوة فى حساباته ، أما ألوان القسوة هناك فى البيئة الاجتماعية فقد كان أمرها أيسر ؛ لأنه كان من ناحية أصغر سناً ، ولأنها كانت تصدر من أناس أضيق أفقا وأقلّ وزنا .

وليت الأمر كان محصوراً فى هذه البداية القاسيةِ ، ولكن ما تلا هذه البداية كان أقسى ، وما عاناه فى هذا المجتمع العلميّ – من استهانة – كان أفدح ، فإذا كانت البداية قد قامت على لمزه بهذا اللقب – الذى يضرّه أن يسمعه ، أو يستدعى الضرر إلى نفسه آن يسمعه ، ورغم ذلك يدعونه لدخول الامتحان بقولهم : اقبل يا أعمى ،

ويسألونه فى الامتحان بقولهم : اقرأ سورة الكهف يا أعمى [١] ، وينهون معه الامتحان : بقولهم : انصرف يا أعمى – فإنهم وهم العلماء يدأبون على وصل هذا اللمز وتلك القسوة فى مواقف متتابعة أثناء الدرس ، وعلى مرأى ومسمع من جميع الدارسين ، وبهذا اللقب أو بغيره من الصفات التى لا تروق المستمعين من ذلك :

– إذا ماجادل شيخه فى بعض ماكان يقول ، غضب الشيخ وقال له فى حِدَّة ساخرة : اسكت يا أعمى ، ما أنت وذاك ؟ [٢] .

– وإذا ما سأل شيخه فى درس النحو عن مرجع الضمير فى قول تأبط شراً :

فأبت إلى فهم وماكدت آئبا   وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

يجيبه الشيخ : مرجعه « فهْم » أيها الغبى . فإذا قال الفتى لشيخه : البيت لا يستقيم على هذا التفسير ، قال الشيخ : فإنك وقح ، وقد كان يكفى أن تكون غبيا . فيعقِّب الفتى : ولكن هذا لا يدلّ على مرجع الضمير ، فيسكت الشيخ لحظة ، ثم يقول : انصرفوا ، فلن أستطيع أن أقرأ ، وفيكم هذا الوقح ... [٣] .

– وإذا ما سأل شيخه فى درس المنطق ، وألحَّ فى السؤال ، ثار به الشيخ وجعل يقول له فى حدَّة : اسكت ياخاسر ، اسكت ياخنزير ... [٤] .

وإذا انتقلنا إلى بيئة تعليمية ألصق بالتحديث فيما تُقَدِّم – للمختلفين إليها – من العلوم والمعارف ، وأدنى إلى حرية التفكير وقبول الرأى المعارض ، وأقرب إلى الأخذ فى الإقناع والتأثير بمنهجية إقامة الدليل ، وإيجابية الحوار المفاوض ، لوجدنا هذه البيئة هى الجامعة ، وكان خبر فتح أبوابها « إيذانا للفتى بأن غُمَّته تلك توشك أن تُكشف ، وبأن غمرته تلك توشك أن تنجلى ، فقد يُتاح له أن يسمع غير ماتعوَّد أن يُبدئ فيه ويعيد من علمه ذاك المملّ [٥] .

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤٤٢ .

(٢) راجع الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٤١ .

(٣) راجع الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٤) راجع الأيام ، حـ ٢ ، ص ٣٣٦ .

(٥) راجع الأيام ، حـ ٣ ، ص ٣٨٧ – ٣٨٨ .

ولكن تأتى الرياح بما لا يشتهى السُّفِنُ ، فإذا كانت بيئة الأزهر قد عمّقت فى أعماقه مأساته ، وأثارت بين جوانحه مزيداً من الغمّ والهمّ فى ظلال آفته ، فإن هذه البيئة الجديدة لم تغيّر من ملامح علاقة طه حسين بآفته ، تلك العلاقة التى تحولت عنده إلى علاقة إدانة للبيئة ، وعداء لهذا الابتلاء ، وجفاء لمصاحبتها فى الحياة ، وها هو بمجرد أن يصل إليه نبأ إنشاء هذه الجامعة ، ويتوهَّج فى دخيلته مطمح الالتحاق بها ، لا يلبث أن يفزّعه شك ممضّ فى تحقيق هذا الأمر ، ويسهّده توتر مستمر منشؤه فى نفسه هذا التساؤل : « أتقبله هذه الجامعة بين طلابها حين يتم إنشاؤها ؟ أم تردّه إلى الأزهر رداً غير جميل لأنه مكفوف ، وليس غير الأزهر سبيلا إلى العلم للمكفوفين ؟ ويقول الدكتور طه حسين : « كان هذا الشك المظلم يؤرِّق ليله ، ويقضّ مضجعه ، ولم يكن يناجى به إلا نفسه ، كان يستحى أن يتحدث عن آفته تلك إلى الناس ، وكان يؤذيه أشد الإيذاء أن يتحدث الناس عنها إليه ، وما أكثر ماكانوا يفعلون » (١) .

وينتهى طه حسين عَنْ هذا الأرق بالالتحاق بالجامعة ، وامتلاك بطاقة الانتساب إليها ، ولكنه لا ينتهى بذلك من أثر آفته على حركته بمصاحبتها ، أو من آثار اصطدامه – بسببها – بجهل هذه البيئة الجامعية خارج غرف التدريس بها ، فها هو يُقبل ذات مساء بصحبة غلامه الأسود ، ويظهر بطاقة الدخول إلى غرفة الدرس ، ولكن صاحب الباب يمنع غلامه من أن يدخل معه ليقوده إلى مجلسه . لماذا ؟ لأن الغلام لا يحمل بطاقة الدخول ، فيضيق الفتى طه بهذا وينكره ، وصاحب الباب لا يحفل بضيقه ولا بإنكاره ، ويتوسل الطلاب لصاحب الباب ؛ ليفهموه أن وظيفة الغلام إجلاس هذا البصير فى المكان ، ثم يخرج ؛ فينتظر من وراء الباب حتى ينقضى الدرس ، فيدخل مرة أخرى لاقتياده إلى مكان آخر ، ولكن صاحب الباب لا يقبل منهم توسلاً ، ولا يجد فى حاجة البصير لقائده عذراً ، فيذهب طه وبعض الساخطين – على صاحب الباب وعنفه وغلظة

---

(١) راجع الأيام حـ ٣ ص ٣٨٨ .

ذوقه - إلى سكرتير عام الجامعة « أحمد زكى » ليشكوه عنده ، وكان سكرتير عام الجامعة هذا هو صاحب أول درس قُدِّم لطلبة الجامعة فى الحضارة الإسلامية ، فإذا بالمفاجأة التى لم تقع لهم فى حساب ، ولم تتوقع لديهم فى حسبان ، أنهم لم يجدوا - عند أستاذ الحضارة الإسلامية ، والحضارة المصرية القديمة - حلًّا متحضرا لهذا المشكل الإنسانى ، وإنما يستمعون إليه وهو يقول لهم فى هدوء : النظام هو النظام ، فإذا ماهَمّ أحد الشاكين الساخطين أن يجادله فى ذلك بالحسنى يقول له متجهِّما : « وماذا نصنع وقد أراد الله لصاحبك ألاّ يشهد هذه المحاضرات » [1] .

إلى هذه الدرجة من القسوة كان موقف أستاذ الحضارة وهو أيضا سكرتير عام الجامعة ، يقول لمجادله فى هذا الأمر : وماذا نصنع وقد أراد الله لصاحبك ألّا يشهد هذه المحاضرات ؟

والله لم يُرد هذا ، وإنما الذى أراده هو غفلة الإنسان فى توظيف القانون لخدمة الإنسان ، أو جمود الفهم عند تطبيق القانون لتحقيق النظام فيما يخصص له من استقرار الحياة فى أى مكان ، وهل يُضحَّى بإنسان - يستعذب المعاناة من أجل تحصيل العلم ، ويقهر المصاعب من أجل الوصول إليه - بسبب أن قائد البصير لم ينص القانون على السماح له بقيادته إلى مكانه من غرفة الدرس ؟؟

لذلك كان ردّ الفعل لهذا الموقف « أن انصرف أولئك النفر من الطلاب ساخطين على السكرتير العام سخطا أشد وأعظم من سخطهم على صاحب الباب » هذا بالنسبة لشهود العيان ، أما بالنسبة لطه حسين نفسه فقد صرّح بأن « لو أطاع الفتى نفسه فى ذلك المساء لانصرف عن الجامعة ، ولحرَّم على نفسه الاختلاف إلى دروسها » [2] .

غير أن الأمل الطموح للشخص الطموح يجعله عند لحظات العسر أقوى إصراراً على ترقب اليسر ، وليقض ليلته تلك - كعادته مع كل موقف من هذه المواقف - ينفقها مسهدا محزونا ، يذكر كيف لقى مثل هذه القسوة من قبل ، وكيف استثمر عسرها فاستشرق من عتمة ظلمتها ألق شمسها .

---

(١) راجع الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤٤١ .

(٢) المصدر السابق والصفحة .

وليس هذا الموقف هو الموقف الفريد الذى استبقى فى أعماق طه حسين سمت هذه العلاقة بينه وبين آفته ، وسرّ هذه الإدانة لبيئته التعليمية الجديدة ، وإنما استمرت علاقته بآفته فى هذه البيئة تشكّل أمامه العقبة الكؤود فى الاستمتاع بالحق المتاح لمن سلك طريق العلم ، وفى الانتفاع بقواه النفسية الصادقة التى ترغّبه فى أن يكسب من نعمة العلم ما يعوّضه عما فقده من نعمة البصر ، فهذه جامعته التى اصطدم بها فى بداية صلته بدروسها ، تعلن إلى الشباب أن يستبقوا إلى بعثتين من بعثاتها إلى فرنسا ، إحداهما لدرس التاريخ ، والأخرى لدرس الجغرافيا ، وتشترط لذلك شروطا ، منها حصول المتقدم على الشهادة الثانوية ، وهو لم يحصل على هذه الشهادة بحكم آفته التى امتُحن بها ، فآفته إذن عقبة فى أن يكون أحد المبعوثين ، ولكنه لم يسلّم بتلك البنود المنقوصة ولم يستسلم لليأس والأينْ ، وإنما يسلك الطريق الذى سبق أن سلك ، والإصرار منهج عند أولى العزم ومن يخشى الهلَك ، فإذا به يرسل كتاباً إلى رئيس [1] الجامعة حينذاك ، ليصرح له أن هذين الشرطين — الحصول على الشهادة الثانوية ، والإبصار — ليسا منقصة فيه ، فما سمعه من العلم ، وما أدّاه فيها من امتحانات ، وما أحرزه فى علومها من أعلى الدرجات ، يقوم مقام الشهادة الثانوية ويزيد عليها ، وأما فقدان البصر فيقول عنه :

« ليس يمنعنى من أن أسمع دروس الأساتذة ، ولا أن أؤديها ، أى ليس يمنعنى من أن أكون طالباً وأستاذاً ، وإذا كان قضاء الله قد قضى علىّ هذه البلية ، فقد عوضنى منها خيرا ، وأنا أجلّ المجلس عن أن يتخذ بليّة كهذه عقبة تحول بينى وبين ما أريد من الخير لنفسى وللجامعة ... » [2] .

ولكن الجامعة ترفض حسب ماتوقّع طه حسين ، لأسباب هى عنده أقرب إلى رفض صاحب الباب لأن يُدخل معه غلامه إلى غرفة الدرس ؛ ليجلسه فى مكانه ؛ إذ ليس له بطاقة دخول ، بل وأقرب إلى رفض سكرتير عام الجامعة — وأستاذ الحضارة بها — السماح لهذا المقود بحضور الدروس إذا لم يتنازل عن دخول قائده معه — حيث ينزله مكانا بين الحاضرين — تنفيذا لشرط الدخول ؛ إذ إن أسباب الرفض فى جميع الأحوال

(١) كان رئيس الجامعة حينذاك هو الأمير أحمد فؤاد .

(٢) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤٧٦ .

مرتبطة بآفته ، ومتسببة عنها ، فهو بآفته يضاعف ماتحمله الجامعة فى سبيل تعليم الفرد ، فالدخول إلى مكان الدرس : غيره واحد وهو وقائده اثنان ، والإيفاد إلى الخارج فى بعثة تعليمية : غيره نفقة وهو ومرافقه نفقتان .

ولكن طه حسين لم يفل عزمه أو تثبط همته ، وإنما يعيد فى ١٩١٣/٣/٥ م الطلب للاستثناء من هذين الشرطين ، وللرجاء فى تحقيق الالتماس ، والنظر فى أمره بعين العدل ومد يد العون ، فيصوغ ماقاله فى كتابه الأول بأسلوب أوضح قائلا :

« وإذا كانت الطبيعة قد حالت بينى وبين كثير من نعيم الحياة ، فما ينبغى أن تكون الجامعة عونا للطبيعة على حرمانى لذة الانتفاع بالعلم والنفع به ، مع أنها تعلم أنى على ذلك أقدر ما أكون ... » [١] .

ويزيد طه حسين فى إصراره وكفاحه – من أجل تحقيق هذا الأمر لنفسه والخير لمستقبله – بأن يتنازل فى كتابه هذا عن أن يكون له من الجامعة من النفقات إلا المقدار الذى يطلبه غيره من الطلاب ، وعلى أن يقوم بما يحتاج إليه مما يزيد على هذا المقدار أجراً لرفيق يعينه على الاختلاف إلى الجامعة هناك ، أو راتبا لقارىء يعينه على أن يجنى العنب من بين الأشواك .

ومع ذلك فمجلس الجامعة يرفض كتابه الثانى كما رفض كتابه الأول ، ويتحايل على شكلية رفضه بشرعية تأجيل النظر فى هذا الأمر ، حتى يحسن الطالب اللغة الفرنسية « مطمئنا إلى أنه لن يجد إلى إحسانها سبيلا ؛ تحول بينه وبين ذلك آفته تلك » [٢] .

ولكن طه حسين يجاهد فى هذه اللغة التى اتّخذت ستاراً لرفض الجامعة طلبه ، ويتصل فى إحسانها آناء ليله بأطراف نهاره ، ثم يرسل إلى الجامعة كتابه الثالث فى ١٩١٤/١/١٩ م ، معلنا بأنه حصل من هذه اللغة على القدر الذى يشجعه لأن يطلب إلى المجلس الموقر بأن يوفى له وعده ، ولكن المجلس يُغالى فى القسوة عليه ، ويتلمس الأوعار التى تتحطَّم عليها قوى التحدى فى قدرات أصغريه ، فإذا بهذا المجلس يقرر

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٨٠ .

– متحايلا على الرفض – إيفاد الفتى إلى أوربا إذا ظفر بشهادة العالمية (الدكتوراه) ، ويقبل الفتى العنيد الطموح هذا التحدى ، فيعدّ رسالته فى أبى العلاء ، ويظفر بإجازة الدكتوراه ، ويصبح سفره إلى فرنسا ديْنا له على الجامعة ، ليس بُدٌّ من أن تؤديه إليه ...

ولم يتوقف أمر إلحاح آفته بإيقاع الضرر النفسى له حتى حين ينتقل الفتى إلى بيئة تعليمية أكثر تحضرا ، وإلى بيئة إجتماعية أوعى ثقافة ، وإن اختلفت مقادير الضرر هنا عن مقادير الضرر هناك ، باختلاف حجم القسوة هنا فى رِقّة بيئتها عن حجم القسوة هناك فى ضراوتها ، فها هو هنا يدخل غرفة الدرس فى جامعة مونبلييه ، فإذا بالأستاذ يقول لصاحبه الذى يرافقه إلى مجلسه فى قاعة الدرس : أيكون زميلك هذا مكفوفاً ؟ فيجيب الزميل : نعم ، فيقول الأستاذ : فإنى أراه قد دخل الغرفة دون أن يرفع قلنسوته ، وكان الفتى حديث عهد بأوربا ؛ فلم يكن يعرف أن الناس يرفعون قلانسهم حين يدخلون مكانا مسقوفا ، وأنهم يحضرون الدروس حاسرى الرؤوس ، .

وحتى إذا ما انتقل من مونبلييه إلى السربون ، وأقبل فى آخر عامه الدراسى على امتحان الجغرافيا ، وكان قد قدَّر فى نفسه أنه لن يُسأل إلا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة ، دون أن يحتاج إلى الإبصار ، كأن يسأله الممتحِن فى الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية ، ولا يسأله فى الجغرافيا الطبيعية ، فإذا به يجلس بين يدى أستاذ الجغرافيا « ريمونجون » وإذا بأستاذ الجغرافيا يلقيه بحجر فى صورة سؤال ، إذ يقول له : صف لى مجرى نهر الرون .

ويسمع الفتى هذا السؤال ، فيسرع إليه الوجوم ، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميعا ، وإذا هو يرفض الإجابة على السؤال فى صوت لا تردّد فيه ، ولا اضطراب [٢] .

---

(١) راجع الأيام ، جـ ٢ ، ص ٤٤٢ .

(٢) راجع الأيام ، جـ ٣ ، ص ٦١٧ .

ويعلّق طه حسين على هذا كله بقوله :

« وكذلك قُضِى على الفتى أن يستقبل طلبه العلم فى الأزهر ، والجامعة المصرية ، والجامعة الفرنسية بكلمة عن آفته تلك ، تؤذى نفسه ، وتفرض عليه ليلة ساهرة ، ثم يعرض عنها بعد ذلك ؛ لأنه لم يكن يرى بداً مما ليس منه بدّ ، وما أكثر ماذكر بيت أبى العلاء :

وهل يأبق الانسان من ملك ربه　　فيخرج من أرض له وسماء

وما أسرع ماكان ينسى الفتى هذه الكلمات المؤذية بعد أن يشترى هذا النسيان بليلة ينفقها مسهداً محزوناً ، ثم يقبل بعد ذلك على مالم يكن بدّ من الإقبال عليه من العلم فى الأزهر ، وفى الجامعة المصرية ، وفى جامعات فرنسا » [1] .

وهكذا كانت علاقة طه حسين بآفته ، وأثرها على علاقته بالبيئات الاجتماعية أو التعليمية التى لم يأل جهداً فى غمزها ، ولم يدَّخر وسعا فى لمزها على طبعه وبطبيعته ، فكانت علاقته بآفته علاقة جفوة وعداء ، وعلاقته بهذه البيئات من خلال علاقته بآفته علاقة إدانة واستياء ، وعاش فى هذه الظلال كما يقول : « يحمل فى نفسه ينبوعاً من ينابيع الشقاء لا سبيل إلى أن يغيض أو ينضب إلا يوم يغيض ينبوع حياته نفسها ، وهو هذه الآفة التى امتحن بها فى أول الصبا ، شقى بها صبيًّا ، وشقى بها فى أول الشباب ، وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلى عنها ، بل أتاحت له أن يقهرها ، ويقهر ما أثارت حوله من المصاعب ، وأنشأت له من المشكلات ، ولكنها كانت تأبى إلاّ أن تُظهر له بين حين وحين أنها أقوى منه ، وأمضى من عزمه ، وأصعب مراساً من كل ما يفتق له ذكاؤه من حيلة ... والغريب من أمره وأمرها أنها كانت تؤذيه فى دخيلة نفسه وأعماق ضميره ، كانت تؤذيه سرا ولا تجاهره بالخصومة والكيد ، لم تكن تمنعه من المضىّ فى الدرس ، ولا من التقدّم فى التحصيل ، ولا من النجح فى الامتحان ، وإنما كانت أشبه شىء بالشيطان الماكر المسرف فى الدهاء ، الذى يكمن للإنسان فى بعض الأحناء والأثناء ، بين وقت ووقت ، ويخلى له الطريق يمضى فيها أمامه قُدُما ، لا يلوى على شىء ،

---

(١) راجع الأيام ، جـ ٢ ، ص ٤٤٢ – ٤٤٣ .

ثم يخرج له فجأة من مكمنه ذاك ، هنا أو هناك ، فيصيبه ببعض الأذى ، وينثني عنه ، كأنه لم يعرض له بمكروه ، بعد أن يكون قد أصاب من قلبه موضع الحسّ الدقيق ، والشعور الرقيق ، وفتح له باباً من أبواب العذاب الخفيّ الأليم » [١] .

وبرغم هذا التصريح الصريح لطه حسين بعلاقته العدائية لآفته : نفسية كانت أو مادية ، وماترتب على ذلك من غمزه الشجيّ ولمزه الذكيّ لبيئته : اجتماعية كانت أو تعليمية ، إلا أن هذا العداء وتلك الإدانة ظل يغذيها فى أعماقه الإحساس بالقهر ، ولعق المرار ، إلى أن غلبته على نفسه ، ونصرته على آثار آفته علاقة إنسانية ملكت عليه عاطفته ، فأخذت تداوى نفسه من النزوع إلى القسوة والهجر ، وتلقى مراسيها فى بحور الأنس ، وحياة الاستقرار ، وكانت هذه العلاقة الإنسانية أشبه بالمعجزة ، إذ ظلت من أحبَّها طوال حياته آلف عنده من حمام مكة ، وأجدى عليه من الغيث فى أوانه .

* * *

(١) راجع الأيام حـ ٣ ص ٥٦١ – ٥٦٢ .

أثر المرأة في حياة طه حسين
عقلاً ووجداناً

إن اللسان بذكرها لموكّل والقلب صاد ، والخواطر صوَّر

« جميل »

عرف طه حسين المرأة بجميع وسائل المعرفة التى تيسرت له ، فسيطر عليها وتمكَّنت منه ، ولم تثنه قسوة ظروفه عن التوصل إليها ، رغم ما ينقصه ، ولم تقصّر فسحة الأمل عنده عن التحامه بها بما لديه ، فى كلتا بيئتيه اللتين ارتبطت بهما حياته فى طوريه الأولين : طور الصبا ، وصبينة التجربة فيه ، وطور الشباب بامتداد عمقه واتساع ضفتيه .

وكانت أولى البيئتين هى تلك البيئة القروية ، المنغلقة على تقاليدها الاجتماعية الريفية فى البيت ومجتمع القرية ، وعلى مكوِّناتها الثقافية التراثية فى حلقات الذكر ومجالس المنشدين ، بَلْهَ الكتّاب ورحاب الأزهر ، وكانت ثانيتهما هى تلك البيئة المدنية ، المنفتحة على قيم اجتماعية متحضرة ، فى القاهرة وفرنسا ، وعلى مكوناتها الثقافية المتميزة فى الجامعة المصرية والمؤسسات الصحفية ، بله السربون والصالونات الأدبية .

والمرأة فى كلتا البيئتين – كما عرفها طه حسين – صورة حية لواقع بيئتها اجتماعيا ومظاهر حركة حياتية ، وثقافيا ونظام بناء للشخصية ، فهى كما تعرّف عليها فى البيئة الأولى نتاج تخلُّف ونقصان وعى ، ولذلك كانت فى مجمل نعوتها جاهلة محزونة ، مجال حركتها مابين جدران الدار ، وقسمة حياتها أنها لا تملك لنفسها القرار . وهى كما عرفها فى البيئة الثانية ترجمان تحضّر ، واستيعاب عوامل رقىّ ؛ ولذلك كانت فى مجمل مسيرتها مقتحمة ميادين تنافس الرجال ، مقتدرة على الجدل ، وإعادة النظر ، وإدارة الحوار .

ولهذا ، كانت المرأة فى البيئة الثانية مثار إعجاب الفتى طه حسين أولاً ، ومصدر انشغالٍ لفكره وسمعه وقلبه ثانياً ، وقد أحس بهذا الإعجاب حين التقى لأول مرة – فى

أول فرصة تتاح له – بالفتاة الطموح نبوية موسى [١] ، وكانت حينذاك حديث الناس ؛ لأنها أول فتاة تظفر بالشهادة الثانوية ، وكانت كذلك مصدر إعجاب عند الناس ؛ لما لها من فتنة وجاذبيَّة من حيث إن ظهورها – فى مجالس الرجال واقتحامها فى مجالات التنافس معهم – ظاهرة لبيئة جديدة اجتماعية ، ولم يكن قبل هذا اللقاء قد أتيح للفتى طه حسين أن تعامل مع تلك التى تشربت روح البيئة الجديدة ، أو احتكَّ بمن خرجت على مألوف حياة ابنة القرية وفتاة الريف ، فيسجل هذا الإعجاب قائلا :

« وكان الفتى قد لقى السيدات فى بيئته تلك الريفية ، ولكن لم يلق منهن القارئة الكاتبة البرْزة ، التى تظهر فى مجالس الرجال ، وتحاورهم فتلحّ فى المحاورة ، وتخاصمهم فتعنف فى الخصام ، قبل أن يلقى تلك الفتاة » [٢] .

وبعد التصريح بهذا الإعجاب تتكرر مواقف احتكاكه بالمرأة الجديدة ؛ فيلهج لسانه – بعد ذلك – بالانشغال بها سمعاً وقلباً وفكراً حين شهد حفل تكريم خليل مطران ، وقد أقيم بالجامعة ، وهو مايزال بها طالباً ، فأنشد الشعراء قصيدهم ، وألقى الخطباء خطبهم ؛ وإذا بصوت يتحدث إلى جمهور من الناس لأول مرة ، ويستمع طه حسين لهذا الصوت أيضا لأول مرة ، فينشغل به سمعاً وقلبا ، ويضطرب له شغفا وحباً ، ولم يجد لديه لإخفاء الشغف جرأة ، وإن كان لا يملك للاختلاط بصاحبة هذا الصوت قدرة ، فليكتف بأن ينشغل به فكرا عن طريق تخزينه ورصده ، بعد أن انشغل به سمعاً وقلباً بدواعى تأثيره ورحابة مدّه ، وفى ذلك كله يقول :

« لم يرض الفتى عن شىء مما سمع إلا صوتا واحدا ، سمعه فاضطرب له اضطرابا شديدا ، وأرق له ليلته تلك ، كان الصوت نحيلا ضئيلا ، وكان عذبا رائقا ، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ منه فى خفة إلى القلب ، فيفعل به الأفاعيل ، ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئا ، ولم يحاول أن يفهم من حديثه شيئا . شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث » [٣] وكان هذا الصوت هو صوت مىّ زيادة ...

(١) كان لقاؤهما معا بمكتب أحمد لطفى السيد ، راجع الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤٢٩ .
(٢) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤٣٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٣١ .

ويُترجَم ذاك الإعجاب وهذا الانشغال فى فكر طه حسين ، وفى أعماقه ، إلى أمنية يُمَنِّى بها نفسه ، وفكرة يتوقَّد بهاحسّه ، وغاية يدأب عليها حرصه ، وهو أن يفوز فى الحياة بامرأة من هؤلاء النساء الممثِّلات لتلك البيئة المثقفة الواعية ، والمؤثرات تأثيرا واضح الملامح فى البناء الاجتماعى ، والنابتات فى منابت ممارسة الحياة الراقية ... ولذلك أخذ منذ أن ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش فى روعه فكرة السفر إلى أوربا ، وإلى فرنسا خاصة ، أخذ يَعِدُ نفسه ، ويغيظ أخواته « بأنه سيُقيم فى فرنسا أعواما ، ثم يعود منها وقد اختار لنفسه زوجاً فرنسية ، متعلمة ، مثقفة ، تحيا حياة راقية ممتازة ، ليست جاهلة مثلهن ، ولا غافلة مثلهن ، ولا غارقة فى الحياة الخشنة الغليظة مثلهن .. » [(1)] .

إذن بدأ طه حسين ينشغل بالمرأة المثقفة الواعية ، واقعاً احتك به ، وأملاً يفكر فيه ، وزوجاً يحلم بها .

وقد سبق هذه البداية فى حياة طه حسين تجربة احتكاكٍ بالمرأة الممثِّلة للبيئة القروية تلك ، ولكنها كانت تجربة قد صبغتها البيئة الريفية بأصباغها ، وناسبتها مرحلة صبا طه حسين باضطرابها ، وكان ذلك حين اتصل ذهابه إلى بيت مفتش الطرق الزراعية ، ذلك الشيخ المطربش الذى يتكلم الفرنسية ، وقد استقر بقرية الصبى مقامه ، واستكن بقلوب الناس ودّه ، وازداد عندهم فى معظم الأحايين نفعه ، وخاصة عند والد الصبى بعد أن تأكد له أن هذا المفتش من حملة القرآن ، ومن مجوِّديه على أصول ، وفى إتقان ، وبالتأكيد بعد أن أخذ هذا المفتش على نفسه عهداً برعاية الصبى ، وسلامة إعداده فى أصول التجويد وصحة الترتيل .

وكان لهذا المفتش – وهو فوق الأربعين من العمر – زوج لم تبلغ السادسة عشرة ، ولم يكن لها منه ولد ، وبعد الشهرين الأولين من بدء تردد الصبى على بيت المفتش ، بغاية إتقان القرآن وتجويده ، أصبح الذى يجذبه إلى بيت المفتش ويحببه فيه شىء آخر « إذ اتصلت بين هذه الفتاة وهذا الصبى مودة ساذجة ، كانت حلوة فى نفس الصبى ، لذيذة الموقع فى قلبه ... وكان المفتش يجهلها جهلا تاما ، وأخذ الصبى يذهب إلى دار

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٤ .

المفتش قبل الميعاد ؛ ليظفر بساعة أو بعض ساعة ، يتحدث فيها إلى هذه الفتاة وأخذت الفتاة تنتظره ، حتى إذا أقبل أخذته إلى غرفتها ، فجلست وأجلسته ، وتحدَّثا وماهى إلا أن استحال الحديث إلى لعب ، كلعب الصبيان لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعباً لذيذاً ... » [١] .

كانت هذه التجربة فى صلة طه حسين بالمرأة تجربة بِكر فى حياته ، ولكنها تجربة صبيانية عابثة لم تنضج وجدانا ، ولم تخلّف أضراراً ، ولم تنطو على مايفسد للبيئة عرفا ، أو يسيء إلى طرفيها خُلقا ، وإلا لما كان يجرؤ الصبى أن يقصَّ على أمه قصته مع الفتاة ، ولما سعت أمه فى التعرف إليها ، ودعتها إلى البيت ، وإلى أن تكثر التردد عليها .

ولم يكن لتلك التجربة العابثة فى القرية ، ولا لتلك العلاقة المؤمَّلة حين التقى بنبوية ، أو الحالمة حين استمع إلى ميّ ، لم يكن لتجربة من تلك التجارب أثر صاخب فى حياة طه حسين ، فصدْق حدسه أو طموح أمله لم يتحقق له إلا بعد سفره إلى فرنسا ، والتقائه بمَلَكِه الذى حنا عليه « فبدَّله من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا » [٢] .

ولم يكن وقوع هذا الأمر بتدبير منه ، ولم يكن كذلك دواعيه فى حياته إقبال ميسّرات الحياة عليه .

وكيف يكون وقوع هذا الأمر فى حياته بتدبير منه ، وهو بسبب آفته لم يكن كرفاقه الذين سافروا إلى فرنسا معه ، فلم يختلف مثلهم إلى القهوات والأندية وبعض مايقام من الحفلات ، فيتعرف على الفتيات ، ويلتمس إلى لقائهن الوسائل ، ويبتاع بهذه الوسائل تصاريح الوصول إلى الغايات ، وإذا كان طه حسين محكوما عليه بألا يكون فى هذا الأمر واحداً منهم ، فكيف يملك أن يداعب الحب ؟ أو كيف يتوقع أن يداعبه الحب ؟ أو يكون له فى شئونه أرب ؟ ويصرح بهذا قائلا :

« وأنىّ له بشيء من ذلك وهو المكفوف الذى لا يحسن شيئا حتى يعينه عليه

---

(١) الأيام ، حـ ١ ، ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٧ .

مُعين ، وهو لا يرى وجوه الحسان ، ولا يعرف كيف يتحدث إليهن ، أو كيف يبتغى إلى رضاهن الوسائل ، فهو يغدو على الجامعة مصبحا ، فإذا راح إلى منزله آخر النهار لم يبرحه حتى يسفر له صبح الغد » [١] .

وكيف يكون دواعى وقوع هذا الأمر فى حياته رهينا بإقبال ميسِّرات الحياة عليه ، ولم يكن هناك ميسِّرات قد أقبلت ، ولا معسرات قد أدبرت ، وإنما كانت فترته الأُولى هناك معاناة تتزايد منافذها فى حياته وتثاّقل دواماتها على تدبّر فكره واحتمال إمكاناته ، أو كما يقول : « أَبت الأيام إلا أن تشقَّ عليه من أمره عسراً » فتجمَّعت فى أعماقه آلام الغربة بعد أن فارق الوطن ، ووحشة الوحدة بعد أن افترق عنه أخوه – هناك – فى المسعى والسكن ، وقسوة التقتير بعد أن ثقل على دخله الشهرى تكاليف المعلِّم الخاص فى اللغة ، والقائد المأجور للطريق ، والقارىء المسئول عن القراءة ...

إذن لم يكن دخول المرأة فى حياة طه حسين بدافع استثماره مرحلة شبابه – كغيره من الشباب – من حيث تتويج حرية الشباب بقيد الحب وخاتم الزوجية ، أو بدافع ميسرات الحياة عليه من حيث تشجير حياته الفردية بملء أوقات فراغه بحضور الحفلات والتعرف على الفرنسيات ، أو توظيف ميسراته المادية فى تلبية إشباع هوى النفس ، أو ريّ ظمأ الكوامن الوجدانية لابن القرية حين يفتح عينيه على بهرجة المدينة ، وناهيك حين تكون القرية التى نشّأته قرية مصرية ، والمدينة التى احتضنته مدينة فرنسية ، بكل ما يغل الأولى من حماية ، وبكل مايسيطر على الثانية من غواية .

لم يكن دخول المرأة فى حياة طه حسين بدافع من هذين الدافعين ، وإنما كان لقاؤه بها فرجا من كرب أثقال الحياة المادية والعقلية العسيرة التى امتُحن بها فى عامه الأول بفرنسا ، فسمع الفتى « ذلك الصوت يقرأ عليه شيئا من شعر راسين ذات يوم ، فأحس أنه خُلق خلْقا جديداً ، ومنذ تلك الساعة التى سمع فيها ذلك الصوت لم يعرف اليأس إلى نفسه سبيلا ، ولم يعرف الفتى أنه أحب الحياة قط كما أحبها فى الثامن عشر من مايو فى ذلك العام (١٩١٥) ، ولم يعرف أنه أقبل على الدرس كما أقبل عليه منذ

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٥٣٨

ذلك اليوم ، ولم يعرف أنه انتفع بالاختلاف إلى الجامعة والقراءة فى الكتب كما جعل ينتفع بها منذ ذلك اليوم أيضا ، حتى حين انقطع عنه ذلك الصوت العذب ، البر ، الرفيق ؛ لمقدم الصيف ، فقد كان الصوت يصحبه دائما ، لا يكاد يخلو إلى نفسه فى ليل أو نهار إلا سمعه يقرأ عليه من هذا الكتاب أو ذاك ، فى تلك النبرات التى كانت تسبق إلى قلبه ، فتملؤه رضى وغبطة وسروراً .. » [١] .

و وقوع هذا الحدث العظيم فى حياة طه حسين لم يكن بالنسبة له – قد حدث فى غفلة من أثر العاهة عليه ، كما أنه لم يكن بالنسبة للمرأة – التى أَحَبَّها أول ماأحبها بسمعه ، وسمعها أول ماسمعها بقلبه – قد حدث فى تغافل منها عنه ، ولكنه حدث لهما معاً كما تحدث المُعْجزات وخوارق العادات بالنسبة لمقاييس كل منهما وحساباته :

أما هو فكان بسبب عاهته « قد ضُرِب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضى والأمن ، وباطنه – من قِبَلِه – السخط والخوف والقلق واضطراب النفس » . لم يكن يأنس إلى أحد ، ولم يكن يطمئن إلى شىء [٢] .. « كان يرى نفسه غريبا أينما كان ، وحيثما حلَّ ، لا يكاد يفرِّق فى ذلك بين وطنه الذى نشأ فيه ، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التى كان يلمُّ بها ، لأن ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذى ضُرِب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطا به ، يأخذه من جميع أفكاره فى كل مكان ، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس الذين يسمع أصواتهم ، ويحس بعض حركاتهم ، ولكنه لا يراهم ، ولا ينفذ من وراء هذه الأصوات التى كان يسمعها ، والحركات التى كان يحسّها . كان غريبا فى وطنه ، وكان غريبا فى فرنسا ، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظاهراً لا تكاد تغنى عنه شيئا ، وكانت الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا يعقلها ، ولا يحقق من أمرها شيئا ، كأنما أُغلق من دونها بالقياس إليه باب لا سبيل له إلى النفوذ منه ، كان ينكر الناس وينكر الأشياء ، وكان كثيراً ماينكر نفسه ، ويشكُّ فى وجوده » [٣] .

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٥٤١ – ٥٤٢ .

(٢) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٥٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٩٤ .

ولذلك ، حين التقيا وتكرر اللقاء ، وتعلقت نفسه بصاحبة هذا الصوت ، بعد أن اجتازت نفسه حدود التعلق بعذوبة ذات الصوت ، وتوافرت ظروف تلزمهما تكرار اللقاء ، وتذكى لديه شغف التعلّق بهما ، ومن بينها سكناه معها فى نفس البيت ، أحس وحده بدقات حبِّه فى نبضات قلبه ، وانشغلت روحه بأحلام أمانيه وخفقان رغبته :

وما رغبتْ نفس الفتى فى حياته | كرغبتها فى حرة لا تخونها
تقاسمه الحالين بؤسا ونعمة | وبالحب – إن لم يلف مالا – يمونها

ولكنه لم يقبل أن يستبيح لنفسه إلا أن يكون ذلك لها فى صمت ، بل فى قيعان الصمت ، وهو يعترف بذلك إذ يقول :

« ولكن حبه كان يستحى حتى من نفسه فينكرها ، وكان الفتى يخفى شعوره ذاك فى أبعد مايستقر من أعماق ضميره ، ويكره أن يتحدث به إلى نفسه ، وقد استيقن أنه لم يخلق لمثل هذا الشعور ، وأن مثل هذا الشعور لم يخلق له ، وأين هو من الحب ، وأين الحب منه ؟

إنما كُتب عليه أن يعيش كما عاش مَثَلُهُ الأعلى ، ذلك الذى وقف حياته – منذ قرون طوال فى دار من دور المعرة – على الدرس ، ممعنا فيه ، غير مَعْنِيٍّ إلا به ، محرماً على نفسه ما أباح الله للناس من طيبات الحياة .

كان الفتى يطوى نفسه على شعوره ذاك يائسا منه ومن عواقبه ، راضيا بما يتاح له من سماع ذلك الصوت ، ومن الحديث إلى صاحبته حين يتاح له الحديث إليها ، واثقا بأن هذا أقصى مايمكن أن يساق إليه من النعيم ، غير طامع فى أكثر منه ، وكان واجدا على الحياة والظروف ؛ لأنها تحول بينه وبين أكثر منه » [١] .

وأما هى فلم يكن ثمة مايدعوها إلى التفكير فى أمر التعلُّق به ، والتدبير لشأن الملازمة له ، وأىّ دواع تدعوها لذلك وهو قروىّ مصرى مسلم بلا عينين ، وصفر اليدين ، وهى مدنيّة فرنسية مسيحية جمّاعة للحسنيين ، ربيعة الأصغرين ، ولذلك تقول :

---

(١) الأيام حـ ٣ ص ٥٨٥ – ٥٨٦ .

« أول مرة التقينا فيها كانت فى ١٢ مايو ١٩١٥ م ، فى مونبلييه ، لم يكن ثمة شىء فى ذلك اليوم ينبئنى بأن مصيرى كان يتقرر ، ولم يكن بوسع أمى التى كانت بصحبتى أن تتصور أمراً مماثلا ، وكنت على شىء من الحيرة إذ لم يسبق لى فى حياتى أن كلَّمت أعمى » [١] .

هكذا كان الأمر فى طبيعته ، وكذلك كان المتوقع لمستقبل هذه العلاقة — بين هذين الطرفين المتضادين : بيئة ونشأة ، وثقافة ومواطنة ، وعقيدة ومواءمة — أن تتوقف عند إعجابه هو بها ، أو حبه الصامت لها . وأن تتوقف عند مساعدتها هى له بالقراءة حينا ، وأنس الصداقة حينا ، وإشفاقها عليه بالتلطف معه حينا أو الرفق بحاله والإعجاب بإصراره ودأب احتماله حينا .

ولذلك حين جرؤ على أن يُخرج الأمر عن طبيعته ، وحاول أن يعوجّ بالمتوقّع عن وجهته ، فأعلن عن حبه ، وطفا به عن قيعان صمته ، أنكر هو هذه المحاولة ، وأنكرتها هى ، وحتى حين سلبها وجوبُ قضاء المقدور إنكارَها وقَبِلَتْ ، أنكر الأمر أهلوها ... وهذا هو يقول : « ألمت علة طارئة بصاحبة ذلك الصوت العذب الذى كان نعيمه الوحيد فى حياته الشاقة المظلمة ، فأقبل يعودها ، وجلس يتحدث إليها ، ثم لم يَدْرِ كيف التوى به الحديث ، ولكنه سمع نفسه يُلقى إليها — فى صوت أنكره هو قبل أن تنكره هى — أنه أحبها ، ثم سمعها تجيبه بأنها لا تحبه » [٢] .

وهذه هى تقول :

« وذات يوم ، يقول لى : « اغفرى لى ، لابد أن أقول لك ذلك ، فأنا أحبك ، وصرختُ — وقد أذهلتنى المفاجأة — بفظاظة ، ولكنى لا أحبكَ ، كنت أعنى الحب بين الرجل والمرأةِ ولا شك ، فقال بحزن : « آه » ، إننى أعرف ذلك جيدا ، وأعرف جيدا كذلك أنه مستحيل » [٣] .

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ترجمه عن الفرنسية بدر الدين عرودكى ، ص ١٥ .

(٢) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٥٨٣ — ٥٨٤ .

(٣) معك ، سوزان طه حسين ، ص ١٦ .

وتقول عن موقف أهليها بعد أن اقتنعتْ بالموافقة ، وارتضعت أحلام المرافقة :

« ويمضى زمن ، ثم يأتى يوم آخر أقول فيه لأهلِى ، إننى أريد الزواج من هذا الشاب ، وكان ماكنت أنتظره من ردّ الفعل :

– كيف ؟

– من أجنبىّ ؟

– وأعمى ؟

– وفوق ذلك كله مسلم ؟

– لا شك أنكِ جننت تماماً » .

وتعقّب على ذلك بقولها : « ربما كان الأمر جنونا ، لكننى كنت قد اخترت ... من يدرى ؟ [1] » .

إذن الأمر ليس طبيعيا فى ظاهر مكوناته لا من قِبَلِهِ ، ولا من قِبَلِهَا ولا من قِبَلِ أهلها ، وكذلك لابد أن يكون ليس طبيعيا من قِبَلِ أهله [2] هو ، كذلك .

ولذلك كان ردُّ الفعل الذى كان منه حيث أنكر صوته فيما قال ، وأدرك حمقه فيما أعلن ، والذى كان منها حيث صرخت ، ذعرا حين سمعت ، وذهلت بفظاظة حين فوجئت ، والذى كان من أهلها حيث يرفضون ، ويعتبرون موافقتها على حدوثه تمام جنون ... أقول كان رد الفعل عند كل طرف هو ردّ للأمور لأن تجرى فى طبيعتها ، ورفض للحياة لأن تحيد عن مألوفها فى مسيرتها .

ولذلك أيضا كان طه حسين واقعيا ومنصفا الواقع حين واجه الموقف بشجاعة المدرك للواقع ، ووعْي غير المنكر لطبائع الأمور ، ولذلك يقول :

« ... وليس غريبا بعد ذلك أنه لم يجد حزنا ولا شقاء ، ولم يحس لوعة ولا ألما حين

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ص ١٦ – ١٧ .

(٢) وهذا ماحدث من كثيرين من علماء مصر ، فقدا نقدوا الزواج المختلط بشدة ، ورأوا أن فى هذا قلبا للقانون الأخلاق ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ـ بلغ مسمعه الرد على كلمته تلك موئسا مقنطا ، فهو لم يكن ينتظر إلا اليأس والقنوط ، وقد وطّن نفسه عليهما ، وعزّى نفسه عنهما بما كان يمعن فيه من الدرس والتحصيل ، وهو قد انصرف عن صاحبته فى ذلك اليوم راضيا عن نفسه ، ساخطا عليها : راضيا عنها لأنها قالت مالم يكن بد من أن يُقال ، ساخطا عليها لأنها عرّضته بهذه الكلمة لشرّ عظيم ... » [١] .

ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، وقصتهما رغم ذلك لم تنته بعد ؛ لأن الواقع فى الحياة هو جانبها الظاهر ، وهذا الجانب هو الوجه المباشر لحركة الحياة التى تُولِّدها منطقية الأحداث وعقلانية الأسباب ، فيأتى الفعل فيها ورد الفعل نتاج تلقائية لا تخلو من سذاجة ، وعُرْف لا يخضع لكل صاحب حاجة ، وتقاليد تجرى الأمور فى ظلها الممتد ، يُؤمِّن عليها رأى الجماعة ، ويسلس بها قياد الفرد ... وإلى جانب هذا – الذى نلمسه فى واقع الحياة والوجه المباشر لحركتها – نتعرّف على الجانب الآخر الذى تكتمل به صورتها ، وهو جانب فى معطياته لا يُمنطَق بمنطق الواقع ، ولا يُقاس بعقلنة العقل ، وإنما تُقبَل معطياته كما تُقبل الخوارق ، وتدخل – فى أكثر الأحيان – فى عوالم الأحلام والأوهام ، وفى عجائب دنيا تجمع الشتيتين وقد اختلفا ، وتفرّق بين المؤتلفين وقد اتفقا ، وترفع الذليل وقد عزّ ، وتذلّ العزيز وقد ملك للعزة أسبابا ، فإذا بمُلكه يستحيل أسْلابا ، وإذا هذه الحياة بجانبيها معا جمّاعة لما يُعقل وما لا يُعقل ، ومازجةً بين هذا المتوقع المأمول وذاك الممتنع المستحيل .

وتكوين العلاقات الثنائية بين الرجل والمرأة فى بعض الأحايين يدخل فى هذا الجانب الآخر من جانبى الحياة ، فإذا بهذه العلاقة تصبح دليلا على ما فى الحياة من أسرار لا تحيط بها حدود العقل ، ومن أغوار لا تطيق الغوص إليها تقاليد الواقع .

ومن هذا الجانب انسلخت العلاقة بين طه وسوزان عن حدود الواقع ، وانسربت فى عوالم الأسرار ، فتحطم فى معبد أسرارها الواقع والمتوقع ، وتاهت فى مكامن أغوارها الموانع وما تمنع ، فإذا بهذا الذى أنكره الرجل على نفسه حين أعلنه ، يستعيده من

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٥٨٦ .

مستقره فى أعماق ضميره ، فيلهج به حاله لا لسانه ، وهذا الذى أذهل المرأة بفظاظة حين استمعت إليه ، توقره فى أعماق ضميرها ونبض فؤادها ، فيستجيب له لسانها لا أهلها ، ويحدث ماكان بأمسيهما مستحيلا ، ويأتلف من حاليهما ماكان فى واقعيهما مختلفا ، وتتحقق بهذا الائتلاف فى حياة كل منهما المعجزة [1] .

وما قصدت بالمعجزة إلا ذلك السرّ الخَبِئ وراء إقامة أمثال هذه العلاقة الثنائية الخاصة ، والتى تثبت الأيام نجاحها رغم التحام العقبات دونها وهى فى مهدها ، ورغم توافر الأسباب حولها لوأدها .

وليس بالضرورة أن يكون هذا السر خاضعا لاستنباط العقل ، أو واضحا فى نتائج التجربة ، بل ليس بالضرورة أن يكون معلوما للطرفين نفسيهما ، أو طافيا على صفحة الوعى لديهما ، وكل مايقال حوله من تفسير إنما هو رجم بالغيب ، واجتهاد فى التأويل ، وقد يكون هذا السرّ هو وقوع كل طرف منهُما على نقطة الضعف عند صاحبه ، فى لحظة من لحظات ضعفه التى يفقد فيها السيطرة على الموقف بعقله ، ويعجز الواقع عن لفظها بتقاليده ، فينسلخ كل منهما عن جلد الواقع وتقاليد البيئة وأسباب العقل ، بامتزاج نقطتى الضعف فى كليهما معا ، فتتحولان إلى دافع تأثيرى

---

(١) يصور طه حسين أرقه الذى آل إليه حاله بعد رفضها ماسمعته أذناها منه ، وماحدث حتى استجابت لمطلبه فيقول :

« ولم تلبث آثار هذا الأرق المتصل أن تظهر ، وأن يلحظها أهل البيت ، وتلحظها معهم ذات الصوت العذب ، وهم يسألونه عن أمره فيلتوى بالجواب ، وهم يريدون أن يعرضوه على الطبيب فلا يستجيب لما يريدون ، وإنما يزعم لهم أن ليس به بأس ، وما يزال هذا شأنه حتى يظهر عليه بعض الضر ، وتسأله الفتاة ذات يوم ، وقد خلت إليه تقرأ عليه بعض ماكانا يقرآن ، فيريد أن يلتوى بالجواب ، فتلح عليه ، وإذا هو ينبئها مريداً أو غير مريد بأمره كله ، فتسمع له ، ثم تسكت عنه ، ثم تأخذ فى القراءة حتى إذا أتمتها وهمّت أن تنصرف قالت له فى رفق ... فإنى قد فكرت فيما أنبأتنى به ، وأطلت فيه التفكير ، ولم أنته بعد إلى شىء ، وقد أوشك الصيف أن يظلنا ، وسنفترق ، فاصبر ، حتى إذا كان افتراقنا فستتصل بيننا الرسائل كما تعودنا أن نفعل ، فإذا قرأت فى بعض رسائلى أنى أدعوك إلى أن تنفق معنا بقية الصيف ، فاعلم أنى قد أجبتك إلى ماتريد ... » واتصل الفراق شهرا ، وتصله الرسالة وفيها الدعوة المرتقبة ، وتحقيق الأمل .

راجع الأيام ، طه حسين ، حـ ٣ ، ص ٥٨٨ – ٥٩٠ .

متمرِّد ، وهدف وجدانى مسدّد ، وسرّ من أسرار الحياة والبناء ، يغامر فيقتحم بلا تردّد ، أوَ لم تكن لحظة القوة عنده فى الإعلان لها بحبه ، قد شحذت قدرتها ، وأطلقت جرأتها لحظة ضعفها - بسبب العلة التى ألمت بها - مما ملك عليه أمره ، وملأ عليه قلبه ، وأنساه تحفظه وتحرجه ، حتى وإن كانت من قبل قد صدّته ؟؟ . ثم أوَ لم تكن لحظة القوة عندها فى التفكير فيما أعلن ، والاستجابة لما طمح ، قد فجّرتها لحظة ضعفه بسبب ماظهر عليه من الضر حين صدّته أو ردّته ؟؟ ..

وقد يكون هذا السر هو وقوع كل من الطرفين على نقطة القوة فى الطرف الآخر ، فصقلت من فاعليتها ، وشدت من أزرها ، وأزاحت أسدال صدأ العُرف ، وأصباغ قيود الواقع عن جوهرها ، فإذا بكل منهما قوة تدفع قوة ، ودفع يقوِّى دفعا ، ويستمران معا ، موجتان متدافعتان إلى الأمام ، يحركهما تيّار الحياة ، وتُنشّطهما مواثيق الأحلام .

وقد يكون هذا السر هو وقوع كل من الطرفين - فى الطرف الآخر - على نقطة عوض - لمنقصة فيه ، أو عنصر قوة شاكلت عنصر ضعف لديه ، فانجذب عنصر الضعف عنده إلى عنصر القوة لديها ، أو عنصر القوة لديه إلى عنصر الضعف عندها فتجاوبا تجاوب السالب بالموجب - وإن كان كل منهما سالبا موجبا معا - فسالبه مع موجبها ، وسالبها مع موجبه ، فتكتمل الدائرة ويتم التفاعل ، ويتولد التيار فى قوة لا تتوقف إلا بفصل العنصرين ، وإبطال أسباب التفاعل . وكيف يحدث هذا فى مثل هذه العلاقة الإنسانية الثنائية الخاصة ، وسرُّها هو المعجزة فى إحداثها ، ومعجزتها هى فى إدخال هذا السر مصونا من عاديات أحداثها .

وإذا كان التفكير فى هذا السر - الذى دفع بهذه العلاقة غير المتكافئة أو المتوقَعة لأن تتكافأ وتقع - ضربا من الرجم بالغيب ، والاجتهاد فى التأويل ، فكذلك أمر نقطة القوة عند كل منهما ، ونقطة الضعف فى كل منهما ، أتكون قوته قد تجلت لها فى جلَده واصراره ، وفى دأبه واستمراره ؟ وقوتها قد تجلت له فى صوتها العذب ، وثقافتها أو قدرتها ؟ أم تكون قوته - كما وعتها - فى شرقيته وقرويته وصدق مشاعره ؟ ، وقوتها - كما وعاها - فى غربيّتها ومدنيّتها ودفء ذاتيتها ؟ أم يكون أمر القوة عند كل منهما كما تجلى للآخر غير هذا وذاك ؟ .

وما أمْر نقطة الضعف عند كل منهما ؟ أتكون عنده فى عاهته ، وحاجته ؟ ، وعندها فى أحلامها ورومانسيتها ؟ ، أم كانت عنده فى غربته ووحدته ؟ ، وعندها فى شفقتها أو حيرتها ؟ ، أم يكون أمر نقطة الضعف عند كل منهما شيئا آخر غير هاتيك الاحتمالات ؟

ومهما كان السبب أو حقيقة المعجزة ، ومهما كان أمر القوة أو الضعف فى صنع العلاقات ، والتحام المشاعر ، ونقض العادة ، وشجب المؤاخذة ، فإن العلاقة قد تثبتت ، والآمال قد تحققت ، والمعجزة قد تمت [١] ، وأصبح طه حسين منذ ذلك البدء إنسانا جديدا « ألغى – فى رفق ، وفى جهد متصل – ماكان مضروبا بينه وبين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأستار » [٢] ، وبدأ أثر هذه العلاقة ينفث سحره فى تخليص طه حسين من ظلال أبى العلاء الذى لم تكن ذكراه تفارقه فى لحظة من لحظات اليقظة إلا أن يشغل عنها بالاستماع إلى الدرس أو إلى القراءة » [٣] وما كان تأثير أبى العلاء على صاحبنا تأثير المُصالحة مع الحياة : لأن أبا العلاء نفسه لم يقل هيًّا إلى الحياة ، وإنما كان القائل :

تعب كلها الحياة فما أعـ ـجب إلا من راغب فى ازدياد

وما كانت صلة صاحبنا بأبى العلاء صلة الإعجاب ، وإنما كانت صلته به صلة المرافقة والمعايشة ، فالخروج من دائرة هذا الظل الكبير – أثراً ومعايشة – لن يكون بغير قوة دفع أقوى أثراً وأشد التصاقا ، ولن يتحقق بغير سطوع شمس يتمركز فى بؤرة هذه الشخصية فيكون أوسع انتشاراً ، وأدق اختراقا لمواطن الكتمان ، ومكامن الأعماق ، وكذلك كان أمر هذين المؤثرين تأثيرا حقيقياً فى حياة طه حسين ، وفى ذلك يقول :

« يرحم الله أبا العلاء ، لقد ملأ نفس الفتى ضيقا بالحياة ، وبغضا لها ، وأيأسه من الخير ، وألقى فى رُوعه أن الحياة جهد كلها ، ومشقة كلها ، وعناء كلها ، وإذا هذا

---

(١) اقترن طه حسين بعروسه فى التاسع من أغسطس ١٩١٧ م .

(٢) الأيام ، طه حسين ، جـ ٣ ، ص ٥٩٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٧٦ .

الصوت يزُود عن نفس الفتى كل ما ألقى فيها أبو العلاء من ظلمة التشاؤم واليأس والقنوط ، كأنه تلك الشمس التى أقبلت فى ذلك اليوم من أيام الربيع ، فجلت عن المدينة ماكان قد أطبق عليها من ذلك السحاب الذى كان بعضه يركب بعضا ، والذى كان يقصف ويعصف حتى ملأ المدينة أو كاد يملؤها إشفاقا وروعا . وإذا المدينة تصبح كلها إشراقا ونوراً » [١] أو لنقل : فإذا بذلك الصوت ، صوت الحب ، وصوت الحياة ، قد أجلى عن أعماق طه حسين ماكان قد أطبق عليها من ذلك التشاؤم واليأس والقنوط الذى كان بعضه يركبه بعضا ، والذى كان يقصف فى داخله ، ويعصف فى نواحيه ، وإذا بهذه الأعماق تصبح كلها إقبالا على الحياة ، وتدفقا مُتَّصِلًا يملأ الحياة ، أو كما يقول : « وإذا هو لا يعرف الوحدة ، ولا يجد الوحشة حين يخلو إلى نفسه إذا أظلم الليل ، وكيف تجد الوحدة أو الوحشة إلى نفسه سبيلا ، وكيف تبلغه تلك الخواطر التى كانت تؤذيه وتضنيه ، وتؤرق ليله ، وفى نفسه صوت عذب رقيق يشع فيه البر والحنان ... » [٢] .

ولم يتوقف لسان طه حسين عن اللهج بأسرار أثر هذه العلاقة عليه فيقول : « ... وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه ، وراحته إلى غيره ، وأخذ ينجلى عنه الشعور بالغربة ، والضيق بالوحدة ، والسأم من العزلة ، وليس من شك فى أنه صدق كل الصدق ، وأعرب عن ذات نفسه فى غير تكثر ولا غلوّ حين قال فى بعض ماكتب : « إن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة ، وضيقه سعة ، وبؤسه نعيما ، وظلمته نوراً » [٣].

وعقلنةً للأمور لانجد فى هذا الذى يقوله طه حسين تزيدا على ما يُتوقع أن يكون لهذه العلاقة الخاصة من تأثير ، مادامت هذه العلاقة قد تشكلت بالنسبة لكل منهما فى شكل المعجزة ، وإن اختلفت هيئة حدوثها لدى طرفى هذه العلاقة ، فهى عنده أنْ تحقق له مايئس من تحقيقه ، وهى عندها أن قبلت باقتناع ما رفضته بفظاظه ... ثم لِمَ لا يكون أثر هذه العلاقة هو من جنس ذات العلاقة ؟ فإذا كانت هى معجزة ، فأثرها أيضا بالنسبة لكليهما كان معجزة ، وإذا كان بَطَل البحث هو طه حسين ، فإن أثر

---

(١) الأيام حـ ٣ ص ٥٤١ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٤٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٩٨ .

هذه المعجزة بالنسبة له عميق الإيجابيات متعدد الأبعاد :

البُعد الأوّل : الإيمان بالحب والاستغراق فى نعومة الرومانسية :

ولعلنى لست متجنبا الصواب إذا ما رأيت البعد الأول لآثار هذه العلاقة يتجسد فى أن ذلك الذى كان وحشىّ الغريزة كَمَثَلِهِ الأعلى ، صار رومانسىّ النفس فى صورة مُثلى ، فقد آمن بالحب ، وأصبح من يحبه بالنسبة له هو العقل والقلب ، ويعلن عن هذا الإيمان الذى بدَّلَه من حال إلى حال فيقول :

« ... ولعلّ سكرتيرى قد ضحك فى نفسه ، فهذا الشاب لايؤمن بالحب ، ولم أكن أنا نفسى لأومن به من قبل ، إلى أن جاء ، فلم أعد أنا نفسى ماكنته من قبل » (١) .

ويعلن عن هذا الحب فى الاجتماعات الرسمية ليواجه بهذا الإعلان رأى المعارضين – بشدة – بدعة الزواج المختلط ، وهجوم المهاجمين – بعنف – ردّة الشباب الذين يريدون قلب القانون الأخلاقى المفترض ، من ذلك ماحدث بينه وبين الشيخ بخيت ، فى اجتماع كانوا – علماء مصر ، ومفكروها وأدباؤها – يعدون به العدة بالجامعة لتخليد ذكرى محمد عبده ، فتثار قضية الزواج المختلط ، تعريضا بطه حسين ، ثم يأخذ الحوار من قِبَلهم مأخذ الشطط ، إلى الدرجة التى يقول فيها الشيخ بخيت لطه حسين أمام المجتمعين :

« ولماذا تزوجت فرنسية ؟ لو كنتُ حراً لاشترعت قانونا . ينفى كل مصريٍّ يتزوج من أجنبية » .

ويجادل طه حسين عنفا بعنف ، وينتهى الموقف إلى استئناف الشيخ قوله :

« لكننى بعد كل شيء يادكتور طه ، أود أن أفهم الأسباب الحقيقية التى حملتك على الزواج من أجنبية ، فأنت مصرى طيب ، ووطنى طيب ، عظيم الذكاء ، فكيف أقدمت على مثل هذا العمل ؟ .

فيجيبه طه حسين بلا تحفُّظ أو تحرُّج :

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ص ٤٥ .

« قابلت فتاة ، وأحببتها ، فتزوجتها ، ولو لم أفعل ذلك لبقيت عزبا ، أو لتزوجت – نفاقا بما أنني أحب أمرأة أخرى – امرأة مصرية ، وكنت سأجعل منها امرأة تعسة .. » .

ولم يتوقف طه حسين عن التصريح بحبه ، وعن التفكير فى أمر حبه ، وعن الترجمة لما ينبض به قلبه ، وبخاصة إذا ما فارقتْه بسفرة إلى فرنسا ، أو برحلة مع ولديها إلى الريف ، عندئذ لا يملك من نفسه أمرا ، ولا يطلب لتحفظه صبرا ، ولنكتف ببضعة نماذج من بضعة رسائل أملاها . وأودعها صندوق البريد لتصل إليها حيث تكون ، أو أطلقها زفرات محب ، وأشجان عاشق حيث يكون :

– « أنا قليل الإفضاء بمشاعرى ، بل إننى صموت ، وإننى على وعى بذلك تماما ، لكن ما أكثر ما حدثتك منذ رحيلك عن أشياء لا تطيقين سماعها ، لم أكن أعتقد على الإطلاق بقدرتى على مثل هذا الحب . وستبقى دوما فى أعماق نفوسنا زاوية كانت وستبقى دوما وحشية ، ولن يمكن تقاسمها إلا بين كائنين ، كائنين فقط ، أو أنها لم تقتسم على الإطلاق ، هذه الزاوية الوحشية المتوحدة هى أفضل مافينا » (١) .

– « أحبك ، وأنتظرك ، ولا أحيا إلا على هذا الانتظار » (١) .

– « أبِىَ حاجة للقول : إنى أحبك ؟ إنى لأقولها لك مع ذلك ، وإنه لعهد لك منى جديد » (٢) .

– « ولما كنا متحابين ، فإننا سوف نسير من جديد ، أقوياء بهذا الحب ، نحو المستقبل الذى ربما سيشبه الماضى ، أو لعله سيكون أفضل منه ، أو ربما سيكون أسوأ منه ، ولكن ماهمّنا ؟ سوزان ، لنتابع المسير ، أعطنى يدك » (٢) .

– « كان أفلاطون يفكر أننا إذ نتحاب فإننا لا نفعل سوى أن نعيد صنع ما أفسده عارض ما ، عندما ننفصل تنفصل نفسان عن بعضيهما ، تبحث كل منهما عن الأخرى ، وعندما يوجدان ويتعارفان فإنهما لا يعودان كائنين ، وإنما كائن واحد ، إننى

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ص ٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٦١ .

أومن بذلك تماما ، أتعلمين أننى أصبح صوفيا ، لو كنت شاعراً لأَلَّفْتُ الأناشيد ، ولغنيتها بنشوة ، لا يهمّ ، فقلبى يؤلفها ويغنيها ، ونفسى ترقد وقلبى يلين ، إننى لم أعدُ أتعرف على نفسى أبداً ، فلدى شخصيتان : واحدة للعالم كله ، وأخرى لك ، لى ، لنا ، وفكرتك وحدها هى التى تجعلها تعيش .. ولكن أترين ياسوزان : أنا لا أتحدث إلا عنِّى ، إننى أنانى ، وكل الصوفيين أنانيون . » [1] .

– « يستحيل علىّ القيام بشىء آخر غير التفكير بك ، ولا أستطيع أن أمنع نفسى من البكاء كلما دخلت الغرفة ، فأنا أجدك فى كل مكان دون أن أعثر عليك ... كانت الزهرة قد ذبلت ، فوضعتُها فى العلبة التى تركتها لى ؛ لأضع فيها رسائلك ، سأقبلّها كل يوم ، لقد استحالت الغرف معابد ، وعلىّ أن أزورها كل يوم ، ولو أنك رأيتنى أخرج من غرفة لأدخل أخرى ! ألمس الأشياء ، وأنثر القبلات هنا ، وهناك ... » [2] .

– « ..اعذرى أفكارى ، فأنا لا أفكر وإنما أحب ، ما أصعب قولك ذلك : لن يعرف الإنسان نفسه على الإطلاق ، وسيبقى دوما فى أنفسنا شىء ما ، نستشعره دون أن نفهمه أبداً ... » [3] .

– « ... أمنعك من أن تكونى حزينة ، وآمرك بالابتسام ، لا تقولى شيئا ، أعرف ماستقولين ... أما الآن فتعالى إلى ذراعى ، أحبك حتى نهاية الحساب ... » [4] .

– « تعالى إلى ذراعى ، وضعى رأسك على كتفى ، ودعى قلبك يصغى إلى قلبى ... [5]

وإذا تصورنا أن هذه النماذج من رسائل توزعت تواريخ إملائها على امتداد عمره

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ – ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٣ .

الطويل منذ أن تُوِّجَتْ علاقتهما بهذا الارتباط المقدس – وكان فى نحو السابعة والعشرين – إلى أن بلغ عمره الخامسة والستين ، حين أرسل رسالته من الجزيرة العربية وفيها النموذج الأخير ، فلابد أن نتصور لزاماً لذلك واستنباطا منه أن مضىّ السنين – كان يقطف من أوراق العمر ليغلف بها شباب هذا القلب حماية ووقاية ، وأن أعباء مسئوليات طه حسين التى تتثاقل من حين إلى حين لم تغير من لغة هذا الحب أو تسكت نايه ، وهل قِدَم العهد يُذبل نضرة الحب ؟ أو طول الزمن يصدىء أصالة الذهب ؟ أو اختلاف مراحل العمر وتقلب الأحوال بين العسر واليسر يضطرب لها صدق الإيمان ، ويرتاع بسببها نُبل القلب ؟ وفى هذا يقول الشاعر القديم عروة ابن أذَينة :

علقتك ناشئا حتى رأيتِ الرأس مُبيضّا
على يسر وإعسار وفيض نوالكم فيضا
ألا أحبب بأرضٍ كنـ ـتِ تحتلـينها أرضا
وأهلك حبذا ماهـم وإن أبدوا لى البغضا (١)

نعم ، كان هذا هو البعد الأول من أبعاد هذه العلاقة بين طه والمرأة ، الحب المتدفق أبداً ، والمتواصل دأبا ، حتى إن المحبوبة نفسها لاتكاد تصدق ، فإذا بها تقول وهى فى رحلة تذكارها :

« ... أمن الممكن ياطه أننى كنت محبوبة على هذا النحو ، وأننى كنت المقصودة بهذا السيل من الحنان والعاطفة ؟ ... هذا القدر من الحب الذى كان علىّ أن أحمله وحدى ، وحدى ، عبئا رائعا ، ما أكثر ماخفت ألاّ أتمكن من القيام بمتطلباته ... » (٢) .

البعد الثانى : البصر بعين من يحب :

وإذا كان البعد الأول لهذه العلاقة قد ردّ لطه حسين الثقة بالنفس وراحة البال ؛ إذ تظلل بعافية الأنس ، وتَخَضَّل بِأنداء الجمال ، فإن هذا البعد الثانى قد ردّ إلى طه

---

(١) الأغانى ، حـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

(٢) معك ، سوزان طه حسين ، ص ٦٠ .

حسين بصره الذى فقده ، وصار مكانه محْجرىْ حبيبته ، استبقاءً لطلل يذكّره بالزمان وما أفسده ، وارتباطا بامل كان الحب قد عمّده ، وبهذا البعد الثانى أبصر طه حسين كل شيء ، فعرف الناس حق المعرفة ،ورأى الطبيعة حية وهامدة ، وشاهد الحقائق تسجيلاً ومكاشفة ، وفى هذا يقول :

« ... كان [يقصد سوزانَهُ] يحدثه عن الناس فيلقى فى روعه أنه يراهم ، وينفذ إلى أعماقهم ، وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعره بها شعورَ من يعرفها عن قرب . كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً ، وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة ، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض ، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة ، وعن الشجر حين ينتشر من حوله الظل والروح والجمال ، وعن الأنهار حين تجرى عنيفة ، والجداول حين تسعى رشيقة ، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ، ومن مظاهر القبح والبشاعة ، فيمن كان يحيط به من الناس ، وفيما كان يحيط به من الأشياء ، فكان يخيل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه ، ولم تكن غريبة بالقياس إليه ، كان قد عرفها فى الزمان الأول البعيد ، ثم نسيها دهراً طويلاً ، فهو يذكره بعد أن طال عهده بها » (١) .

وفى الحق أنه بهذا البُعد قد اطمأن إلى نفسه ، وتطهّر شيئا فشيئا من اضطرابه وهواجسه ، وتصارح أو تصالح مع عاهته ، وما له باستمرار معاداتها والإصرار على جفائها ؟! ووجودها فى ظل هذا البعد لم يكن – كما كان من قبل – إرهاقاً بمضرة ، ولم يستتبع – كما استتبع من قبل – حرماناً وآلاما مستمرة .. أقول ما له بالاستمرار فى هذا أو الإصرار على ذاك ! وهو الآن يرى ببصر مدقق تأديةً للأمانة ، وتتجسد له المرئيات بلسان زلق ، متمكّن من الإبانة ، ويَختزن مايتلقاه عنهما فى وعى متعطش للإحاطة ، ونَهَم ملهوف إلى التعمق ؛ ليسبر الأغوار ، ويستوضح الأسرار ، ويسابق زمانه . وكانت هى فخورة بقيمتها فى تشكيل هذا البُعد عنده ، سعيدة بوظيفتها أن تكون بينه وبين الدنيا مِن حَوْله وشيجة وصل تتودّد ودّه ، وتُحطّم قيده ، وكانت بين هذا وذاك معلّماً فطنا يقدّم المعلومة ويتابع النتيجة ، ويكفينا فى الإشارة إلى هذه الخاصة عندها إعادة قولها :

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٥٩٦ .

« ... وهناك نزهة من هذه النزهات ، قمنا بها ذات مساء ، ولا تزال ذكراها عذبة فى خاطرى : كنا نعود من حلوان ، وكنت أحاول أن أصف له جمال هذا الطريق بين الشواطىء الصخرية والماء وضوء القمر على الصخور ، وانعكاسه الباهت فى النيل ، وكان يستشعر هذه الأشياء بحساسية عميقة ... » [١] .

وكذلك كانت تصنع معه فى كل مكان تصحبه فيه تحت سماء الشرق أو تحت قباب الغرب ، وأمام كل مرأى تُلفته إليه بعينيها المفتشتين عن أسرار الجمال فى المرأى وعن مواطن العُجب ، حتى إن وظيفتها تلك فى تشكيل هذا البُعد عنده ارتبطت عندها بشرعية العلاقة التى تربط بين الطبيعة وبينها ، فإذا ما فقدت هذه الوظيفة بفراقه الدنيوى عنها فقدتْ تفاعلها مع الطبيعة من حولها ، أو الدافع إلى تعاملها مع مايقع تحت بصرها من الأنوار والألوان وأفانين الجمال ، وفى هذا تقول :

« ... ويبدو لى الآن أننى أرتكب عملاً جائرا إذ أتبيّن أن السماء جميلة ، وأن الصخرة جميلة ، وأن أوراق الشجر جميلة .. إذ إننى لا أملك الحق فى ذلك مادمتُ لا أستطيع أبداً أن أقول ذلك لك » [٢] .

ولهذا ما أظننى مسرفا إذا زعمت أن طه حسين قد عُوِّض بعينى سوزانه فقد عينيه ، فكان له فى هذا العوض فيْض غير منقطع ، وقد عُوِّض بأنسها وحشة الحياة من حوله ، فكان له فى هذا العوض مدد لا يجدب به منتجع ، ولهذا أيضا ما أظن طه حسين مسرفا حين يصرح بأنه ماكان يعاوده الإحساس بالعاهة أو التفكير فيها ، ولا الإحساس بالوحشة أو التذكار لها إلا حين تفارقه فى سفرةٍ ، أو يسافر عنها فى عمل ، ويكتب لها مستغيثا :

« علينا ألا نكرر على الإطلاق هذا الفراق الحكيم الأحمق ، فبدونك أشعر أنى أعمى حقا ، أما و أنا معك ، فإننى أتوصل إلى الشعور بكل شىء ، وإلى أن أمتزج بكل الأشياء التى تحيط بى ... » [٣] .

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ص ٩٦ – ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٣ .

وفى رسالة أخرى يقول :

« ... لم يكن ممكنا لى أن أدخل غرفتك دون أن أضع يدى على صدرى بشكل غريزى ، كما لو كان قلبى سيفرّ منى .. فأنا لا أراك ، ولا أرى صورتك ، ولا أستطيع أن أكتب إليك بنفسى ... » [١] .

بل إنه فى سفرتها أو افتراقه عنها تكتنفه الظلمة الموحشة التى كان من قبل يجد لها صوتا يبلغ أذنيه ، صوتا متصلا يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلىء ، وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيها ، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغيِّر جلسته ، فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ، ويخفى رأسه بين يديه [٢] » ويتمنى لو كان معه فى الغرفة بعض المبصرين ؛ ليضاء المصباح ، ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكن ماكان يضطر إليه هناك وماكان يتمناه من وجود مبصر ليشعل المصباح له ، لن يكون وسائل كافية الآن لأن تخفف من شكوى أذنيه أو تحجّم روع قلبه ، فبعد أنْ طغت أقباس فجرها وإشراقات شمسها فى حياته على صوت هذه الظلمة – فهدهدت صداه ، ثم أفلّت أثره – وبعد أن تعالت تهاليل بشرها ، ومواويل أنسها فى أعماقه – فأنسته ماكان ، ودلّته على ماينبغى أن يكون – لا يمكن أن يكون لتلك الوسائل أثر فعّال ، أو أن يكون له فيها أمر ذو بال ، وإنما هى وحدها الوسائل بنورها ، وهى وحدها الأثر والمؤثِّر بأنسها ؛ من أجل ذلك لا يستعين إلا بها ؛ فإن كانت فبحضورها ، وإن غابت فبنورها ، ويرسل لها هذه المشاعر والحقائق بلا تحرج أو تحفظ فيقول :

« ... ثلاثة أشهر ، ثلاثة أشهر .. فترة رهيبة ، لقد استيقظت على ظلمة لا تطاق ، لا بد لى من أن أكتب لك ؛ لكى تتبدد هذه الظلمة ، أترين ؟ كيف إنك ضيائى حاضرة أو غائبة ؟ » [٣] .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٢) الأيام . طه حسين جـ ١ ص ١٩٦ .

(٣) معك ، سوزان طه حسين ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

البعد الثالث : قوة الدفع للعقل والقلب :

والبعد الثالث لهذه العلاقة فى حياة طه حسين لا يقل خطراً وأثراً عن سابقيْه ، فبعد أن أحب وملأ الحب كيانه ، وبعد أن أبصر – بعينيها – فزَخْرَفت الدنيا طيلسانه ، لم يتبق له ما يطلب ويأمل ، وإنما بقى عليه أن يعطى ويعمل ، ولابد أن يكون مصدر عطائه وقوة الدفع له فى عمله هو ذات المصدر الذى استقى منه الحب فأسقاه حتى سكر ، وطلب عنده الإبصار ، فأراه حتى بصير .

ولم يكن البحث عند طه حسين عن مصدر البعدين الأولين إلا بحثا عن وسائل مؤثرة ، ومستمرة ، فى عونه على تحقيق غايات مثيرة ثائرة ، ولم يدّخر مصدره – فى البعدين الأولين – جهدا فى تزويده وإشباعه ، ولم يدَّخر هو وسعاً فى استغلاله واستعجاله ، فلم يغفلا عن هذه الغايات يوما ، ولم يحفلا بأن يكون غيرها – عندهما – مشغلة وهماً ، منذ بدء هذه العلاقة ، وكذلك شأن النفوس الكبيرة لاتشغلها عذوبة النعومة المادية الرقراقة ، والمتع الحسية البراقة ، بقدر مايشغلها توظيف ما لكل ذلك من ماديات ، فى دفعه ثمنا لما يطمح إليه من غايات :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وفى هذا يقول طه حسين : « ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعوّد الفتيان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى ، من تلك الحياة الهائمة الناعمة التى تخلص من المشقة ، وتتخفف من الجهد ، وتفرغ لرضى النفوس ، وغبطة القلوب ، والذهاب مع الخيال الهائم فى كل مذهب . وإنما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمه ، فوقت الفتى فى فرنسا محدود ، وعليه واجبات يجب أن تؤدى ، وله مهمة يجب أن تتم ... وانظر إلى فتاة وفتى فى أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار فى درس اللاتينية حين يصبحان ، وفى قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى ، فإذا جاء وقت الغداء ألمّا بالمائدة فأصابا شيئا من طعام ، ثم أقبلا على تاريخ اليونان والرومان فقرآ منه ماشاء الله أن يقرآ . فإذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان إلى الأدب الفرنسى ، فقرآ منه ماشاء الله أن يقرآ كذلك ، لا ينصرفان

عن القراءة إلا ريثما يخرجان للتروُّض خارج القرية التى يعيشان فيها ، ينفقان فى تروضهما ذاك ساعة أو أقل من ساعة ، ثم يعودان إلى المائدة فيصيبان شيئا من طعام ، ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها ذلك الصوت العذب ، حتى إذا تقدم الليل شيئا تفرَّقَت الجماعة ، وأوى كل منها إلى غرفته ، وخلا صاحبنا إلى نفسه يذكر ماضيه الغريب ، وينعم بحاضره السعيد ، ويفكر فى مستقبله المجهول ... فإذا أسفر له الصبح استقبل يومه آخذا فى الدرس كما فعل من أمس .. » (١) .

وما هكذا تكون أيام الخطبة ، أو فترة تأجج الحب إلا عند من يتخذون الحب وسائل لتحقيق غاية هى أعظم ما يحتسبه المتحابان تاجاً يتلألأ فوق مفرق هذا الحب ، ومهراً يدفعه كل منهما بدوره إلى قسيم الحياة ونبض القلب ، وقد ارتضيا ذلك فى إصرار ، وأقدما عليه إقدام النفوس الكبار ، وهذا مايصرِّح به طه حسين أيضا فيقول :

« ولم ينس الفتى قط ، ولم تنس صاحبته أنهما كانا يخرجان بين حين وحين فى أيام الآحاد ، من باريس ، يطلبان النزهة والتروض ، فلم يخرجا قط وحدهما ، وإنما صحبهما دائما كتاب من هذه الكتب الثقال ، التى ترهق القارئين فيها من أمرهم عسرا ، والذين يعرفون كتب أوجست كونت ، ويقدِّرون مافيها من العسر الذى يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها ، يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك ، من الغابات التى تحيط بباريس ، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ، ويأخذان فى هذه القراءة الشاقة المرهقة التى لم يكن بينها وبين ماكان يملأ قلبيهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد ... » (٢) .

ولم يكن هذا الأمر الشاغل وتلك الغاية المتحدية مصرفيهما عن التنعُّم بنعومة أيام الخطبة وأوائل أيام الحب فقط ، بل صرفاهما أيضا عن التريُّث لقضاء شهر عسل كما يقال ، أو التقاط الأنفاس بعد أن تحقق أمل الوصال ، فما أن أصبحا زوجين فى منتصف نهار اليوم التاسع من أغسطس من نفس العام ، لم يفرغا لحياتهما الجديدة

---

(١) راجع الأيام ، حـ ٣ ص ، ٥٩٨ - ٦٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٠٤ .

« وإنما استقرا فى مدينة هادئة فى مدن الجنوب ، وأقبلا – فور استقرارهما – على ما لم يكن بد من الإقبال عليه ، وهو الاستعداد للامتحان الذى يجب أن يُؤدَّى بعد شهرين ... وهما مع ذلك يقبلان على هذه المحنة الثقيلة لا يضيقان بها ، ولا ينفران منها ، وإنما يصبحان فى التاريخ ، ويمسيان فى الجغرافيا ، ويلمَّان بالانجليزية بين ذلك ... » [١] ، وظل طه حسين يلهج لسانه بفضلها عليه ، ومساعدتها له ، ومن ذلك قوله : « ... كانت صديقتى ، وأستاذا لى ، عليها تعلمتُ الفرنسية ، وفقهت ما أستطيع أن أفقه من أدبها ، وعليها تعلمت اللاتينية ، واستطعت أن أجوز فيها امتحان الليسانس ، ومعها درست اليونانية ، واستطعنا أن نقرأ معا بعض آثار أفلاطون ، على أنى قضيت من عام ١٩١٦ أشهراً ليس بينى وبين صديقتى إلا مايكون بين المعلم والمتعلم ، وبين الصديق والصديق ، ثم لم يلبث الحب أن اتخذ سبيله إلى نفسى ... » [٢] .

ولم تكن قوة هذه العلاقة – فى تشكيل هذا البعد فى حياة طه حسين – حبيسة العطاء فى إيثار – شريكة حياته هذه – تلبية حاجة عقله بالانشغال بالدراسة ، على الاستجابة لنداء قلبها للاستمتاع بفترة الخطبة ، والاسترخاء فى بداية الحياة الزوجية ، وإنما اكتملت عناصر هذه القوة فى انطلاقها الممتد إلى ماهو أبعد من ذلك أثراً ، وأقدر من ذلك عمقا ، فإذا هى تصبح له قوة الحياة التى تدفع عنه خطر المهالك ، وقوة التوازن التى تجنبه ضرر الانهيار ، وقوة الحلم التى تهدهد فى داخله سورة الغضب ، وقوة الأمل التى يهزم بها شطط اليأس ، وقوة الصبر والاعتدال التى تجنبه خطل الحمق وخطر التطرف ، وكان هذا أمرها منذ ذلك الحين ، وامتد ذاك الأثر فى حياته فى مختلف المراحل : وهو طالب يدرس ، ثم وهو معلم يُعلِّم ، ثم وهو أستاذ جامعى ، ثم وهو كاتب صاحب قلم أو وباحث صاحب منهج .

وإذا استرشدنا بالموقف الفرد فى كل حالة ، واكتفينا بالإشارة الدالة إلى ذلك الأثر فى كل مرحلة ، لتأكد لنا صدق هذا الزعم ، وسرّ تلك القوة : قوة الدفع للعقل والقلب .

---

(١) مع طه حسين ، سامى الليالى ، سلسلة اقرأ جـ ١ ، ص ٢٩ .

(٢) الأيام ، جـ ٣ ، ص ٦١٤ .

فما ظننا بطه حسين أن يكون مصيره مجرداً من هذه القوة ، حين جلس بين يدى أستاذ الجغرافيا « ريمون » ليمتحنه فى هذه المادة ، « وكان قد قدَّر فى نفسه أن الأستاذ الذى سيمتحنه لن يراه مقبلا عليه حتى يرفق به ، ويعرف أن مثله لا ينبغى أن يُسأل إلا فيما يفهمه العقل وتحفظه الذاكرة ، دون أن يحتاج إلى الإبصار ، يسأله فى الجغرافيا السياسية أو الاقتصادية أو البشرية ، ولا يسأله فى الجغرافيا الطبيعية مثلا ... » [فإذا بسؤال الأستاذ يأتى عكس ما توقع طه] ، وإذا بالممتحِن يظهر بعكس ما ظنه طه ، إذ يسأله « مسيو حسين ، صف لى مجرى نهر الرون .. ويسمع الفتى السؤال فيسرع إليه الوجوم ، ولكن العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميعا وإذا هو يرفض الإجابة على هذا السؤال فى صوت لا تردد فيه ولا اضطراب ... وانصرف صاحبنا محزونا مدحوراً ، مستيقنا أنه أخفق فى الامتحان ، وأن نجحه فى أول الصيف قد ذهب هباء ، مشفقا فى الوقت نفسه على صاحبته من هذا الحزن الذى سيسعى إليها من غير شك ، ولكن صاحبته تخرج به من هذه الغرفة ، مترفقة به ، قائلة له فى ابتسامة عذبة :

وما رأيك فى فنجان من القهوة تتهيأ به للقاء أستاذ الفلسفة ؟

قال : وفيم لقاء هذا الأستاذ وقد ذهب الامتحان كله هباء ؟

قالت متضاحكة : لا عليك ، فقد كان هذا الممتحن غليظ الطبع قليل الذوق .. ومازالت به حتى سقته القهوة ، ثم عادت به إلى السربون ، فلقى أستاذ الفلسفة ... وراحا إلى بيتهما وهو يُضْمِر اليأس ويظهره ، وهى تظهر الأمل ، والله يعلم ماكانت تضمره ... ولم تتحدث إليه صاحبته فى أمر هذا الامتحان ، وإنما جعلت تتحدث إليه فى أشياء كثيرة ، ليس بينها وبين السربون وعنائها صلة ، ثم تُقْبِل عليه ذات يوم ، فلا تكلمه ولا تلقى إليه تحيتها ، وإنما تقبِّله ثم تهمس فى أذنه : لقد نجحت ... » [1] .

أقول ما ظننا بطه حسين بعد موقف أستاذه – الممتحِن – منه ، وموقفه هو من أستاذه الممتحن ، لولا قوة دفعها بالإعلان عن حزنها ؛ لتكون أقوى فى دفع القنوط عن

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٦١٧ - ٦١٩ .

نفسه ، وقوة دفعها فى إخراجه من يأسه ؛ ليكون أقدر على الاستمرار فى أداء امتحان الفلسفة ، وقوة دفعها فى التسرية عنه ، لا عن طريق تهوين الأمر أو مشاركته الضيق والحزن ، وإنما عن طريق نسيان الأمر ، وشغل سمعه بما تُسْمِعه ، وبصره بما تُريه ، وفكره بما تُثيره لديه بأشياء لا صلة لها بالسربون ، ولا بالجغرافيا ، ولا بأستاذها ، والله أعلم ماذا صنعت غير ذلك دون علم طه حسين بذلك – من اعتراض أو التماس – مما جعل الأستاذ الممتحن لم يمنحه درجة الصفر الذى يستحقه ، وإنما منحه درجتين اثنتين ؛ ليعصمه من الإخفاق إنْ أتيح له النجح فى غير الجغرافيا من مواد الامتحان ... وبهذا خلص الفتى من مشكلات الليسانس ، ولها فى ذلك كل الفضل ؛ لأنها كانت مرسى النجاة وقوة الدفع .

وإذا اكتفينا بهذا الموقف للدلالة على أنها قوة دفع فى مرحلته الدراسية ، فما ظننا به أن يكون مصيره بدون هذه القوة فى بداية مرحلته التدريسية ، « وكان تاريخ اليونان هو الموضوع الذى اختاره صاحبنا لدروسه هذا العام ، ولا سبيل إلى الأخذ فى درس التاريخ إلا إذا قُدِّم بين يديه وصف جغرافى للبلاد التى يدرس تاريخها ، فكان على صاحبنا أن يعرض الوصف الجغرافى لبلاد اليونان » . يكمل طه حسين هذا الموقف فيقول :

أرادت زوجه أن تفهمه الوصف الجغرافى لبلاد اليونان ، فأخذت قطعة من الورق ، صاغتها فى شكلها على نحو ماصاغت الطبيعة تلك البلاد ، ثم أرادت أن تُصوِّر مافى هذه البلاد من الجبل والسهل الذى يضيق حينا ويتسع حينا ، ومن البحار التى تأخذها من أكثر جهاتها ، فصورت ذلك بارزا فى هذه القطعة من الورق ، ثم أخذت يد الفتى ، وجعلت تُمِرّها على هذه الورقة بعد أن افترضت معه أنها تبدأ من الجنوب وتمضى إلى الشمال ، وتنحرف مرة إلى الشرق ومرة إلى الغرب ، لتبين له مواقع البحر ، ولتبين له الأماكن التى تضيق حينا ، وتتسع حينا ، والتى كانت تقوم فيها المدن القديمة ، ومازالت به حتى فهم ذلك حق الفهم ، وأعاده عليها فاطمأنت إليه » [١] .

نعم سمع لزوجه وأطاع ، فعرض هذا الوصف ، فملك قلوب الذين استمعوا له ،

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦٣ – ٦٦٤ .

وملأ نفوسهم رضا عنه وإعجابا به ، وأشبعه سادة القوم - بَلْهَ طلاب الدرس - ثناء وتقريظا ، وانتقل أمر هذا الإعجاب ليس فقط إلى من لم يسمع من الناس ، بل وإلى مولى الناس فى هذه الأرض فطلب لقاءه ، ولها فى ذلك كل الفضل ؛ لأنها مرسى النجاة وقوة الدفع .

وماظننا بطه حسين أن يكون مصيره بدون هذه القوة حين تعقدت الأمور بينه وبين الجامعة ؟! إذ طلب منها أن تزيد فى مرتبه مايعينه على أجر رفيق يقرأ له أكثر النهار ، ويغدو معه ويروح كلما أراد غدوًّا أو رواحا ، وأبت عليه الجامعة ما طلب ، كأنها ضاقت بكثرة مطالبه ، فاستقال فى لهجة شديدة ، غضب لها مجلس إدارة الجامعة أشد الغضب ، وأزمع المجلس أن يقبل استقالته ، وأن يطالبه بِردِّ ما أنفقت عليه الجامعة أثناء إقامته فى فرنسا ، « فلما قصَّ الأمر على زوجه ، هوّنت عليه الصعب ، ويسرت عليه العسير ، وأقنعته بأنه كغيره من الناس ، يخطىء ويصيب ، وبأنه أخطأ حين أسرع إلى الاستقالة ، والرجوع إلى الصواب خير من الإصرار على الخطأ ، وأسرف حين أساء إلى الجامعة التى أحسنت إليه ، والرجوع إلى القصد خير من التمادى فى الإسراف ، فليس عليه بأس أن يسترد استقالته ، وليس عليه بأس أن يعتذر من لهجته تلك القاسية . وأصبح صاحبنا فاسترد استقالته راغما ، واعتذر إلى الجامعة راغما أيضا » (١) .

نعم اقنعته بأنه أخطأ فاقتنع ، وأقنعته بالرجوع إلى الصواب فرجع ، وأقنعته بالاعتذار فاعتذر ، وأقنعته بسحب الاستقالة فاستمر أستاذاً فعميدا فوزيراً لأنها مرسى النجاة وقوة الدفع .

ألا تكفى هذه المواقف الثلاثة لاستنباط مدى استظلال هذا البعد الثالث فى حياة طه حسين بظلها ، وأثرها اليقين فى تشكيلها هذا البعد ، من حيث أنها عاشت قوة دفع لعقله أن يمتلىء بالمعرفة ، ولخبرته أن تعمق بالتجربة ، ولعسره أن يستنسم إقبال اليسر ، ولتوتره أن يتندى باتزان الصبر ، ولغضبه أن يتدثر بدثار الحلم ، وليأسه أن يذهب بذهاب الهمّ ، ولقلبه أن يتروى من موارد الحكمة ، ولتطرفه أن يرجع عن الشطط ومايخلف من أثَرة أو مظلمة !!!

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧١ - ٦٧٢ .

ولكن طه حسين – رحمه الله – لم يترك هذا البعد رهين الاستنباط ، وإنما أقام الدليل عليه بالشهادة له ، والاعتراف به ، فى وثائقه الخاصة التى بين يديها ، وهى تلك الرسائل المتفرقات على مدى حياتهما ، يرسلها إليها حين تفرقهما الأسفار اضطرارا لكليهما :

ألم يشهد بأنها مصدر إلهام ! إن قُربتْ أعطى وأفاض ، وإن بعُدت أقفر ونضب ، فعطاؤه ثمار تشجيعها ، ونضوبه لعنة رحيلها ، سواء كان القرب والبعد بحقيقتيهما المادية بأن تكون فى صحبته أو يكون فى وحدته ، أو كانا بمجازيتهما التعويضية بأن تصحبه رسالة منها ، أو تعوزه الوسيلة إليها ... وإن لم يكن قد قصد هذه الشهادة قصداً ، فماذا كان يقصد – إذن – بقوله فى رسالة إليها :

« ما أغرب الأمر ، كنت أظن أننى سأتعزى فى غيابك بإنتاج غزير ، ولكنّى لا أنتج شيئا ، أوحِى لى ياملهمتى ، قولى إنه يجب أن أكتب الكتاب الشهير ، وأن أتم ترجمتى ، وأن أعمل فى كتاب السيد رينان ، وأن أكتب المقالات ، كل ذلك ضرورى ، لكنى بدون تشجيعك لن أحقق منه شيئا ، فأنت تمنحينى كل شيء ، كل شيء ، أتسمعين ! كل شيء بدون استثناء ، لقد رحلتِ فلحق بك ذكائى ، كل قلبى ، كل نفسى ، كل شيء فى هذه الرسالة ، ماذا أقول ؟ أوَ لم تحملى كل ذلك معك !؟ » [(١)] .

فإذا ما التمس الوسائل لحضورها فى غيبتها فيلُهَم ، ومصاحبتها فى بعدها فيُعطِى ، يبحث عن مفتاح صندوق رسائلها ، فيستقرئها ، فإذا به ينشط إلى الكتابة ، ويبدع فيما يكتب ، ويفتن فيما يسترسل ، ويسجل هذا لها تجديداً للشهادة لها ، وإحقاقا لحقها ، فيقول :

« ... وهاهى رسائلك ، رسائلك التى تشفى ، فقد شفيت ، وأرسلت أخيراً مقالى ، إنه أفضل مقال كتبته ، منذ رحيلك ، حول طبيعة المعارضة ، ففيه من الفلسفة ، ومن علم الاجتماع ، ومن السياسة ، ومن الهزل ، ومن السخرية ، كل ذلك مجتمعا ، ألم أقل لك إننى لا أساوى شيئا بدونك » [(٢)] .

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ص ٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ .

و أو لم يشهد بأنها مصدر تشجيع يستمد منه القوة ؟ ومصدر نصح يتشرب منه الحكمة ؟ فعمله ثمار تشجيعها ، وصوابه ثمار نصحها ، وإن لم يكن قد قصد هذه الشهادة قصدا ، فماذا كان يقصد بقوله فى رسالة إليها : « ... لنقل إننى فى القاهرة فى سبيل حماقة ما ، إنى فى طريقى لتبديد ثلاثة أشهر من عمرى [١] ، ... هل أعمل ؟ ولكن كيف أعمل بدون صوتك الذى يشجعنى ، وينصحنى ، بدون حضورك الذى يقوينى ... » [٢] .

فإذا ما رُشِّح لتولى منصب إدارة مكتب الترجمة والنشر العلمى بالوزارة ، واستتبع ذلك مقابلة رئيس الوزراء له ، وإدارة حوار طويل معه ، والثناء على إسهامه ، وترقبه تحقيق كثير من التقدم الثقافى والأخلاقى لمصر على يديه ، يعود إلى البيت ويذهب مباشرة إلى صورتها ، ويركع أمامها ، ويقص عليها الأمر بصوت عال ، وبالتفصيل ، ويكتب إليها قائلا :

« ... إن مايعذبنى هو أننى سأبدأ عملى قبل أن تكونى هنا ، ولقد تمنيت أن أحكى لك عن بداياتى فى الوزارة ، وعن انطباعاتى ، وأن أستمع إلى نصائحك ... » [٣] .

و أو لم يشهد بأنها مصدر اعتداله وتخليه عن تطرفه ؟ فإذا ماثار أو أثير ؛ فاحتدم غضبه ، كبحت جماح هذا الغضب ، وخففت من حدته ، وإذا ماأغار أو أغير عليه ؛ فاضطرم عنفه ، هدهدت شطط هذا العنف ، وردته إلى طيبته ، فإذا به من أثر ذلك قد تبدل طبعا بطبع ، وتغير مسلكا بمسلك ، وإن لم يكن قد قصد هذه الشهادة قصدا ، فماذا كان يقصد بقوله فى رسالة إليها :

« ... سأطيعك ، وسأكون نزيها فى مقالاتى ، ولن أسبِّب لك العذاب ياملاكى ، اطمئنى ، ومادمت إلى جانبى ، فلن أغدو شريرا ، لكننى سأكون مجادلا عنيفا فى المساجلات ... » [٤] .

---

(١) هى الأشهر المحددة لغيبتها فى رحلته إلى فرنسا بصحبة ولديها للتطبيب .

(٢) معك ، ص ٣٦ واقرأ كذلك المصدر نفسه ص ٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٦ .

وإذا ما اضطر لأن يعود إلى العنف ، ويمتطى صهوة الشطط بكتابة مقال لاذع ، سرعان ما يعتذر إليها ، ويردّ ماكان منه إلى البعد عنها فيقول :

« ... لا أحب أن أكون قاسيا ، وعندما اضطررت لأن أكون كذلك ، على الرغم منى ، فقد كنت بحاجة لأن ألين نفسى ، ولو أنك كنت إلى قربى ، إذن لوضعتُ رأسى على كتفيك ... » (١) .

نعم ، لقد شهد بكل ذلك ، بل إنه ردّ إليها كل فضل كان له ، وربط بها كل نجح تفوق به ، فهى معلّمه الحق ، فله أن يوفيها التبجيل والإجلال ، وله أن يعلن أنه – بما فعلت له ، وفعلت به – ليس وحده المدين لها ، وإنما مصر كلها ، وها هو يقص عليها فى إحدى رسائله زيارة هذه الشخصية الشهيرة الساحرة المؤثرة له ، وهو عبد العزيز فهمى فيقول فيما قال :

« ... يدخل ، ويأخذنى بين ذراعيه ، ويأخذ فى معانقتى بعنف تقريبا ، ويسأل عن أخبارِك لا بلطف ، وإنما بحنان ... وأظن أنه يحبنى ، فأنا فى نظره عالم مصر ، « إن مصر مدينة لك وأنت معلمى ... » (٢) .

ومادامت هى كل ذلك ، وعلاقتها به هى السر فى أن يكون كذلك ، فما وجه العجب فى أن يهتف فى كل مكان ، وفى كل لحظة من الزمان :

سوزان ، لنتابع المسير ، أعطنى يدك ...

وحتى فى الليلة الأخيرة من حياته يطلب منها : أعطنى يدك .. استغاثة رائعة ، ولكنها لم تذهب معه .

* * *

---

(١) معك ، سوزان طه حسين ، ص ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٦ .

قرض الشعر في جهاد طه حسين
اقتحاما وانقطاعا

انشغل الدارسون ، أو شغل طه حسين الدارسين ، بآرائه ناقداً ، وبعطائه مترجما ، وبإبداعه قاصًّا ، وبمنهجه باحثا ، وبطريقته كاتبا ، كما انشغلوا إلى جانب ذلك كله ، أو شغلهم ، بأشياء أخرى كثيرة متصلة باتجاهاته سياسيا ، وبصراعاته عميدا ، وبخدماته وزيراً ، وبإسهاماته جامعيا ومجمعيا ، ولكنهم لم ينشغلوا بطه حسين شاعراً .

وإن كنتُ مسبوقاً إلى الحديث عن هذا الجانب من جوانب مآثر طه حسين الأدبية ، بدراسة محمد سيّد كيلانى « طه حسين الشاعر الكاتب [1] » ، غير أنى ، لا أقصد إلى عرض هذا الجانب كما قصد ، بقدر ما أستهدف ربط هذا الجانب بمكوِّنات هذه الشخصية ، والمؤثرات فى تشكيلها ، أو قُل محاولة إقامة العلاقة فى هذا الجانب بين المنتج وما أنتج فى ضوء دوافعه إلى الإقبال على علاجه ، وموانعه من الثبات له ، وبه ، على امتداد حياته .

والأرجح عندى أنّ صلة طه حسين بالشعر وثيقة الارتباط بصلته بعاهته ، أو لنقل وثيقة الارتباط بصراعه مع عاهته ، وكانت هذه الصلة – أو ذاك الصراع – وسيلته إلى التكيُّف معها ، وطريقه للتكيف بها مع الحياة وفى الحياة ، ولذلك بدأت هذه الصلة بينهما منذ أن كان طفلا مثقل النفس بأعباء هذه الداهمة ، وما يستتبعها من تبعات ما تفتأ تثقل كاهله ، كان أوائلها أن حرّم على نفسه – بسببها – من ألوان اللعب والعبث كل شىء ، إلا ما لا يكلّفه عناء ، ولا يعرّضه للضحك أو الإشفاق .. [2] وانصرافه هذا عن العبث

---

(١) كانت الطبعة الأولى لهذه الدراسة سنة ١٩٦٣ م ، نشرتها الدار القومية للطباعة بالقاهرة .

(٢) راجع الأيام ، طه حسين ، حـ ١ ، ص ٢٦ .

حبّب إليه لونا من ألوان اللهو هو الاستماع ، وكان أحب شيء إليه أن يسمع إنشاد الشاعر وهو ينشد الناس أخبار الهلاليين والزناتيين ، وأناشيد الصوفية ، وكذلك أن يسمع تعديد المحزونات ، وأغانى الفرحات ... فحفظ من ذلك جملة صالحة ، كانت كل وحدة منها انعكاساً للنفوس فى موقفها ، وإثارة للشعور فى مضمونها ، وتوثيقا لنفسية هذا الصبى بالكلمة المنغومة ، والجملة الموزونة .

نعم ، كانت هذه البداية – لتبعات عاهته بالنسبة له – هى البداية الحقة لصلته الوثيقة بدنيا الشعر ، استجماعاً له ، وتخزينا لنماذجه ، وفهما لدوره ، ووعيا بدوافعه ، أو قل هى البداية الحقيقة لصلة الشعر به : تأسّيا له ، وتفتيقا لمواهبه ، وتأثيراً فيه ، وتغذية لأدواته ووسائله .

وكانت هذه البداية للصلة بينهما بداية طبيعية لصبىّ حبيس الظلمة ، وضاح الطُلُعَة ، يريد أن يلهو كما يلهو الأتراب ، ولكنه يفتقد المصدر الحسىّ المعين لهم فى لهوهم ، والدافع بهم إلى عبثهم ، وهو الإبصار لما يجذبهم إلى اللهو به ، والحركة الحرة ، والتواثب المنطلق إلى ما يتجهون إليه ، ولكى يتخذ هذا الصغير لنفسه من ذلك كله مخرجا كان عليه أن يتدبّر لنفسه من ألوان اللهو مالا يعتمد على هذا المصدر ، ولم يكن هناك من المصادر الحسية – عنده وعند نظرائه ممن ابتلوا بهذه العاهة – مصدر أدقّ رصداً ، وأقدر إحاطة ، وأوسع مدى ، وأولى عوضا من مصدر السمع ، حتى إنه أصبح بإمكانيات هذا المصدر ليسمع صوت الظلمة كما يسمع أصوات الحشرات ، ويسمع صوت السكون كما يسمع ما فى أعماقه من أنات ، وحتى إنّ كل مشهد يُرى بالبصر أصبح عنده مكونات تتحول بقدرة هذا المصدر إلى ذبذبات مسموعة ، وحركات مرصودة ، أو لنقل إن أهم ما فى أىّ مشهد بالنسبة للمتلقى الرائى تحول عند طه حسين بامكانيات مصدر السمع عنده إلى أصوات ، ومسموعات ، ولنكتف فى الاستشهاد على هذه الظاهرة عنده بمشهد واحد من تلك المشاهد التى أرانا إياه بمصدر الرؤية عنده ، وكان هذا المشهد هو مشهد إعداد الشاى بعد تناول وجبة الإفطار ، وتلهف المفطرين إلى احتسائه بلا تهاون ، أو إغفال ، يقول :

« ... وأخذ الشبان يتحدثون حديثا هادئا فاترا ، يضطرهم إلى هدوئه وفتوره

اشتغال بطونهم بما أبقوا فيها من الجامد والسائل ، ومن البارد والحار ، ولكن ماذا ؟ لقد خفتت الأصوات ثم سكتت ، ثم ملأ الغرفة صمت رهيب ، ثم تردد فيها صوت ضئيل جدا ، نحيل جدا ، متقطع أول الأمر ، متصل بعد ذلك ، وإذا هؤلاء الشبان قد تحركوا حركة الطرب ، ثم انفتحت أفواههم فى وقت واحد عن كلمة يقولونها فى صوت هادىء متصل مستقر ، وهى « الله » يمدون بها أصواتهم مداً ، كأنما أشاعت الطرب فى نفوسهم موسيقى حلوة تأتيهم من بعيد ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد سمعوا أزيز الماء وهو يدور من حول هذا الموقد ، الذى تضطرم فيه تلك الجذوة الهادئة الصافية ، وقد فزع لأداة الشاى صاحب الشاى ، فجعل يتبعها بقلبه وعينه وأذنه ، حتى إذا استحال أزيز الماء غليانا أخذ هو إبريقا من الخزف ، فقرّبه من هذه الأداة ، وأدار مفتاحها فى رفق ، فجرى فى الإبريق بعض هذا الماء الذى يغلى ويضطرب ، ثم أدار المفتاح فانقطع جريان الماء ، ثم ردّ على الإبريق غطاءه ، ثم هزّه هزّاً رفيقا ليبلغ مافيه من الماء السخن أجزاءه كلها ، ثم قام فألقى ما فى الإبريق بعد تدفئته ، ثم انتظر بهذا الشاى ثوان ، ثم صبّ عليه الماء فى رفق دون أن يملأ الإبريق إلى غايته ... فإذا ملئت الأكواب ، وأديرت فيها الملاعق الصغار ، فسُمع لها صوت منسجم لا يخلو من جمال حسن الموقع فى الأذن ، يأتى من هذه المداعبة الخفيفة الهادئة بين المعدن والزجاج — رفع القوم أكوابهم إلى أفواههم ، فجرّوا الشاى منها بشفاههم جرًّا طويلا يسمع له صوت منكر ، يناقض صوت الملاعق حين كانت تداعب الأكواب ، ومضوا فى شربهم لا يكادون ينطقون إلا بهذه الجملة التى لم تتغير ، ولم يكن بد من أن ينطق أحدهم بها ، ويقرّه عليها الآخرون : « هذا هو الذى سيطفىء نار الفول » ، فإذا فرغوا من هذه الدورة الأولى مُلئت لهم الأكواب مرة أخرى ، وقد أعيد إلى أداة الشاى مافقدت من ماء ، ولكن القوم ينصرفون الآن إلى شايهم عن هذا الماء المسكين الذى ترسل النار عليه حرارتها فيئنّ ، ثم يتغنىّ شاكيا ، ثم يجهش بالغليان باكيا ... » [1] .

فأى شىء من مرئيات هذه الجلسة لم ينضبط بإيقاعات هذا المصدر ؟ ولم يلن عصيّة لفراسته ودقته ، فهؤلاء الجالسون يعدّ — طه حسين — عليهم أنفاسهم ، ويرتّب طبقات أصواتهم

---

(١) الأيام ، جـ ٢ ، ص ١٨١ وما بعدها .

ويسترقّ السمع لموسيقى أعماقهم ، وهذه أدوات الشاى يحوّل جمودها حركة ، وصمتها تعبيرا ، ومكوناتها أصداء لا يغفل سمعه عن تجسيدها وتسجيلها : من جريان الماء أو انقطاعه ، وأزيز الغليان أو اضطرابه ، وامتلاء الأكواب وإفراغها ، وإدارة الملاعق ومداعبتها بين المعدن والزجاج ، وضوضائها ، وليس هذا فحسب بل إن الشاى شاك جهشٌ بفعل النار المرسلة إليه حرارتها ، وشكواه عنده غناء ، وجهشانه بكاء ، وكأنما يأبى طه حسين أو يأبى هذا المصدر عند طه حسين إلا أنه يتحول كل شيء إلى أن يكون ذا صدى رجراج ، إذ لا بحر يراه بسمعه بلا أمواج .

وإذا ماكان السمع عند طه حسين من أهم المصادر الحسية التى عوّض بها فقْد البصر ، ورأى بها لون الظلمة وأعماق الحجر ، وزهزهة النور ، وأصداء الخطر ، فإن أرقى ما نفذ إلى هذا المصدر فاستراح له واطمأنّ به هو ذلك الذى كان يسمع من إنشاد وأوراد ، فيحفظها عن ظهر قلب ، ويتمثّل معانيها ، ويستدعيها ، يتّخذ منها موارده التى يردها كلما أعوزه الرّىّ ، أو اضطربت خطاه بين جنبات الدرب . ووفرة المخزون من الشعر ومداومة الحفظ له يطلق اللسان به رواية واستشهاداً ، أو ترجمة عما فى النفس وإنشاءً .

وطه حسين فى هذا الأمر ليس نسيجا وحده ، وإنما كان منضبطا بما انضبط به غيره من أولئك الذين داهمتهم هذه الداهمة . فكانوا يتّخذون السمع وعاء لكل ما يدور حولهم ، ويجعلون موسيقى الكلام سقاء لكل موقف يمر بهم ، « ولأمر ماسُمِّى الأعش بصناجة العرب فهو – كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس – مع اشتراكه فى الأمية كجمهور الناس فى بيئته ، قد عوّض عن فقد البصر بسمع مرهف ، وأذن أكثر حساسية ، جعلته يتجه بكل قلبه ونفسه نحو هذه الموسيقية اللفظية ، ويوغل فيها حتى تميّز شعره بصلاحيته للغناء أكثر من غيره ، ولأمر ماكان أبو العلاء أول شاعر عربى لفت نظرنا إلى ما سماه باللزوميات ، فقد قضى أبو العلاء كل حياته يسمع ولا يكتب ، وأرهفت أذنه وسمعه بعد ذلك المران الطويل » [1] .

---

(١) دلالة الألفاظ . د. إبراهيم أنيس ط ٢ ، ص ١٩٨ .

ولم يطل الزمان بطه حسين للّجوء إلى هذا المخزون مما حفظ من الشعر ، وللاستسقاء بما ادّخر من الكلام المنغوم فى أسفار فنون القول ، إذ توفى أخوه الشاب يوم الخميس الحادى والعشرين من أغسطس ١٩٠٢ م ، ولم يتجاوز الصبى طه حسين ثلاثة عشر عاما من عمره ، فعرف الصبى من يومها أرق الليل ، ووخز الحزن ، فدفعه ذلك إلى أن يقول شعراً أشبه بهذا الشعر الذى كان يسمع ويحفظ ، يدندن همّه على أنّات نايه ، ويدغدغ بالإفصاح – عن طريقه – مواجع أحزانه ، وفى هذا يقول :

« ... فكم أنفق سواد الليل كاملا يفكر فى أخيه ، أو يقرأ سورة الإخلاص آلاف المرات ، ثم يهب ذلك كله لأخيه ، أو ينظم شعراً على نحو هذا الشعر الذى كان يقرؤه فى كتب القصص ، يذكر فيه حزنه وألمَه لفقد أخيه ، معنيّا بألا يفرغ من قصيدة حتى يصلى فى آخرها على النبى ، واهبا ثواب هذه الصلاة لأخيه .. » [(١)] .

ومن هذا المنطلق لبداية صلة طه حسين بالشعر ، والتعبير بأدواته عن همومه وأحزانه ، أخذت هذه الصلة تمتد على مدى مايزيد على عقد من الزمان ، وتشتد باشتداد عوده – فى علاجه – من أثر الدرس ، واقتحام الميدان ، وبتزايد مدى تجربته فيه بين يدى أستاذه المرصفى ، والتنافس فى مجاله مع أقرانه ، وبتعدد مرات ما أتيح له فى نشره ، وبتوافر المواقف التى تدفعه دفعاً إلى الإفصاح عن نفسه وقضايا عصره .

وكان شعر طه حسين فى بداية أمره – كنثره – متطرفاً خارجاً عن طور الاعتدال والقصد ، حتى إن من شِعره ماكان طه حسين نفسه لا يجرؤ أن ينسبه إلى نفسه ، وإنما كان يزعم أنه تلقاه بالبريد ، ويذيعه فيمن حوله ليكونوا رواة له ، ومروِّجين لرفثه ، ولذلك لم يحاول أن يحافظ عليه أو يحتفظ به ، فلم يتبق من هذا الشعر إلا ما أباح لنفسه رصده فى سجلّ أيامه قائلا :

« ... وفى ذات يوم أقام الشيخ رشيد رضا وأصحابه حفلا بهذه المدرسة [(٢)] ،

---

(١) الأيام ، حـ ١ ، ص ١٣٣ .

(٢) يقصد مدرسة الدعوة والإرشاد التى أنشأها الشيخ رشيد رضا ، لتعدّ طلابها من الأزهريين لدعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، ولإرشاد المسلمين إلى دينهم الصحيح المبرأ من أوهام القرون وأباطيلها . الأيام حـ ٣ ص ٤٠٠ .

واجتمعوا حول مائدة العشاء فى فندق من فنادق القاهرة ، يقال له فندق « سافواى » ، ونشرت بعض الصحف أنباء زعمت فيها أن أكواب الشمبانيا أديرت حول هذه المائدة ، وكان جماعة من شيوخ الأزهر يتقدَّمهم شيخهم الأكبر ، قد شهدوا هذا العشاء ، ورأوا ما أدير فيه من الأكواب ، فلم ينكروا بالعمل ولا بالقول ، هنالك ثارت ثائرة المخلصين للأزهر ، فلهجوا بالشيوخ ، وقالوا فيهم فأكثروا القول ، ودافع المدافعون عن الشيوخ بأنَّ زجاجات فتحت فى ذلك العشاء ، وكان لفتحها فرقعة ، ولكنها لم تكن زجاجات الشمبانيا ، وإنما كانت زجاجات الكازوزة ، ولكن خصوم الشيوخ من أبناء الأزهر لم يقبلوا هذا الدفاع ، ولم يصدِّقوه ، وإنما مضوا يلهجون ويقولون فى الشيوخ فيكثرون القول ، وكان صاحبنا الفتى أطولهم لسانا ، وأجرأهم قلما ، وأجرحهم لفظا ، عاب الشيوخ شعراً ونثراً ، ونشر عبد العزيز جاويش له ذلك فى صحيفة « العلم » ، فرضى المجددون وأغرقوا فى الرضى ، وسخط المحافظون وأسرفوا فى السخط ، وتناقل أولئك وهؤلاء هذه الأبيات الثلاثة من شعر الفتى ، الذى لم ينسبه إلى نفسه ، وإنما زعم أنه تلقَّاه فى البريد :

رَعَى اللهُ المشايخَ إذ تَوَافَوْا ... إلى سافوايَ فى يومِ الخميسِ
وإذ شَهِدُوا كؤوس الخمر صِرْفا ... تدورُ بها السقاةُ على الجلوسِ
رئيسَ المسلمين عَدَاك ذَمٌّ ... أَلَا للهِ درُّك من رئيسِ [(١)]

... ومهما كان أمر هذا الشعر الذى قاله طه حسين ، والذى لم يحفظه أو يحاول الاحتفاظ به ، ولم ينسبه إلى نفسه أو يرغب فى الانتساب إليه ، فإنه لن يخرج من نطاق أن يكون أثراً من آثار ما استظهر من جيِّد النصوص ، وهو المعروف بقوة الحافظة وعمق الذاكرة ، ونضحاً من عيون الأدب القديم المدروس ، وهو الشغوف بمحتوى ديوان الحماسة لأبى تمام ، وكتاب الكامل للمبرد ، وشِعْر الأمالى لأبى على القالى ، وغيرها مما درسه على يد الشيخ سيد على المرصفىّ ، أو قرأه عليه صديقاه الزيات والزناتىّ [(٢)] .

---

(١) الأيام / حـ ٣ ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٢) الأول هو أحمد حسن الزيات صاحب : تاريخ الأدب العربى ، ودفاع عن البلاغة ، ورئيس تحرير مجلة الرسالة التى ظهرت عام ١٩٣٢ ،والثانى هو المرحوم محمود حسن زناتى الذى عمل أمينا للخزانة الزكية ، وتقلّب فى دواوين الحكومة ، وقام بنشر كتاب الفصول والغايات للمعرى ، وأشار فى مقدمة الكتاب إلى صداقة الصبا التى بينه وبين الزيات .

ولعلّ الصداقة التى ربطت بين طه حسين والزيات والزناتى كانت معينا فى أن يحيا ثلاثتهم فى تلك الفترة حياة الأدباء التى صوَّرها طه حسين بقوله :

« وكانت حياة الأدباء فى تلك الأيام مزاجاً غريبا من متعة تختلس بين حين وحين ، ومن بؤس نفسى يفرضونه على أنفسهم ، وإن لم تفرضه عليهم الحياة ، فالأديب عندهم وعند غيرهم فى تلك الأيام بائس بطبعه ، طامح بطبعه إلى النعيم ، يتخذ البؤس لنفسه عشيراً ، ويجعل النعيم لنفسه حُلما ، ويختلس المتعة القصيرة بين حين وحين إن أتيح له أن يخرج من حياته المألوفة إلى رياضة فى الضواحى ، أو تنزُّهٍ فى الحدائق ، أو جلسة فى قهوة من القهوات .

وكانت حياة الأديب فيما وراء ذلك ألوانا من الرضا والسخط ، تأتيه من قراءاته الكثيرة المختلفة ، قوامها أن يفكّر كما كان يفكّر القدماء الذين يقرأ آثارهم ، ويشعر كما يشعرون ، ويسير فى الناس كما كانوا يسيرون ، وقد ألحّ أولئك الفتية فى قراءة الشعر الجاهلى والإسلامى والعباسى ، وحفظه ، كما ألحُّوا فى قراءة أخبار الشعراء والكتاب وعلماء اللغة ، فعاشوا عيشة أولئك الناس فى دخائل نفوسهم ، وإن لم يستطيعوا أن يعيشوها فى حياتهم الواقعة ، لأن الظروف كانت تحول بينهم وبين ماكانوا يريدون من ذلك ... » [1] .

ولأن هذا الذى يقوله طه حسين عن حياة ثلاثتهم حين جمعتهم زمالة الدرس ، ومرحلة البدء ، وفترة التكوين ، وعن حياة الأدباء فى ذلك العهد ، وكأنه حكم على الأدباء أجمعين ، أقول : ولأن ذلك الذى يقوله طه حسين كان قد قاله وهو يكاد ينتهى من إملاء الجزء الثالث من كتاب الأيام – أى بعد مرور أكثر من عقدين على تلك الفترة التى يتحدث عنها – فإن كلامه لا يؤخذ كله على أنه الحقيقة ، ولا يترك كله بسبب مافيه من تعميم الحكم على حياة الأدباء فى ذلك الحين من ناحية ، وبسبب مافيه من لىّ لأطراف الحقيقة من ناحية ثانية .

فأما الناحية الأولى فإن حياة الأدباء لم تكن كما صورها طه حسين ، وإنما كانت

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤١١ ، ٤١٢ .

فى تصويره كما عاشها وأحسّها ، وفى ظلال تلك المصاعب التى عاناها وواجهها ، وإلاّ فكيف يَصدُق حكمه هذا على من سبقوه إلى هذه الحياة الأدبية شهرة وذيوع صيت ، أمثال شوقى وصبرى ومطران وغيرهم ؟ وكذلك كيف يَصدُق على من عاصروه فى الانتشار والتألق بجدارة واقتدار ، أمثال شكرى والعقاد والمازنى وغيرهم ؟؟ إذ لم يكن واحد من هؤلاء – وغيرهم كثير – بائساً بطبعه ، أو أنه كان يتخذ البؤس لنفسه عشيرا .

وأما الناحية الثانية ومافيها من لىّ لأطراف الحقيقة فهى أن حياة الأديب فى ذلك الحين لم يكن قوامها – كما يقرر طه حسين – أن يفكر كما كان يفكر القدماء الذين يقرأ آثارهم ، ويشعر كما يشعرون ، ويسير فى الناس كما كانوا يسيرون ، وإنما كثير من هؤلاء الأدباء فى تلك الفترة كانوا يضطلعون بأعباء النهضة الأدبية شعراً ، ليتحقق للشعر ما تحقق لصنوه النثر من تطور هائل ، خرج به من أغلال التكلّف وأثقال الزخرفة إلى رحابة الترسل ، واستيعاب مالحق بفنون النثر فى الآداب الغربية من تنوع فى مجال الإبداع ، وتجاوب مع قيم كل فن منها ، تمثُّلا واستلهاما ، ثم استقلالا واستقراراً ، على يقين من غاياته ، وإيمان بجدوى وظائفه .

ولقد تغيّاً كثير من شعراء تلك الفترة هذه الغاية ، واتخذها طريقا لسعيه ، ومجالا لدعواته ، وسلاحا فى يمين كفاحه وفى حساب إبداعاته ، فما كان يفكر كما كان يفكر القدماء الذين قرأ آثارهم ، ولا كان يشعر كما كانوا يشعرون ، أو يسير فى الناس كما كانوا يسيرون ، ولكنه كان يفكر بدوافع حاجته إلى مواكبة الحاجة العامة إلى الإضافة ، والرغبة الصادقة فى التحديث ، والعزم الدءوب على الانتقال من طور الوعى بما ينبغى ، إلى طور النضج وتحقيق مايبتغى .

وإذا لم يكن هذا هو الفهم الجديد لحياة ودور الأديب عندهم فكيف نفهم من كان شاعراً وقال الشعر قبل أن يقول طه حسين هذا القول ، بل وقبل أنْ يقول طه حسين شعرا ، ومن هؤلاء شوقى ، وقد قال فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه ، الذى صدر سنة ١٨٩٨ م :

« ... فالشاعر من وقف بين الثريّا والثرى ، يقلّب إحدى عينيه فى الذرّ ، ويجيل الأخرى فى الذُرى ، يأسر الطير ويطلقه ، ويكلّم الجماد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة

الطلّ ، ويمرُّ بالعراء مرور الوبل ، فهنالك ينفسح له مجال التخيُّل ، ويتّسع له مكان القول ، ويستفيد من ذلك علما لا تحويه الكتب ، ولا توعيه صدور العلماء ، ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلّيا فى الهمّ ، ومنجيا من الغمّ ، وشاغلا إذا أملّ الفراغ ، ومؤنسا إذا تمكنت الوحشة ، ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه ، فإذا الخاطر أسرع ، والقول أسهل ، والقلم أجرى ، والمادة أغزر ... » [١] .

وهل كان شوقى فى هذا الذى يقول ، وفى ذاك الزمن البعيد حين قال ، مفكراً كما كان يفكر القدماء الذين كان يقرأ آثارهم ، وشاعراً كما يشعرون أو سائراً فى الناس كما كانوا يسيرون ؟؟

الحق إن ما قاله شوقى إنما كان صيحة تجديد لا أنّات تعديد ، وكان معبِّرا عن شعور شاعر العصر ، لا مجترا أصداء القدماء فى سالف الدهر .

ومن هؤلاء أيضا خليل مُطران الذى وجد فى الشعر المألوف جموداً أنكره ، وكان قد نضج فكره ، فاستقلّت له طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر فى طور نهضته الحديثة وعصره الحاضر ، بحيث يكون كما يقول :

« ... موافقا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحيانا على غير المألوف من الاستعارات أو المطروق من الأساليب » .

وبحيث يكون كما يقول :

« ... ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر صاحبه إلى جمال البيت المفرد ، ولو أنكر جاره ، وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته ، وفى موضوعه ، وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها ، وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر ، وتحرّى دقة الوصف ، واستيفائه فيه على قدر ... » [١] .

---

(١) الشوقيات ، حـ ١ ، ط ١ ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) ديوان خليل مطران ، المقدمة بقلم الشاعر ، حـ ١ ، ص ٨ ، ٩ .

بل إنه قال قبل ذلك* بسنوات :

« ... وإن خطة العرب فى الشعر لا يجب أن تكون حتما خطتنا ، بل للعرب عصرهم ، ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ، ولنا آدابنا وأخلاقنا ، وحاجاتنا وعلومنا ، ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثِّلا لتصورنا وشعورنا ، لا تصورهم وشعورهم ، وإن كان مفرغا فى قوالبهم ، محتذيا مذاهبهم اللفظية ... » [١] .

وليس مطران فى هذا كله مفكراً كما كان يفكر القدماء الذين كان يقرأ آثارهم ، ولا شاعراً كما يشعرون ، أو سائراً فى الناس كما كانوا يسيرون ، وإنما كان ابن عصره ، والمترجم عن مطالب ثقافة بيئته ، وطموح ذوى حرفته ، وكان إلى جانب ذلك منادياً بالوسائل الضرورية ، مبشراً وهاديا بالآراء الرائدة .

وكذلك كان أمر من قال الشعر حين نشر طه حسين شعره ، واستمروا فى إنتاجه ، وفى التوجيه فيه وإليه بعد أن توقف طه حسين عن قرضه ، ومن هؤلاء عبد الرحمن شكرى وصاحباه العقاد والمازنى ، فلم يكونوا يفكرون كما يفكر القدماء ، أو يشعرون كما يشعرون ، أو يسيرون فى الناس كما كانوا يسيرون ، وإنما كانوا فى تلك الفترة أصحاب دعوة للاطلاع على ما يستحدث فى الآداب والعلوم ؛ ليكون الأديب أديبا حقا ، ويكون الشاعر شاعراً مفتنًّا ، « فالاطلاع – كما يقول شكرى – شراب روح الشاعر ، وفيه ما يوقظ ملكاته ويحركها ، ويلقح ذهنه . ونفس الشاعر ينبوع ، والاطلاع هو الآلة التى يرفع بها ماء ذلك الينبوع إلى الأماكن العالية ، والشاعر فى حاجة إلى محركات وبواعث ، والاطلاع فيه كثير من هذه المحركات والبواعث ، والأديب الذى لا يُغرم بالاطلاع كالماء الأجن العطن الذى لا يحركه محرك ، وإنما عمل الشاعر فيما يطلع به عمل النحل فى قول أبى العلاء المعرى :

والنحل يجنى المرّ من نور الربى　　　فيصير شهدا فى طريق رضابه » [٢]

وكذلك كانوا فى تلك الفترة جيلا ناشئا كان – كما يقول عنه العقاد – « وليد

---

(١) المجلة المصرية ، س ١ ، جـ ٣ يوليه ١٩٠٠ ص ٨٥ .

(٢) ديوان عبد الرحمن شكر ، جـ ٥ ، ص ٣٧٠ .

مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، فهى مدرسة أوغلت فى القراءة الإنجليزية ، ولم تقتصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسى ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين فى أواخر القرن الغابر ، وهى على إيغالها فى قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان ، والطليان ، والروس ، والأسبان ، واليونان ، واللاتين الأقدمين ... وأنهم قرأوا أدبهم [العربى] قبل ذلك وفى أثناء ذلك ، فلم يدخلوا عالم الآداب الأجنبية مغمضين أو خلوا من الرأى والتمييز » (١) .

وكذلك كانوا فى تلك الفترة – بما دعوا إليه من دعوات تجديدية فى حياتنا الشعرية ، وما أصدروه من دواوين شعرية – أصحاب اتجاه مميز ، ودعاة تحديث وبناة مدرسة فنية ، يهتم الشاعر المنتمى إليها بعالمه النفسى وتأملاته الفكرية ، وبحقائق الكون وأسراره الخفية ، كما يهتم بالموضوعات الحسية مكسوَّة بأصباغه الشعورية ، وبالطبيعة من حوله فيمدّ إليها نبض القلب وخفق الصدر ، ولذلك جاء شعرهم – فى مجموعه – صورة صادقة التعبير عن نفوسهم الواعية ، وتجاربهم التأملية،الوجدانية النفسية ... وإن كانوا قد تميزوا بعضهم عن بعض فى داخل هذا الإطار العام لمذهبهم الشعرى ، بما يحفظ لكل منهم فرديته بما اتسمت به ، وشخصيته بما تكونت منه ، وهويته فى العطاء الفنى بما وسعت له ، فإذا العاطفة فى نتاج المازنى أوضح ، والفكر فى نتاج العقاد أجلى ، والمزج بين العاطفة والفكر فى نتاج شكرى أكمل وأفسح .

ويتأكد لنا من هذا أن حياة الأديب فى تلك الفترة كانت حياة المناضل ومسلك الطموح ، ولا يثبت لها إلا صاحب هوىً فيما عشق من ألوانها ، ولا يصبر عليها إلاّ من كان على هدىً فيما حمل من مسئولياتها ، فبرز كل منهم بما عشق بقدر ما ناضل ، وتبوأ كل منهم فى حياتنا الأدبية مكانة بقدر ما طمح وحاول .

وطه حسين نفسه كان من المناضلين وذوى الطموح ، وكذلك كان زميلاه : الزيات والزنانى ، جاهدوا جميعا فى مرحلة البدء والتكوين ، وكادوا فى جهادهم ذاك يصيغون ثالوثا آخر كثالوث شكرى وصاحبيه العقاد والمازنى ، إلا أن خُطى جماعة شكرى

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ، العقاد ، ص ١٥١ .

كانت فى تلك الفترة فى مجال الشعر أقدر وأوثق ، وفى آفاق التجديد والإضافة أقوى وأوسع ، فانطلقت بهم قدراتهم الفنية إلى أن كوّنت منهم اتجاها فنيا مميزاً ، أو قل مدرسة شعرية حديثة . فى حين أن تقيدت خُطى طه حسين وصاحبيه فى المجال الشعرى بقيود الاستظلال بظلال ما قرأوا وما حفظوا من شعر جاهلى وإسلامى وعباسى ، ينسجون على منواله ، ويغترفون من ينابيعه . وكانوا حينذاك طلابا بالأزهر ، فلم تكن قدراتهم على ارتشاف أفاويق النهضة الأجنبية قد شبّت ، ولا وجهتهم إلى ذلك قد جدّت ، فبقوا فى ميدان الشعر منشغلين بالغزل حينا ، وبالهجاء حينا آخر ، حتى هجروا الأزهر ، وتفرعت بهم السبل ، فتقطعت بينهم أواصر قول الشعر .

وقد عرّج طه حسين فى تذكار أيامه على هذا الجانب من حياته الأدبية مع زميليه ، فرصد ماكان لهم فى هذا الميدان من نضال أرادوا أن يحققوا به لأنفسهم مجدا ، وأن يوجدوا لثلاثتهم بين الجماعات الشعرية مكاناً ، فقال :

« ... وهم قرأوا شعر أبى نواس وأصحابه ، وقرأوا شعر الغزليين العذريين ، فاستحبوا من الغزل ما استحب أولئك الشعراء ، وذهبوا فيه مذاهبهم المختلفة ، حافظ منهم من حافظ فآثر العذريين وغزلهم ، وجدَّد منهم من جدد فآثر شعر العباسيين وغزلهم ، وخلقوا لأنفسهم مُثلا للجمال يتغزلون فيها ، ويشبّبون بها ، ولم يكن للمحافظين منهم بدّ من أن يخترعوا مثلهم العليا اختراعاً ، فقد كانت الحياة تحول بينهم وبين لقاء الغوانى ، ولكن المجددين كانوا خيرا منهم حظا ، فلم يكن من الممتنع أن يلقوا فى الأزهر أو خارج الأزهر بعض الوجوه الصباح ، وأن يتخذوا لغزلهم موضوعات لا يخترعها لهم الخيال ، وإنما تعرضها عليهم الحياة .

وكذلك وُجد بين هؤلاء الفتية من كان يذهب مذهب جميل وكثيّر ، وكان الحرمان المطلق محتوما عليه ، كما كان منهم من يذهب مذهب أبى نواس وأصحابه ، وكان حظه من الحرمان أقل ، ونصيبه من النعيم أكثر ، فهو كان يستطيع أن يلقى أصحاب الوجوه الصباح ، وأن يقول لهم ، ويسمع منهم ، ويهيم بهم ، ويقول فيهم الشعر ، ويذهب فى هذا الشعر المذاهب ، وربما ورَّطه هيامه وشعره ، وورَّط معه صاحبيه فى الشرّ القليل أو الكثير .

وكان ثالث هؤلاء الفتية نواسى الشعر ، نواسى الهوى .. يمضى مع هواه لا يلوى على شيء حتى أصبح حديث أترابه ... كان يتتبّع سيئاتهم وأغلاطهم ، ويزيد فيها ، ويضيف إليها ، ويقول فى ذلك الشعر حتى أصبح هجّاء ، وكان لا يحتفظ بهجائه لنفسه ولصاحبيه ، وإنما يجهر به كلما وجد إلى الجهر به سبيلا ، وربما احتال حتى ينشد شعره ذاك بأرفع صوته ، فيسمعه من قيل فيهم من الطلاب ، ثم عظم فى نفسه الوهم ، واستأثر به حب الشرّ ، فكان كلما رأى أحداً ، ينظر إليه فيطيل النظر ، أو ينظر إلى بعض أصحابه أولئك الحسان ، اتّخذه لنفسه عدوا ، وهجاه ... » [١] .

ويذكر طه حسين ذلك أيضا فى أحاديثه « من لغْو الصيف إلى جد الشتاء » فيقول عن حياة ثلاثتهم فى مجال العطاء الشعرى : « ... وكانوا فى حياتهم تلك ، كما كانت الشعوب الأولى فى حياتها ، أصحاب حس وشعور ، وأصحاب قلوب تتأثر ، ونفوس تتغنى ، وكانت عقولهم غافلة أو كالغافلة ، فكانوا ينشئون الشعر وينشدونه ، وقلما يفكرون فى النثر ، فإن فكروا فيه فقلما يحاولونه ، فإن حاولوه فقلما يُجيدون ، وكانوا لا يخطر لهم موضوع إلا تناولوه مسرعين ، فنظموا فيه الشعر ، وتنافسوا فى الإجادة ، ولم يتحرجوا من أن ينقد بعضهم بعضا ، وكانوا يبلغون من ذلك مايريدون ، يجيدون قليلا ، ويسيئون كثيرا ، ويرضون دائماً ... » [٢] .

وانتهى أمر هذه الجماعة الشعرية الناشئة ؛ إذ ضرب الدهر بينهم بضرباته ، بانفضاضهم عن الأزهر ، وانشغل بعضهم - عن بواعث قول الشعر - بدوافع السعى وراء الرزق ، فعمل أحدهم معلماً ، وعمل الآخر مصحِّحا ، وأما طه حسين فقد كان يخلص لحياته هذه الجديدة التى أخذ يحياها منذ قرأ لنفسه أول مقال نشرته له الصحف ، أرضاه ذلك عن نفسه ، وأطمعه فى المزيد منه .

ومن هنا أُتيحت الفرصة لطه حسين أن ينشر شعره فى الصحف السيارة حينذاك ، منها : الجريدة ، ومصر الفتاة ، والهداية ، والعلم وغيرها ، وكانت أول قصيدة

---

(١) الأيام ، طه حسين ، جـ ٣ ، ص ٤١٢ ومابعدها .

(٢) من لغو الصيف ، طه حسين ، ص ١٠١ .

نشرت له قصيدة رثاء مكونة من عشرين بيتا ، وكان لابدَّ لطه حسين ، وهو الطموح الطُلعة ، من أن يتحيّن الفرصة ، ويختار المناسبة ؛ لتكون قصيدته الأولى مثيرة الناس من حيث أهمية موضوعها ، ثائرة بين الناس من حيث موقف منشئها ، عندئذ يُلتفت إلى القصيدة ، فموضوعها مشغلة الناس جميعا ، ويُلتفت أيضا إلى صاحبها فما أثاره فيها يُرضى أناساً ويسخط آخرين ، وفى ذلك الخير الكثير لمن يريد لنفسه بين الناس شهرة ، ولاسمه ذكرا ، إذ إن الساحة الشعرية عند ذاك ساطعة الأضواء بنتاج نجومها وأقمارها ، ظليلة الأفياء بامتداد عطاء شعرائها وأدبائها ، فمن هو الشاعر طه حسين – حينئذ – بالنسبة للبيئة الصحفية ، والساحة الأدبية التى يزداد ثراؤها ، ويتسع نطاقها حين تذيع فى يومها ذاك قصيدة لشوقى أو لحافظ أو لصبرى أو لناصف ، أو لعبد المطلب ، أو لعشرات من المصريين غيرهم ، ليس طه حسين عندئذ واحداً من بينهم !! .

والمرثىُّ فى هذه القصيدة هو حسن (باشا) عبد الرازق ، وهذه هى فرصة طه حسين ، فموضوع القصيدة رثاء شخصية لها مؤيدوها الذين يربتون على أكتاف من يكيل لها المدح ، ويظهر لها الولاء ، ولها معارضوها الذين يرون فى مدح المادح لها مناصرة لمهادنة الوجود الاستعمارى ، وخنوعا لقبول الأمر الواقع ، والاستسلام لحياة الظلم والتبعية ، ويرون فى الولاء لهذا المرثىّ واعتناق آرائه معاداة لقوى الكفاح ، وخروجا عن جادة السبيل ولواء الحق وطريق الوطنية .

والمادح والقادح لهذه الشخصية فى هذا الموقف – الداعى إلى القول – يتساويان فى لفت الانتباه إلى كلٍّ منهما ، وتجميع الراضين والساخطين معاً من حولهما ، وهذه وحدها غاية مرجوة ، وفرصة مترقّبة بالنسبة لطه حسين الشاب الطموح ، الذى يريد أن يشق لقدمه موضعا على طريق الشهرة ، وذيوع الصيت ، وانتشار الذكر .

وما كان لطه حسين أن يكون قادحاً فى هذه الشخصية ؛ لأن حسن عبد الرازق كان نائب رئيس شركة صحيفة الجريدة التى صدرت فى مارس سنة ١٩٠٧ ، وطه حسين مدين لهذه الصحيفة ومديرها أحمد لطفى السيد بفضل لا يُنكر ، فالصحيفة أنعمت عليه بفرصة النشر ، ومديرها أغدق عليه بأستاذيته وخبرته فهداه إلى الطريق ، وأخذ بيده إلى ماتحقق به لطه حسين من خير وشهرة ، ومن انتصار على الإحساس

بالحيرة وعوامل القهر ، وفى هذه الصلة – بين الجريدة ومديرها وبين طه حسين – يقول فى أيامه عن نفسه حين بدأ هذا الطريق : « ... فجعل يكتب فى الجريدة رغبة فى الكتابة أحيانا ، وتقرُّبا بها إلى مدير الجريدة [١] أحيانا أخرى ، وجعل مدير الجريدة يرضى عن فصوله ويغريه بالكتابة ، ويحثه عليها حثا ، ويعلِّمه القصد فى اللفظ ، والأناة فى التفكير ، وماهى إلا أن جعل يقرِّبه إليه ، ويدعوه إلى زيارته ، حتى أصبح الفتى ملازما لمكتب المدير ، يلمُّ به فى أكثر أيام الأسبوع حين يرتفع الضحى فلا يحجب عنه ، وإنما يلقاه الأستاذ المدير هاشا له ، مرحّبا به ، آخذا فى التحدّث إليه والاستماع منه ، فاتحا له أبوابا من التفكير لم تكن تخطر له على بال ، خائضا معه فى حديث الأدب القديم ، راويا له من الشعر ماكان يحفظ ، ومالم يكن قد سمعه من قبل ، حتى استأثر بقلب الفتى ، وعقله ، وحتى أصبح للفتى أستاذان يختصهما بحبه واعجابه ، أحدهما يذكِّره بأئمة البصرة والكوفة وهو الشيخ سيد المرصفىّ ، والآخر يذكِّره بفلاسفة اليونان الذين سمع أسماءهم فى الأزهر ، وجعل يدرس أطرافاً من فلسفتهم فى الجامعة وهو لطفى السيد ... » [٢] .

وهذه الصلة المتينة التى ربطت بين طه حسين وبين الجريدة ومديرها جعلت من طه حسين مواليا للاتجاه السياسى الذى تدين به الجريدة ، ويؤمن به هذا الحزب الذى اتخذ من الجريدة صحيفته ، ومرآة آرائه ودعواته ، وهو حزب الأمة ، الذى أُعلن قيامه فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٠٧ برئاسة حسن عبد الرزاق .

فحسن عبد الرازق إذن بالنسبة لطه حسين رئيس حزب ، وقائد مسيرة ، وممثل اتجاه سياسى فعّال الأثر ، فلابدَّ أن يكون ممدوحاً من طه حسين الكاتب الناشىء ، والشاعر المترقِّب فرصة الاشتهار ، فمدحه له سوف يقوّى مكانته ويذيع ذكره بين أتباع حزب الامة ، وهم ليسوا بالقليل .

ولم يكن طه حسين غافلا عن أن انتماءه لهذا الحزب ، واعتناقه آراءه يعنى – فى نفس الوقت – خروجه على حزب الغالبية ، وهو الحزب الوطنى ، الذى يقوده مصطفى

---

(١) هو أحمد لطفى السيد .

(٢) الأيام ، طه حسين ، جـ ٣ ،ص ٤١٦ ومابعدها .

كامل ، وإنما كان بصيرا بما يريد ، مستفتيا ذكاءه ، ووجدانه ، فيما كان يأمل ، فحزب الأمة أعضاؤه من أصحاب الثروة فى المال ، والمكانة العالية فى المجتمع ، فهو ليس حزب جمهور العامة ، والمنضمُّون إليه من المثقفين أمثال أحمد لطفى السيد وأحمد فتحى زغلول وقاسم أمين وطلعت حرب وغيرهم كانوا حينذاك من أهم مثقفى العصر ، ومن أشهر رجالات الفكر ، فانضمام طه حسين إلى حزب – هؤلاء أعضاؤه وممثلو تيّاره – لا بد أن يجعله من ذوى الوجاهة أو لصيقا بهم ، ويخلطه بطبقة الأعيان ، إن لم يضمّه إليهم ، وليس هذا بمقاييس طموح طه حسين بالمستحيل .

وكان حزب الأمة قد نشأ ليقف فى وجه الحزب الوطنى الذى « بنى سياسته ومواقفه على العداء للمحتلين الإنجليز ، والسعى بكل الوسائل للتخلص منهم [1] » ، ولذلك قيل إن نشأة حزب الأمة كان بإيعاز من اللورد كرومر ؛ ليقاوم به الحركة الوطنية التى تزعمها مصطفى كامل ، ومن هنا كان شعار هذا الحزب هو الاعتدال فى المطالب الوطنية ، والمسالمة فى التعامل مع الانجليز ، واستمداد المثل الأعلى فى الإصلاح من حضارة الغرب ومدنية أوربا ، ومعنى هذا أن انضمام طه حسين إلى هذا الحزب ، وولاءه لهذا الاتجاه السياسى ، سوف يوسّع دائرة الراضين عنه ، ويكثر من تعداد الآخذين بيده من ذوى الوجاهة ، وأولى النفوذ ، وهذا بالنسبة له ليس بالكسب الضئيل .

ثم إن مدح هذه الشخصية ، فى مثل هذا الموقف ، وفى نطاق الظروف السياسية عندئذ ، وتباين النزعات الوطنية حينذاك ، يستتبع من المادح الناشىء – الراغب فى الذيوع وإثبات الوجود – التعريض بالحزب الآخر ، وترديد توصيف – المحتل والصحف الموالية للاحتلال – أبناء الحزب الوطنى بأنهم المتطرفون أو المهيجون ، ونعتهم هذا الحزب بأنه حزب الطيش ، ووصفهم زعيمه الشاب بالفتى الطائش ... وجرأة طه حسين على هذا أو قيامه به ، إلى جانب أنه سوف يضمن له رضاء حزب الوفد ، ويدرُّ عليه تعاطف سياسة القصر ، وفى كل ذلك كسب غير منكور ، فإن ذلك أيضا سوف يثير سخط حزب الغالبية عليه ، ويلفت أنظار أدباء هذا الحزب إليه بالنقد له ، أو حتى بالسخرية منه ، وفى هذا خير له غير محدود ، وقاعدة « خالف تعرف » ليست بين الناس بالمثل المردود ، ولا بين الناشئة الطموحين بالخبر المطمور .

---

(١) الأحزاب السياسية فى مصر ١٩٠٧ – ١٩٨٤ ، د. يونان لبيب رزق ، ص ٢١ .

فى ظل هذه الظروف مجتمعة كانت هذه الفرصة كسْباً لطه حسين من حيث موضوع القصيدة الذى اختار ، ومن حيث ما يبتغى من ورائها من تحقيق مطمح ، وولوج ميدان الشهرة والانتشار ، وفيها يقول :

أفى الحق ما أسمعتنا أم توهُّما　　تبينْ فقد بدّلتَ أدمعنا دما
تبين فإنّ الناسَ لم تَنْسَ عاصمًا　　ولم تَقْضِ من ذكرى الإمام تألُّما
أفى كل يوم أنت داع بدعوة　　تغادر قلب الشرق بالهمِّ مُفْعَمَا
نَكَأْتَ قروحا لم يجف صَدِيدُهَا　　وَأَذْكَيْتَ جمراً كان من قبلُ مُضْرَمَا
ألا إنما تنعى لنا الفَضْلَ كُلَّهُ　　وتنعى المعالى والوفاءَ المجسَّما
رعى الله مصرا إذ تداعتْ حُمَاتُهَا　　وَأَضْحَى بنوها للمنيَّة مَغْنَمَا
هَوَى كوكبٌ كانت به مصرُ تهتدى　　إذا ما دجا لَيْلُ الخُطُوبِ وأظلما
تَوَلَّى فلم نَفْقِدْ به شَخْصَ واحِدٍ　　ولكنه صَرْحُ المعالى تهدَّما
تولى فذلَّتْ مصر بعد مماته　　همام إذا ما أحجم الناسُ أقدما
رماه الردَّى من ودَّ أنّ بِلَادَهُ　　تكون لأهل الغرب نهباً مُقَسَّمَا
ومن يَدَّعِى بالطيشِ نُصْرَةَ قَوْمِهِ　　ورائده الأهواءُ أنى تيمَّما
مضى « حسن » عنا وخلَّف لوعة　　تزيد على مرِّ الليالى تَضَرُّمَا
وما الصبرُ عَمَّنْ فاق فى الجود حاتما　　وفى بأسه عمرا وفى الرأى أكثما
ستذكره الشُّوَرى إذا قيل من لها　　وقد أبدت الأهوالُ فى الظُّهر أنْجُمَا
ويذكره العافون إن ضاق ذَرْعُهُمْ　　وأبدى لهم أهلُ الثَّرَاءِ التجهُّما
فقد كان فَيَّاضَ اليديْنِ سُمَيْدَعاً　　إذا بخل المثرون أَعْطَى فأنعما
وما أنس م الأشياء لا أنس وَقْفَةً　　له أَلَّفت فى مصر حزبا مُنَظَّمَا
ولا خطبة يبقى على الدهر ذِكْرُهاَ　　أبانت لنا رأيا سديداً مُقَوَّما
عزاء فلو تُنْجِى من الموتِ فدية　　فَدَيْنَا ، ولكنْ كانَ أمراً مُحَتَّمَا
عليه سلام الله ما دام ذِكْرُهُ　　ورحمته ما شَاءَ أن يَتَرَحَّمَا (١)

... والإثارة — لمشاعر آل المرثى ومؤيدى حزبه السياسى — بالرضا عن طه حسين

---

(١) انظر الجريدة فى ١ يناير سنة ١٩٠٨ .

والحمد له سافره غاية السفور ؛ إذ زعم أن نعى الناعِى لفقد هذا الفقيد إنما هو نعى للفضل والمعالى والوفاء المجسّم ، وجعَل مصر بفقده إنما فقدت كوكبًا كانت به تهتدى فى ليل خطوبها المظلم ، وجعل الفقيد – بما كال له من صفات – أشجع الناس وأجودهم ، وأقوى المتحدثين وأحكمهم ، فقد فاق فى جوده حاتما ، وفاق فى بأسه عمْراً ، وفاق فى رأيه أكثم ...

... والإثارة لمشاعر زعيم الحركة الوطنية وأنصار حزبه – وهم غالبية الشعب ، وجنود الفداء – بالسخط على طه حسين والتربُّص به ، سافرة أيضا غاية السفور ، إذ رمى الزعيم الشاب بالطيش ، ونعته بالهوى ، وكان بهذا لسانا لما كان يشيعه المحتلون – كذبا – حينذاك فى مقاومتهم لمصطفى كامل وقد علا صوته فوق صوت قوتهم ، فأرادوا بهذه الشائعات أن يصدوا الناس عن صدق دعوته وسحر قوله ، وأن يزلزلوا الثقة فى أعماق الناس بوطنيته وجهاد حزبه ؛ لينفضُّوا من حوله .

ولكن القصيدة بما أحيطت به من ظروف ، وما تضمَّنته من إثارة ، لم يتحقق لها ما كان صاحبها يأمل من رواجها بين المتلقِّين ، ومن تجسيدها وصدق نقلها لأنَّات الحزين ، لأن الشعر الجيد بحكم طه حسين نفسه « يمتاز قبل كل شيء بأنّه مرآة لما فى نفس الشاعر عن عاطفة ، مرآة يمثل هذه العاطفة تمثيلا فطريا بريئا من التكلُّف والمجادلة ، فإذا خلت نفس الشاعر من عاطفة أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه »[1] والعاطفة هنا فى مجموع القصيدة توارى نبضها ، وجف وِردها ؛ بسبب ما أسرف به طه حسين على نفسه ، وعلى مرثيِّه ، من مبالغات أوشكت أن تفرض على الحياة بموت المرثى أن تتوقف ، وأن تفرض على مصر بفقده أن تذلّ وتضعف ، وتفرض على مُثلنا العليا فى الجود والبأس وحكمة الرأى أن تُنتقص أقدارهم ، وأن يهتز فى النفوس إجلالهم وإكبارهم وإذا أضفنا إلى هذا كله ما أسرف به طه حسين على نفسه من نزعة خطابية ، وصور تقليدية ، وأساليب أقرب إلى النثر منها إلى لغة الشعر ، لسجلنا على طه حسين فى قصيدته هذه

(١) حافظ و شوقى ، طه حسين ، ص ٩٩ .

ما سجله هو على قصيدة « حافظ إبراهيم » مدحة للمغفور له (فؤاد الأول) [١] ، إذ قال :

« .... أول ما يؤذيك حين تقرأ هذه القصيدة خلو أبياتها جميعا من كل معنى رائع أو تصور بديع ، فإنك تنتقل من البيت إلى البيت فلا تجد إلا ألفاظا مرصوفة ، وكلماتٍ منظومة يتلو بعضها بعضا ، وتدل على معانيها اللغوية لا أكثر ولا أقل ، فإذا عمد الشاعر إلى التشبيه أو المبالغة أو أى حيلة من هذه الحيل اللفظية التى يخلص الشعراء بها من المآزق لم يجد إلا ألفاظا مألوفة ، ومعانى كثيرا ما ردَّدها الشعراء ، وطرقا من التعبير قد سئمها الناس [٢] » .

ولربما زادنا فوق ذلك الذى قاله فى قصيدة حافظ بأن منشىء هذه القصيدة – وان كان هو نفسه – ينكر ذوق القرن العشرين فيما يختار من ألفاظ معجمية لم يعد لاستعمالها إيحاء ، ولا لاستخدامها دلالة ، إلا أن صاحبها تكرهه ضرورة الوزن إلى ما ليس فيه غناء ، ولوقف طويلا – ذامّا أو ساخراً – أمام هذه الشطرة :

فقد كان فياض اليدين سميدعا ....

والجعل من لفظ السميدع هلهلة لسيادة السيد ، ومنقصة فى شاعرية الشاعر .

وعلى هذا النسق كان رثاء طه حسين لغير هذا المرثّى ، معانيه مأخوذة بعضها من بعض ، وأساليبه عالة بعضها على بعض ، مصداق ذلك أن نُشر له بعد أكثر من سنتين قصيدته الثانية فى الرثاء ، بنفس الصحيفة التى نشر فيها قصيدته الأولى ، وكانت القصيدة الثانية فى رثاء محمود عبد الغفار عضو مجلس شورى القوانين [٣] ، يجمعها بالقصيدة الأولى البحر الطويل من بحور الخليل ، والنزوع إلى التهويل من جانب طه حسين فى مواقف الرثاء والتأبين ، فيبدؤها بقوله :

---

(١) ديوان حافظ ، جـ ١ ، ص ١٠٦ أول القصيدة :

أقصر الزعفران لأنت قصر خليق أن يتيه على النجوم

(٢) حافظ وشوقى ، د . طه حسين ، ص ٩٩ .

(٣) الجريدة ، فى ٣ مارس ١٩١٠ م .

أمحمود أم آمالُنا ضمَّها القبرُ ؟ فقد شَقِيَتْ من فاجعاتِ الرَّدَى مصرُ
تُخَرِّم ريبُ الحادثاتِ حُمَاتَهَا وللناس من أيامها العُرْفُ والنُّكْرُ
أفي الحق أمًّا غير مصْرَ فآمِنٌ وَأماًّ رُباها فالخُطُوبُ بها كُثْرُ
تنازعها الأرزاءُ حتى كأنما لصرف الليالى عند أبنائها وِتْرُ
طوى حَيْنُهاَ منَّا الإمامَ وقاسماً ولم تَعْدُ محموداً أظافِرُهُ الحُمْرُ

والقصيدة طويلة تزيد على سابقتها بثلاثة عشر بيتا ، ومايزال طه حسين هنا – كما كان هناك – مؤمنا بأن الله جعل قلوب الأحياء قبورا لمن يسبقونهم إلى الموت ، فالفاجعة الطارئة تستدعى عنده تذكار الفاجعة السابقة ، من قبْل كان موت حسن عبد الرازق قد استدعى لديه تذكار موت الإمام محمد عبده ، وحسن عاصم وهنا موت محمود عبد الغفار يستدعى عنده رزء مصر فى مجاهديها وجميعهم :

كواكبُ قد كانت بهم مِصرٌ تهتدى فَلَمَّا تولَّوْا غابت الأَنْجُمُ الزُّهْرُ
سِهَامٌ أَعَدَّتْهَا الكِنَانَةُ للعِدَى فَحَطَّمَهَا من دهرنا الظُّلْمُ وَالغَدْرُ
فلا عَجَبٌ أن يَبْكِيَ النيلُ جازعاً ولكنْ عجيبٌ أن يكونَ له صَبْرٌ

وهناك بموت حسن عبد الرازق كان من مظاهر الحزن العام أن تبدَّلت الأدمع دما ، ونكئت فى قلب الشرق قروح ، وأذكى فى أعماق الناس جمر ، وهنا بموت محمود عبد الغفار دُفِنَتْ آمالنا مع المقبور ، واهتاجت اللوعة فى القلوب ، وتمكَّن الحزن من الصدور :

تَوَلَّى وخلَّى لَوْعَةً فى قلوبنا يُنَهْنِهُهَا من سَحِّ أَدْمُعِنا بَحْرُ
عَلَى أنَّ دَمْعَ الُحزْنِ يُذْكِي لَهِيبَهُ فَيَلْظَى كما يَهْتَاجُ بالحَطَبِ الجَمْرُ
لَئِنْ فارقَ الدنيا الدَّنِيَّةَ شَخْصُهُ فَلَمْ يَخْلُ مِنْ حُزْنٍ عَلَى فَقْدِهِ صَدْرُ

بل وتمادى بمصر من بعده الحزن والأسى فذابت القلوب ، وقطِّعت العزائم ، واستعصى على الناس الصبر :

تَمَادَى بِمِصرَ بَعْدَكَ الُحْزنَ وَالْأَسَى إلى كَم تُعَانى مِنْ صُرُوفِ الرَّدَى مِصْرُ؟
لَعَمْرِى لقد ذابتْ قُلُوبٌ وَقُطِّرَتْ مرائرُ ، وَاسْتَعْصَى على أَهْلِهِ الصَّبْرُ

وهناك كان التركيز على شجاعة حسن عبد الرازق وكرمه حيث كان هماما إذا

ما أحجم الناس أقدم ، وكان كريما إذا بخل المثرون أعطى فأنعم ، وكذلك كانت نعوت الفقيد هنا ، فقد كان الأروع المقدام ، والماجد الحرّ ، والكريم نادر النظير ، فبفقده أصاب الناس ضر ، ونالهم الشر ، وفى هذا يقول :

أمحمودُ لا تَبْعُدْ فكَمْ لَكَ مِنْ يَدٍ يَحِلُّ عليها مِنْ ذَوِيها لَكَ الشُّكْرُ
بَكَتْكَ عِيَالُ اللهِ ما بَيْنَ حُرَّةٍ تَرِقُّ ، وشيخٍ مُعْوِلٍ عَضَّهُ الفَقْرُ
أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَجِيبَ قُلُوبِهِمْ فقد نالهم من بُعْدِكَ البؤسُ والشرُّ [١]
أجِدَّك لَمْ تَدْرِ الغداة شكاتهم فقد مسَّهم لَمَّا تركتهمو الضرُّ

واختيار لفظة « أجدّك » هنا يضارع استخدام لفظة السميدع هناك من حيث المعجمية ، ومخالفة الذوق العام وروح العصر ، مما اضطر الشاعر هنا إلى أن يفسر هذه اللفظة نقلا عن المعجم [١] تماما كما فعل هناك ، وماكان أغناه عن استعمال هذه اللفظة أو تلك لولا إلحاح منه على إثبات القدرة اللغوية لديه ، وعوز لديه لاستكمال الأدوات الفنية عنده ، فهو مايزال فى هذه الساحة أسيراً لمحفوظه من تراثنا ، وأنماط بديع وبيان بلاغتنا .

والغريب أن طه حسين فى ختام قصيدته هذه يهيب بحافظ إبراهيم ألا يبخل بشعره فى مثل هذا الخطب قائلا :

أَحَافِظُ لا تَبْخَلْ بِشِعْرِكَ إِنَّمَا لِأَمْثَالِ هذا الخَطْبِ يُدَّخَرُ الشِّعْرُ

مع أنه هو نفسه لم يحرك خاطره من قبْل ، موت مصطفى كامل الذى هز البلاد أسًى ، وأبكى المصريين — حقا — دما .

وليس لطه حسين فيما نُشر له من شعر المراثى غير قصيدتين أخريين نُشِرتا له بعد عامين من تاريخ نشر هذه القصيد ، وفى نفسُ الصحيفة وهى صحيفة الجريدة ، وكانت الأولى فى رثاء الدكتور ميلونى [٢] الأستاذ بالجامعة المصرية ، والقصيدة بصورة عامة قليلة

---

(١) أجدّك : جاء فى تفسيرها : إذا كانت بكسر الجيم فمعناها : استحلفك بحقيقتك ، وإذا كانت بالفتح فمعناها استحلفك ببختك .

(٢) الجريدة فى ٢ مارس ١٩١٢ ، والقصيدة أحد عشر بيتا .

الأبيات فقيرة الزاد ، عاطفة الحزن فيها تعوزها رنَّة الأسى ، والإحساس بالفقد فيها يفتقد حرارة الاتِّقاد ، فهو يبدؤها بالدعاء على الموت بتعثُّر الخطى ، ويجد السبيل إلى الصبر على فقد الفقيد بتذكار حكمة فى الحياة عميقة الجذور واسعة المدى ، هى أن أعمار الأفذاذ قصار ، وفى هذا يقول :

لا أَقَالَ اللهُ للموتِ عِثَاراَ   فلقد أَغْرَقَ فى النَّاسِ وَجَارَا
عَاهَدَ الدَّهْرُ على أن لَمْ يَزَلْ   مُذْكِياً فى مصرَ للحزن أُوَارَاَ
أيها الراحِلُ عنّا عَجِلا   إنّ للأفذاذِ آجالًا قِصَاراَ

ثم يقرر ماحملته مصر بفقده من خسارة ، ومايراه هو فى رزئِه من غُرم ، إذ كان الرجل بمصر للعلم منارة ، وبموته قد تهدمت فى مصر تلك المنارة :

لا أرى رُزْءَكَ إلاَّ مَغْرَماً   حَمَلَتْ مِصْرُ به اليومَ خَسَارَا
قد غَرَسْتَ الأدب الغَضّ بها   ثم عُوجِلْتَ ولم تَجْنِ الثِّمُاراَ
كُنْتَ للعِلْمِ مَنَاراً فلقد   هدِّمتْ رِيحُ الرَّدَى ذَاكَ المَنَاراَ

ولأنَّ الأمر عند طه حسين قائم على اقتداره صناعة الشعر ، لا على موهبته النضاحة به أو طبعة اللحوح عليه ؛ فإنه يجتر الألفاظ الموروثة ، والأساليب المأثورة ، من ذلك قوله :

وَيْلُ أُمِّ الْمَوْتِ أَوَ أَمْهَلَهُ   لِأَمَانِيهِ التى كانتْ كِبَاراَ
ذَاقَ كَأْسَ الموتِ سُمًّا ناقعا   حين لم يُضْمِرْ من الموتِ حذارا

ولا أدرى ، ولا أخال طه حسين يدرى كيف يضمر الإنسان من الموت الحذارا ؟ وكيف يتَّفق هذا مع إيمانه بأن لكل أجل كتابا ، أو مع علمه بأن ساعة الموت ، أو ساعة الميلاد ، موقوتة بميقات لا يُعيق حدوثها حذر ، ولا يستعجل آثارها إهمال أو إصرار .

ونضيف إلى هذه الملاحظات العامة فى هذه القصيدة الرثائية جانب معانيه المعادة فى مواقف الرثاء ، من ذلك تكراره أن الفداء لو يصحّ فى تلك المواقف ، وأن التضحية لو تُجدى فى مثل تلك اللحظات لما تأخَّر الناس عن الفداء ، ولا تردَّد الشاعر فى التضحية ، قال هذا فى القصيدة السابقة :

عزاء فلو تُنْجِى من الموتِ فِدْيَـةٌ   فَدَيْنَا ، ولكنْ كان أَمْـراً مُحَتَّمـاَ

ويكرر هذا المعنى فى هذه القصيدة قائلا فى ختامها :

كُلُّنا نَفْدِيكَ لَوْ أنَّ لنا ... فى اتِّقاءِ الموتِ رَأْيًا أو خِيَارَا

وأما القصيدة الأخيرة فى مراثيه ، فكانت أنأى من سابقاتها عن دواعى البكاء أو الاستبكاء ، إذ القصيدة كانت عزاء صديق لأسرة عبد الرازق ، وطبيعة موقف الاصطدام بالرزء وبالهلع من الفجيعة غير طبيعة موقف الذكرى ، والبرء بالصبر من آثار الوجيعة ، لذلك جاءت القصيدة مقتدية بمنهج أستاذه أبى العلاء المعرى فى مراثيه ، إذ يلجأ إلى التزيّى بأزياء الفلاسفة فى التفكير ، والتجلبب بجلباب الحكماء فى التأويل والتفسير ، فإذا به يجعل أكثر من نصف أبيات قصيدته فلسفة فى الحياة وما بعد الحياة ، ذاهبا فى ذلك مذهب المتشائمين ، مضطربا فى أمر حياة القبر اضطراب الحيرى الوجلين ، ثم يختم هذا ببيتى تخلُّص ، يخرج بهما من هذه المقدمة إلى موضوع القصيدة ، فيقرر أحقية مَن يتولى من الدنيا بسكب الدموع ، وإن كان سكب الدموع لا يصدّ الردى ، أو يردُّ الحياة ، وأتت هذه المقدمة فى الأبيات التالية [1] :

هاتِ من هذه الأحاديثِ هاتِ ... لستُ فى غَفْلَةٍ ولا فى سُبَاتِ
كيف أغترُّ بالمنى وبناتُ الدهـ ... ـرِ حَرْبٌ عَلَىَّ مُحْتَشِدَاتِ ؟
لا أرىَ فى الحياةِ إلَّا عَدُوًّا ... لِى يَبْغِى لَدىَّ سَلْبَ الحياةِ
فأرى صِحَّتِى سَبِيلَ اعْتِلَالِى ... وأرى لذّتى طريقَ أذَاتِي
لا أُحِبُّ الرَّدىَ ولا أتَّقِيهِ ... فَضَلَالٌ حُبِّى لَهُ وَتُقَاتِي
لو تَبَيَّنْتُ عِلْمَ ما أنا لاقٍ ... فى ذا القُبْرِ ما كَرِهْتُ وَفَاتِي
أَوْ عَرَفْنَا إلى الخلودِ سبيلا ... لم تَطِبْ نَفْسُ خالدٍ بالمماتِ
كم سَخِرْنَا بحادثاتِ الليالى ... وَأَرَاهُنَّ بالمَلاَ سَخِرَاتِ
جَرَتْ النَّيِّراتُ بالسَّعْدِ وَالنَّحْـ ... ـسِ فَمَا سِرُّ هذه النيِّراتِ ؟
أَفَنَاءٌ بَعْدَ الرَّدىَ فَهُدُوءٌ ... أمْ حَيَاةُ الهُمُومِ وَالْحَسَرَاتِ ؟
حَبَّذَا مَوْقِعُ الخيالِ لَدَى النَّا ... سِ مُرِيحاً مِنْ هِذهِ الشُّبُهَاتِ

---

(١) الجريدة فى ٢٨ أغسطس ١٩١٢ .

كَذَّبَ الْمُحِسنُونَ بالموت ظَنًّا　　خُدِعُوا بِالْمنىَ وبالتُّرَّهَـاتِ
ماأحقَّ امرىءٍ تَوَلَّى مِنَ الدُّنْـ　　ـيَا بِسَكْبِ الدُّموعِ وَالْعَبَرَاتِ !
كم تُرِيقُ الدموعَ لو أنَّ فى ذا　　لِكَ صَدَّ الرَّدَى وَرَدَّ الحياةِ

ثم ينتقل الشاعر طه حسين من هذه المقدمة إلى مدح بنى عبد الرزاق بالصبر على الضرّ ، والرضا بالواقع وإن مرّ ، والأناة فى معالجة كل أمر ، فهم قوم :

جمعوا بين عِزَّىْ الدِّينِ والدنـ　　ـيا ونُورِ الحِجَى وهَدْىِ الهُداَةِ
فَسَوَاءٌ لَدَيْهِمُو الخيرُ والشـ　　ـرُّ ، ونُجْحُ المُنىَ ، وفَوْتُ الرجاةِ
مَعْشَرٌ طهَّرَتْ قلوبهمو الحكمـ　　ـةُ والعِلْمُ عن أسىً أو شكاةِ
أنْـفُسٌ مطمئنــةٌ وقلـــوبٌ　　حُرَّةٌ مِرَّةٌ على النَّكَبَـــاتِ

ولذلك فأحياؤهم خلائف أمواتهم ، وعوض خيرٍ عن فقد خير ، وماداموا أهل علم وحكمة وصبر فهم ليسوا فى حاجة إلى توجيه العزاء إليهم أو التسرية عنهم .

والقصيدة – على كل حال – أولها كآخرها ، وفلسفتها كوصفيّتها ، لا تخرج عن أن تكون عزاء تقليديا كما كانت سابقاتها رثاء تقليديا ، دفعته إليه المجاملة ، واضطرّه إليه حب المشاركة ، لم يستطع أن يكسب بها القلوب ، وإن استطاع أن يثير إليه الالتفات ، وبكى فيها بالعقل واللسان وإن لم يبك بالقلب والوجدان ، وماتزال أداة الشعر لم تتم له ، ومَلَكَتُها لم تمحصها طول الخبرة فتنقيها من عيوب تؤخذ عليه ، من ذلك مثلا الإقواء [١] الذى ظهر فى البيت الثانى واضحاً ، واللغوية المشبَّعة بالأساليب التراثية نسمعها فى قصيده صوتا صادحاً ، من ذلك قوله – سابقا – فى رثاء محمود عبد الغفار :

– بنفسى فقيد غاله غائل الردى ....
– لئن فارق الدنيا الدنيَّة شخصه ......

ومن ذلك مانراه هنا فى قوله عن آل عبد الرازق :

أنــفس مطمئنـــة وقلـــوب　　حرة مِرَّة على النكبـــــات
ليس فيهم إلا فتى صادق　　الرأى ، شديد المراس ، صدق القناة

---

(١) الإقواء هو اختلاف حركة الروى (المجرى) وهو عيب من عيوب القافية ، فحركة روى هذه القصيدة هو الكسر ، ولكن جاءت حركة روى البيت الثانى فتحا .

فالقلوب المِرّة على النكبات ، والفتى الشديد المراس ، الصدْق القناة ، أساليب هى أدل على إلحاحه اللغوى منها على صدقه الفنِّى ، وتفوقه الشعرى .

وبين القصيدة الأولى التى نشرت لطه حسين فى الجريدة فى غرة يناير ١٩٠٨ م وكانت فى رثاء حسن عبد الرازق ، وقصيدته الرثائية الأخيرة ، المنشورة بنفس الصحيفة بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٩١٢ ، والتى كانت عزاء صديق لآل عبد الرازق ، ظهرت له مجموعة قصائده المنشورة ، إذ لم ينشر من شعر أو لم يرض أن يُنشر له من شعر بعد هذا التاريخ إلا ثمانية أبيات ، بيتان منهما قالهما مقرظا بهما مقالاً لأحمد لطفى السيد هما :

بمثل مقال الأمس يعجب كاتبٌ أديبٌ ، ويرضى عاقل وحكيمُ
حقائق غرّ ، يصدعُ الشكَّ نُورُها كما يصدعُ الليلَ البهيمَ نجومُ (١)

ثم ستة أبيات قالها مرتجلا ، يمدح بها الأميرة فاطمة اسماعيل » بمناسبة تبرّعها للجامعة المصرية ، فقال (٢) :

عِشتِ للشرق ؛ فإن الشر قَ مُحتاجٌ إليْكِ
رَفَعَ اللهُ منار الـ ـعِلم فيه بيديكِ
وهب الجامعةَ السَّعْـ ـد فنالتْ نعمتيكِ
فهى فى أمن من الد (م) هر بما فازت لديكِ
يا مثالَ الجُودِ والبِرِّ (م) لنا فى بلديكِ
إنما الحمدُ وَحُسْنُ الذِّ (م) كْرِ موقوفٌ عليكِ

وهذه الأبيات إذا كانت نتاج مايقرب من العام فإنها لدليلٌ كافٍ على هجر طه حسين لساحة الشعر ، أو نضوب الرغبة فى الالتزام له ، والتعبير به .

وإذا ذهبنا إلى أغراض أخرى غير الرثاء عالج فيها طه حسين النظم ، وأراد بها أن يجد لنفسه مكانا بين الشعراء ، فإننا نجدها موزَّعة بين السياسة والغزل وبين الشكوى والهجاء والتهنئة .

---

(١) الجريدة فى ١٧ يناير ١٩١٣ .
(٢) الجريدة فى ٩ نوفمبر ١٩١٣ .

والشعر السياسى عند طه حسين لم يكن ملتهب الأنفاس ، صادح الأجراس ، كما كان عند غيره فى تلك الفترة من أمثال على الغاياتى والأحمدين : محرَّم ونسيم والكاشف [١] ، وغيرهم .

ولكن صوت طه حسين على كل حال كان صوتا مسموعا ، إذ انضمَّ إلى الحزب الجماهيرى ، وانفضَّ عن حزب الأمة ، وكان طه حسين بانضمامه إلى الحزب الوطنى وانقطاعه عن حزب الأمة – بصيرا بما يفعل ، متدبرا أمره فيما يريد ، لأن حزب الأمة عندئذ كان قد فقد أهميته ، وتفرَّق أعضاؤه بعد أن تبخرت آمالهم فى الوصول إلى مقاعد الحكم ، إذ تحققت بسياسة السير الدون غورست خليفة اللورد كرومر ماعُرف بسياسة الوفاق بين الخديو عباس وسلطات الاحتلال [٢] ، هذا من ناحية .

ومن ناحية ثانية أن صحف الحزب الوطنى مثل : اللواء ، مصر الفتاة ، الهداية ، العلم ... وغيرها كانت أكثر رواجا ، وأوسع انتشارا ، وكانت الكتابة فى هذه الصحف أقصر الطرق وأضمن الوسائل ؛ لتحقيق مايصبو إليه طه حسين من إثبات الذات وتحقيق الشهرة .

ومن ناحية ثالثة فإن صلة طه حسين بعبد العزيز جاويش كانت قد توثقت إذ كان الفتى يختلف إليه كما كان يختلف إلى مكتب لطفى السيد ، وكان يرجو رضاء هذا كما يرجو رضاء ذاك ، فجاويش لسان الحزب الوطنى ، ولطفى السيد فيلسوف حزب الأمة ، وجاويش مدير اللواء جريدة حزبه ، ولطفى السيد مدير الجريدة لسان حزبه ، والانصهار بخبرة الرجلين أجدى على طه حسين من الانطواء فى كنف أحدهما ، فمدير الجريدة قريب من عقله ، وملجأ لتحقيق آماله ، إذ كان يُغريه بالكتابة ، ويحثُّه عليها حثا ، ويعلِّمه القصد فى اللفظ والأناة فى التفكير [٣] ، ومدير اللواء قريب من طبيعته ،

---

(١) للتزود من عطاء هؤلاء فى هذا المجال راجع : خمسة من شعراء الوطنية ، حـ ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٣ م .

(٢) طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد كيلانى ، ص ٢٠ .

(٣) الأيام ، طه حسين ، حـ ٣ ، ص ١١٦ .

مُعين على تفجير ثورة أعماقه ، إذ كان يحبِّب العنف إليه ، ويرغِّبه فيه ، ويزيِّن فى قلبه الجهر بخصومه الشيوخ ، والنعى عليهم فى غير تحفظ ولا احتياط [١] ، وهذا جانب فى تكوين شخصية طه حسين قد انغرست بذوره فى سلوكه ووجدانه ، منذ أن سلك طريقه إلى الأزهر ، واصطدم بشيوخه هناك ، وترسَّبتْ آثاره فى عقله وأشجانه ، منذ أن ترك من أجلهم الأزهر ، وسعى إلى الجامعة ، وحطَّم فى طريقه إليها العوائق والأشواك ، وماكان قد غُرسَ هناك ظلَّ يترقب فرصة تسنح فيشجوجر ، وما كان قد ترسب هناك ظل ينتظر ريحا مواتية فَيُقَلْقَلَ ويتبعثر أو يتفجر ، وتحقق له هذا كله حين فتح له جاويش الباب للكتابة ، ومدّ له سطوته ومكانته بالرعاية ، وفى هذا كله يقول طه حسين عن أثر الرجلين ومنهجيهما فى تكوينه :

« ... وكان صاحبنا موزَّعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة فى ذلك الوقت ، احدهما مذهب الاعتدال والقصد ، ذلك الذى كان الأستاذ لطفى السيد يدعوه إليه ويزيِّنه فى قلبه ، والآخر مذهب الغلو والإسراف ، ذلك الذى كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغريه به ، ويحرِّضه عليه تحريضا ، وكان الفتى يستجيب للمَذهبين جميعا ، فإذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة ، وإذا غلا نشر فى صحف الحزب الوطنى » [٢] .

هذا إلى جانب أن للشيخ عبد العزيز جاويش فضلا آخر عليه « فهو الذى عرّف الفتى إلى جماهير الناس ، ودفعه بين أيديهم ذات صباح منشداً للشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، فى بعض المناسبات .... ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز بالفتى عند هذا الحد ، ولكنه علَّمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة الهداية ، وطلب إلى الفتى أن يشارك فى تحريرها ، ثم ترك له الإشراف على هذا التحرير ، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلَّم الفتى من إعداد الصحف ، وتنسيق ماينشر فيها من فصول ... » [٣] .

---

(١) الأيام ، حـ ٣ ، ص ٤١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٨ .

(٣) عبد العزيز جاويش ، أنور الجندى ، سلسلة أعلام العرب (٤٤) ، ص ١٧٩.

من أجل هذا كله كانت أوائل القصائد السياسية لطه حسين هى قصيدته ثناء وهناء [(١)] ، والتى يهنىء فيها عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من السجن ، وكان جاويش قد دخل السجن ثلاثة شهور ، بسبب مقال تاريخى كتبه فى اللواء بعنوان « ذكرى دنشواى » [(٢)] ، ندَّد فيه بالاحتلال وأعوانه ، ووجَّه فيه التُّهم والملامة لبطرس غالى ناظر النظار إذ ذاك ، وكان يوم الحادث رئيس المحكمة المخصوصة التى عَلَّقت المشانق قبل النظر فى القضية أو إصدار الأحكام ، ووجَّه كذلك التهم والملامة لفتحى زغلول وكيل وزارة الحقانية إذ ذاك ، وخليفة بطرس غالى فى هذا المنصب ، وكان عضوا بهذه المحكمة ، من فقرات هذا المقال قوله :

« ... سلام على تلك الأرواح التى انتزعها بطرس باشا غالى – رئيس المحكمة المخصوصة القضائية – من مكامنها فى أجسامهم ، كما تنتزع السلوك الحرير من خلال الشوك ، قبضها بيده ، فقدَّمها قربانا إلى ذلك الجبار الظالم الغاضب القاهر ، القائم فى بلادنا ؛ بنفاقنا وضِعة مقاصدنا ، المستبد بالأمر فينا ؛ بسبب تفرقنا وضعف عزائمنا ، المسيطر علينا بنفر منا يخشون الإنجليز أكثر مما يخشون الله ، ويرغبون فى المال والرق ولو شقيت فى سبيل ذلك بلادهم واستُبيحت حرماتهم .

... سلام على أولئك الذين وقف هلباوى بك ، فثار فيهم ثوران الجبارين ، ثم انثنى على رقابهم فقصمها ، وعلى أجسامهم فمزَّقها ، وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلْعَن الظالمين ، وتتوعَّد الآثمين .

نعم قام هلباوى بك مقامه المشهود ، وطلب من قضاة تلك المحكمة الظالمة بذلك القلب المضطرب ، واللسان المتلجلج – أن يحشر أهل دنشواى ؛ فيُقدَّموا قرابين إلى هيكل الاحتلال الذى هو معبد الخائنين ، وقرة أعين المارقين ، فما لبث رئيس المحكمة المخصوصة ، وزميله قاضى دنشواى أحمد فتحى باشا زغلول ، أن استهوتهما الآمال ، واستنومتهما المناصب ، واسترعتهما عظمة الاحتلال ، فأنطقتهما بذلك الحكم الجائر ؛ لأرب فى الألقاب والمناصب ، وعوز النفس إلى الشعور بالواجب ... »

---

(١) مصر الفتاة ، فى ١ أكتوبر ، ١٩٠٩ .

(٢) اللواء ، فى ٢٨ مايو ، ١٩٠٩ .

هذه فقرات من هذا المقال الذى أودع جاويشاً السجن ، ووضع على رأسه أكليل الغار بعد خروجه من السجن ، ودفع الوطنيين إلى التجمُّع فى ساحة فندق شبرد ، أمام حديقة الأزبكية وقتذاك ، ليحملوه بعربته على أكتافهم بعد أن أهدوه وسام الشعب .

وطه حسين وهو تلميذ جاويش فى الصبر على المقاومة ، والدأب فى الكفاح ، وهو أيضا المدين لجاويش بما أرضعه من قدرة على المواجهة ، والانطلاق فى دروبها غير مكبوح الجماح ، كان لا بدَّ له فى هذه المناسبة أن يعبّر عن هويته السياسية ، وأن يرفع صوته بهتافاته الوطنية الحزبية ، فيبدأ هتافه بحياة جاويش ، وحياة اللواء ، وحياة مصر فيقول :

الآن حقّ لكَ الثناءُ فَلْتَحْىَ ، وَلْيَحْىَ اللواءُ
وَلْتَحْىَ مِصرُ وأهلُها شاء العِدَى أو لم يشاءوا
تعلو بها أصْواتُنَا حتى تردِّدها السماءُ
ندعو بها حتى يصمّ (م) الكارهين لها الدعاءُ
يعلو بها لِلشّيبِ والشبـ ـان والنشىءِ النداءُ
فَتَجِيبُهمْ خَلْفَ الستا ر بها العذارى والنساءُ
ثَمِلِينَ لا صَرْعَى المُدا مِ ولا استطارَ بنا الصباءُ
لكن تناهَتْ – إذ نَجَوْ تَ – لنا الْمَسَرَّةُ والصَّفَاءُ

ثم يولى وجهه شطر المحتل وأعوانه ساخرا منهم ، داعيا عليهم ، مثيراً الشعب ضدَّهم ، متوعدا ومهددا ، وفى ذلك كله يقول :

هم يُحْرَقون وَتَسْتَفِزُّ (م) هُمُو الضغينةُ والعداءُ
فَلْتَأْكُل البغضاءُ قَلْـ بَهُمُو فذاك لنا شِفَاءُ
ما ضرَّنا كَمَدُ الْعَدُوِّ (م) إذا أُتِيحَ لنا الْهَنَاءُ
إن كان ذِكْرُكَ للجلا ءِ يَسوءُ ، فَلْيَكُن الجلاء
أو كان صَوْتُ الشعبِ عنـ ـدهمو هو الدَّاءُ العياءُ
فَلْيَعْلُ صَوْتُ الشعبِ حتى يرجعوا من حيث جاءوا
قد علَّمونا أن شِدَّ تَنَا لشدَّتهم دواء

دَلُّوا بقوتهم وأعما هم من الطغوى غُثَاءُ
ما قوَّةُ الباغين إن مَحَّصْتَهَا إلا هباءُ
فَلْتَزْدَهِيهِم فى مَنَا صِبِهِمْ علينا الكبرياءُ
سَيَرَوْنَ إذ تبدو الحقيـ ـقةُ أن قوَّتهَمُ هَوَاءُ
سَيَرَوْنَ أنَّ الحقَّ مهـ ـما يُهتَضم فَلَهُ الْعَلَاءُ
لم يسجنوك وإنما رَدُّوا الأمورَ كما تشاءُ
ما إنْ أَصَابَتْكَ الإسا ءةُ ، بل لأنفسهم أساءوا

ثم يختم قصيدته بالفخر بجاويش لسان مصر ، وبإخلاص وطنيته التى سادت أخبارها بين الناس مثلا أعلى لكفاح أبناء العصر ، . ثم ينهى ختامه هذا ببيتين يُعَدَّان فى درس البلاغة العربية من شواهد حسن الختام إذ يقول :

لك من بنى مصر جميـ ـعهمو التجلَّةُ والثناءُ
فَاسْلَمْ لمصرَ وَأَهْلِهَا إنا لِنَجْدَتِكَ الْفِدَاءُ

وما أحسبنى متجاوزا الحد أو منحرفا عن سواء القصد إذا ما تراءى لى أسلوب القصيدة فى مجمله بأنه يجنح إلى صيغ الهتاف وكلمات الخطب ، أكثر مما يجمِّع حول جاويش الأحلاف ، ويثير فى حشود الشعب لهب الثورة وطغيان الغضب ، ويبدو أن انضمام طه حسين للحزب الوطنى – الذى يتخذ العداء السافر للاحتلال وأعوانه سيفا مسلولا ، ويتخذ القوة فى مواجهته والرفض لمسالمته منهجا وسبيلا – لم يُنس طه حسين أحلامه العِذاب فى أن يتم تعليمه بالجامعة بعد أن انقطع أمله فى الأزهر ، والجامعة فى يد الحكومة ، والحكومة تحت سيطرة الاحتلال ، ولم يُنسه أحلامه العِذاب فى أن يتحقق له فكرة السفر إلى أوربا ، وهى فكرة قد ألقاها جاويش فى روعه حين قال له ذات يوم « لا بدَّ من أن نصنع لك شيئا لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام » (١) ، والسفر إلى أوربا وعبور البحر لن يكون إذا ما اتُّهم بالتحريض على الثورة ، أو استعدى عليه أولى الأمر وذوى السطوة ، ويضاف إل هذا كله أنه بظروفه الصحية وآماله الشخصية لا يطيق السجن والأغلال ، ولا يتحمل التعذيب والأهوال ، ويعلن هذا صراحة إذ يقول :

---

(١) الأيام ، طه حسين ، حـ ٣ ، ص ٤٢٠ .

إنِّى لأَكتُمُكَ الحديثَ تحفُّظا وأرى السكوتَ على الأذى أَوْلَى لى
فلقد تَكُونُ قصيدتى كوسيلةٍ بينى وبين السجنِ والأغلالِ (١)

ولذلك اكتفى طه حسين – فى قصيدة هناء وثناء – بالحديث عن المحتل بضمير الغائب ، والحديث إلى المواطنين بلسان الواعظ لا بجنان المحارب ، وكذلك صنع فى غير هذه القصيدة من قصائده السياسية ، من ذلك قصيدته التى نظمها حين عرضت الحكومة مشروع مدّ امتياز شركة قناة السويس – أربعين عاماً – على مجلس شورى القوانين ، وقامت الأمة لهذا الأمر وقعدت ، فإذا بطه حسين يكتفى بأن يلعق أحزانه تحت عنوان « هم جائش » (٢) ، ويخاطب المستعمرين بلغة البائس أو فتور اليائس ، فيقول :

تَيَمَّمُوا غَيْرَ وادى النيل وَانْتَجِعُوا فَلَيْسَ فى مصرَ للأَطماعِ مُتَّسَعُ
كُفُّوا مَطَامِعَكُمْ عَناً ، أَلَيسَ لكم مما جَنَيْتُمْ وما تَجْنُونَهُ شِبَعُ ؟
تِسْعٌ وخمسون كم منهن من نَشَبٍ لو فيكمو بالكثير الَجمْعُ مُقْتَنِعُ

ويردّ تفكير المستشار المالى « مستر بول هارفى » فى هذا المشروع إلى نكد الطالع بالنسبة لمصر وبنيها ، وإلى نوم أهلها مما طمَّع الغربيين فيها فيقول :

الذَّنْبُ ذَنْبُ بنى مصرَ فَإِنَّهمُو هُمُو الذين إذا ما استُخْضِعُوا خضعُوا
همو الذين استَبَدَّتْ فى حقوقهمو يَدُ الدَّخِيلِ فما ذَادُوا وَلَا مَنَعُوا
همو الذين يقولُ الناسُ إنهمو إن صَادَفُوا مُلْهِياً عن جُوعِهِمْ قَنِعُوا
لا أكذب الله كم فينا ذوو شَمَمٍ إذا أريدت بهم مكروهةٌ فزعوا
لكنهم هُجُعٌ ، عن حَقِّهِمْ غُفُلٌ وكيف يُدْرِكُ حقا مَعْشَرٌ هُجُعُ ؟

وتبلغ به الاستكانة فى الجهاد أو الاستهانة فى المطالبة بالحق أن يختم هذه القصيدة بقوله مخاطبا رئيس الوزارة بطرس غالى :

قل للوزارة إن الحقَّ أَسْمَعَكُمْ والحق أَفْضَلُ ما يُقْفَى ويُتَّبَعُ ؟
فإن صَدَقْتُم فكم حَمْدٍ نُرَدِّدُهُ وإن تَجوُروا فإنَّ اللهَ مُطَّلِعُ

وكأنما يريد أن يقول لرئيس الوزارة : إذا عدلت فاستجبت لمطالب الأمة برفض

---

(١) من قصيدة قالها فى الاحتفال بالعام الهجرى بمجلة الهداية ، السنة الأولى ، حـ ١١ ، ١٢ سنة ١٩٣٠ .

(٢) مصر الفتاة ، فى ٥ نوفمبر ١٩٠٩ ، والقصيدة فى عشرين بيتا .

هذا المشروع فلك الحمد فى الحياة ، وإن جُرت وحققت مطامع الاستعمار بالموافقة على المشروع فليس أمامنا من سبيل إلا ترك الأمر لله .

وفى الحق فإن هذا هو موقف طه حسين ، لا موقف غيره من المجاهدين ، فغيره خرج فى مظاهرات ، وتزامل فى الجهاد مع العديد من الجماعات ، حتى رُفِضَ المشروع بإجماع الآراء ، أما طه حسين فجهاده جهاد المسالم ، ووطنيته – فى تلك الفترة ، وبالأسباب التى ذكرنا – كانت وطنية من يلوم المظلوم على أنه ظُلم ، لا من يثور له وبه ليرد عنه المظالم ، ويأخذ الحق له من الظالم ، أيا كان هذا الظالم .

وتمخَّض موقف طه حسين من قضية الجهاد الوطنى إلى اكتفائه بالشكوى ووصف الألم ، وحتى الشكاة كان يخشى على نفسه من عواقبها ؛ لأن من بيدهم عواقب الأمور لا يُرْدِ عُهم عن الأذى سلطان ضمير ، ولا يردُّهم عن الظلم عهود أو ذمم ، ويعبّر طه حسين عما يعانى هو أو غيره ، شاكيا هذا الحال للعام الهجرى البادىء فيقول : [١]

ما بَيْنَ آونةٍ تَمُرُّ وأختها	هَوْلٌ يُحِيقُ بهم مِنَ الأهوالِ
عَسْفٌ تَنُوءُ به النفوسُ وَشِدَّةٌ	سَوْأى العواقِبِ جَمَّةُ الإملالِ
ماذا أقصُّ عليكَ من آلامنا	هَيْهَاتَ هل يَسَعُ الشكاةَ مقالى ؟
إن الشكاةَ بمصرَ جُرْمٌ مُهْلِكٌ	والنَّقْدَ مَصْدَرُ مِحْنَةٍ ونَكال
من يَشْكُ أوْ يرفعْ بذلك صَوْتَهُ	فهو المهيِّجُ والسفيهُ الغالى
أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا	كُتَّابها بالضَّيْـــمْ والإذلال
وعدا على التمثيل من غُلُوائهم	عَادٍ فآذَنَ ظِلُّهُ بِزَوَالِ
نقموا من التمثيل نُطْقَ ممثل	فيه بلفظة (كامل) وكمالِ
فاهتاج هَائِجُهُمْ عليه وَأَغْلَقُوا	أبوابَهُ من غَيْرِ ما إمهالِ
سَلْ إن أَرَدْتَ النيلَ عن آلامنا	تَسْمَعْ لَدَيْهِ جَوابَ كُلِّ سُؤَالِ
وانظر فحوْلى لَوْ بَدَا لك معشر	تُرْمَى إلَىَّ لَحِاظُهُمْ بِنَبِالِ
يتلمَّسون بِكُلِّ بَيْتٍ هَفْوَةً	ويؤوِّلـون بِرأْيِهِـمْ أقـوالى

---

(١) قصيدة فى الاحتفال بالعام الهجرى ، مجلة الهداية ، السنة الأولى ، الجزء الحادى والثانى عشر ، ١٩١٠ .

من أجل ذلك آثر طه حسين السلامة ودعوة الناس إلى السلم ، وخشى الندامة من الجهر بالعناد فى الجهاد وحمل أسلحة الحرب ، وانتهى به هذا المنهج إلى اتخاذ المسالمة لا المعاندة مسلكا ، واعتبار الدعوة إلى الثورة وأعمال العنف ضلالا ومهلكا ، إلى أن وصل به الأمر إلى التوجه بالرجاء للخديو عباس بأن يمنح الدستور مصراً ، وأن يكون لوادى النيل حصنا ، وكأنما الدستور منحة وليس حقا ، وكأنما حماية وادى النيل يستطيعها عباس فرداً ، وقد سجل هذا فى قصيدته « رجاء الدستور بعد الحج المبرور » (١) التى نشرها على الملأ تهنئة للخديو عباس ، عقب عودته من أداء فريضة الحج ، يقول فى المقطع الثانى من القصيدة :

أَنْتَ والدستورُ فى الحُبِّ لَدَيْهاَ أَخَوَانْ
وَتَرىَ وَجْهَكَ باليُمْـ ـن لها نِعْمَ البشيرْ
كن لوادى النيل حِصْناً من عَوَادِى الحدثَانْ
وَامْنَح الدستورَ مِصْراً أنتَ إن شِئْتَ قَدِيرْ

بل ويصل به أمر الرجاء إلى أدنى درجات التوسُّل أو أساليب التسوُّل ، على طريقة من يمد يده أو يبسط حجره مناديا : ساعد العاجز يحسن الله لك الأجر ، وأعن المحتاج يُعِنك الله فى الدنيا وفى يوم الحشر ، يقول فى المقطع الرابع :

يا أمينَ اللهِ أرْضِ الـ ـحَقَّ يَرْضَ اللهُ عنكَ
لَيْسَ يَرْضَى اللهُ إلا بَعْدَ أن تُرْضِى العبادْ
اِمْنُح النيلَ من الدسـ ـتورِ ما يرجوه مِنْكَ
تلق حُسْنَ الأَجْرِ فى الدنـ ـيا وفى دَارِ المَعَـادْ

وحتى حين يوجِّه كلامه فى نفس القصيدة لقومه ، داعيهم إلى الجهاد فى رفع شأن الوطن ، مترفعا بهم عن التقصير والقناعة بالوهن ، كان واقفا منهم موقف الناصح لهم لا الرائد لجهادهم ، وموقف المذكّر فيهم بأمجاد أسلافهم لا المكبّر بينهم بالفداء والتضحية بأرواحهم ، فهو يطالبهم بأن يطلبوا الدستور ، وأن ينادوا بالجلاء ، ولكن مع الالتزام بالسلم ، وإعلان الإخلاص والولاء ، ومداومة الدعاء للخديو بطول العمر وامتداد الحياة ، يقول فى ثلاثة المقاطع الأخيرة :

---

(١) الجريدة فى ٢٦ يناير ١٩١٠ ، والقصيدة مكونة من سبعة أسماط مختلفة القوافى .

يابنى النيل هَلُمُّوا جَرِّدُوا للمجدِ عَزْمَا
وَدَعُوا التقصيرَ عنكم وارفعوا شأنَ الوطنْ
لا يَغُرَّنْكُمْ نَعِيمٌ طَلَبُ الْعَلْيَاءِ أَسْمَى
لا تَبِيعُوهَا بِغَالٍ ليس للمجد ثَمَنْ

* * *

أُذْكُرُوا عِزَّكم السا بقَ والمجدَ التليدْ
لا تكونوا الْخَلَفَ السـ ـيِّءَ لِلأصْلِ الكريمْ
كيف يَرْوِى النيلُ مَنْ عَنْ حَوْضِهِ لَيْسَ يَذُودْ ؟
حاشا لابن النيل أن يَقْـ ـنَعَ بالعيشِ الذَّمِيمْ

* * *

اطلبوا الدستورَ ياقو مى ونادوا بالجلاءْ
والزموا السِّلْمَ فإنّ النَّصْـ ـرَ للحق المبينْ
وارفعوا الصوتَ بإخلا صٍ وَحُبٍّ وَوَلَاءْ
لِيَعِشْ عباسُ وليحـ ـيا أميرُ المؤمنينْ

وعلى كل حال ، فإن طه حسين حين نظم هذه القصائد كان ابن العشرين ربيعا أو يزيد قليلا ، واضطرابه بين الانتماء للحزب الوطنى والإيمان بمبادىء حزب الوفد فى الجهاد الوطنى مردُّه اضطراب الحياة من حوله ، ومراعاة إثبات الذات وتحقيق الأحلام فى ظلِّ ظروفه ، فكان حسبه — من وجهة نظره — أن يكون نصيبه من الجهاد الدعوة إلى الإصلاح . والإبانة عن أوجه الضعف ، والإثارة لقضايا المجتمع ، فيقف أحياناً من بنى وطنه ومثقفى قومه لائما معنفا ، وناقدا محللا ، لعل فى لومه إيقاظاً من غفلة ، وفى نقده تطهيرًا من لعنة ، فيقول فى حديثه مع النيل [١] :

ما عَنَائِى وما عَنَاؤُكَ يانيـ ـلُ لقومٍ رَضُوا حَيَاةَ الذليل
قَنِعُوا بالصَّغَارِ وَاسْتَعْذَبُوا الضَّيْـ ـمَ فَمَالُوا إليه كلَّ مميلِ
كاتبٌ نائمٌ وذو الشِّعرِ لاهٍ وأديبٌ سَبَتْهُ كأسُ الشمولِ

وأحيانا يقف فيهم خطيبا مرشدا ، وواعظا مذكِّرا لعل فى إرشاده تقوية للهمم ، وفى تذكيره تثبيتًا للقيم ، وفى وعظه تطهيراً من الخمول والوهن فيقول :

---

(١) مصر الفتاة فى ١٨ فبراير ١٩٠٩ .

ما ثَنَاكُمْ عَن المعالى وأنتمْ — أَهْلُ عِزٍّ وَأَهْلُ مَجْدٍ أَثِيلِ ؟
يَرْتَقِي غَيْرُكُمْ سَراعاً إلى المجـ — ـدِ وأنتم عن العُلا فى ذُهُولِ
أو لستم بَني الأُولَى ابتنوا الأهـ — ـرام واستأثروا بِحُسْنِ القِيلِ ؟
أو لستم بنى الأُولى مَلَكُوا الأر — ضَ بحدِّ المهنَّدِ المَسْلُولِ ؟
نحن منهم لو لم يَحُلْ بيننا الدهـ — ـرُ وَبَيْنَ المرجوِّ والمأمولِ
ذاك عذر الخمول فى كلِّ شيءٍ — لا شَفَى اللهُ نفْسَ الخمولِ
يتجنَّى على الزمان ، وماذا — يصنع الدهر بالجبان الكسول ؟

وأحيانا ثالثا يبيِّن أن موطن الداء فى ضعف هذا البلد هو فقد الفضيلة وانتشار الضلال ، وترويج الرذيلة ، وترك شرع الله :

نَسِيَتْ مِصْرُ دِينَهاَ فَعَدَاهاَ — كُلُّ خَيْرٍ وَجَلَّلَتْهاَ الشُّرُورُ
أُهْمِلَتْ فيكمو الفضيلةُ دَهْراً — وَأُهْمِلَ فيكم كِتَابُهَا المسطورُ (١)

وإذا كان التمسك بالفضيلة والتدثُّر بهديها ، والاستظلال بالدين وتطبيق أحكامه هى وسائل الفلاح فى الدنيا والاستقرار فى الأرض ، فإن محاربة الجهل والفقر ، ورعاية النساء بالتربية والتعليم ، وإنفاق الأغنياء على الفقراء والمحتاجين لهى وسائل الرقى فى الحياة ، وأساس البناء فى الغد ، يقول ذلك بمناسبة الاحتفال بالعام الهجرى :

نَرْجُو الرُّقِيَّ ، وكيف تَرْقَى أُمَّةٌ — سَلَكَتْ سبيلَ التِّيه والإِضْلَال ؟
عَبِثَتْ بحقِّ الأُمَّهَاتِ ، وَأَغْفَلَتْ — أَمْرَ الأُمومـةِ أيمَّـا إغفـالِ
لم تُرْبِهِنَّ فَكُنَّ مَصْدَرَ شِقْوَةٍ — فيها ، وداءً للبنين عُضالِ
سادَ الذينَ عُنُوا بأمْرِ نسائهم — وسَمَوْا بهن إلى مكانٍ عَالى
أنَّى تكونُ الصالحاتُ لأمةٍ — رَغِبَ الْغَنِيُّ بها عن الإفضالِ
يُجْبِى بيمناهُ النُّضَارَ ولم يَكَدْ — حتى يَجُود على الخنا بشمالِ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فى النعيم ، وقومُه — لم يظفروا من بَحْرِهِ ببَلالِ
فالجهلُ منتشرٌ ، تَعِيثُ شُرُورُهُ — فينا ، وَتَفْتِكُ فَتْكَةَ الأغوالِ

(١) حديث مع النيل . مصر الفتاة فى ٢٦ أغسطس ١٩٠٩ .

فى كُلِّ آونةٍ تَمُد حِبالة فَتَصِيدُ صَرْعَى الفقرِ والإمحالِ
ما بَيْنَ بائسةٍ تقسّم ضَعْفَهَا نَفْسٌ مُفَرَّقَةٌ وَجَيْبٌ خَالِي
فَاسْتَرسَلَتْ فى المنكراتِ وحلّلتْ من نَفْسِها ما لم يكن بحلال
وذوى عيالٍ مُرملين غلا بهم جَهْلٌ ، وأعياهم طِلَابُ المالِ
فاستفتحوا بابَ الشرورِ وَأَرْقَلُوا نَحْوَ المآثِمِ أَيَّماَ إِرْقَالِ

وختاما لهذا الجانب فى نتاج طه حسين الشعرى أقول فى غير افتعال ، إن شعر السياسة وشعر الرثاء فى نتاجه قد تشابها من حيث أن كلا منهما لم يفصح عن شخصية مميَّزة أو عاطفة متدفِّقة أو ملكة شعرية متأجِّجة ، بقدر ما دلّ على مسايرة الظروف ، وتوظيف القدرات ، وإثارة الانتباه ، وأن يُلقى بدلوه بين الدلاء ، حتى وإن كان دلوه أصغر حجما وأقل محتوى .

ولطه حسين فى غير الرثاء والسياسة بضعة قصائد غزلية وجدانية هى بترتيب أسبقية نشرها : الحبيب المريب [(١)] ، فى القاهرة [(٢)] ، الفجور بعد العفة [(٣)] ، آه لو عدل [(٤)] ، ليت للحب قضاة [(٥)] . ولا نكاد نجد رابطا يربط بينها إلا أنها نُشرت جميعها فى صحيفة واحدة ، وفى أشهر متتابعة، قصيدة فى كل شهر ، وغير ذلك فإنها تضطرب بين العذرية والزهد ، وبين النواسية واللهو ، وهو فيها يضطرب بين الاقتناع والرضا بلواعج الحب وبين التمرد على قبول الهجر ، والسخط من الخداع والصدّ .

ففى أولى هذه القصائد نجده يدير حواراً – على عادة القدماء – بينه وبين صاحبين له ، يدعوانه إلى اللهو ، ويغريانه بالرجوع إلى الهوى ، ولكنه يرفض الدعوة ، ويتأبى على الإغراء ، لأنه جرّب من قبل ، ولم يجن من وراء تجريبه إلا الهمّ والحزن ، ويستهل هذه القصيدة بقوله :

---

(١) وقعت فى خمسة وعشرين بيتا ، ونشرت فى صحيفة مصر الفتاة فى ١٩٠٩/٩/٢١ .

(٢) وقعت فى سبعة وعشرين بيتا ، ونشرت فى صحيفة مصر الفتاة فى ١٩٠٩/١٠/١ .

(٣) وقعت فى أربعين بيتا ، ونشرت فى صحيفة مصر الفتاة فى ١٩٠٩/١١/٢٧ .

(٤) وقعت فى تسعة مقاطع ، كل مقطع يتألف من أربعة أبيات ، ونشرت فى صحيفة مصر الفتاة فى ١٩٠٩/١٢/٣١ .

(٥) وقعت فى عشرة مقاطع ، كل مقطع يتألف من أربعة أبيات ، ونشرت فى صحيفة مصر الفتاة فى ١٩١٠/١/٧ .

سِيرَا إنْ أَرَدْتُماَ وَاتْركانِى ... لِعَوَادِى الْهُمُومِ والأحزانِ
وإذا ما دعوتما إلى اللهـ ... ـو ولم أَرْضَهُ فلا تعذلانى
أصدَرتْ عن مَوَارِدِ اللَّهْوِ نفسى ... ولوتْ عنه بَعْدَ لأْيٍ عِنانى
ثابتْ لِرُشْدِهَا وتـأَنَّتْ ... ليس مستأنفُ الهوى لى بشان
وَيْكَ إنَّ الهوى وإن مَرَّ حُلْوٌ ... وَيْكُمَا فَاهْنَآ به وَدَعَانِى
ويك دع عنك خاطرْ الزُّهْدِ وَاقْبَلْ ... نُصْحَنَا ، ويكما فلا ترشدانى
ياخليليَّ لست أُخْدَعُ نفسى ... باتئناف الهوى فلا تَخْدَعَانِى
قد بَلَوْتُ الهوى فما ذُقْتُ منه ... غَيْرَ مُرِّ النَّوَى وَحُلْوِ الأَمَانى

وإذا بهذا الموقف يستدعى لديه الدوافع إلى إصراره على عدم استئناف الهوى ، فقد أحب منذ عامين سبَقا ، وإذا بهذا الحبيب بعد أن مدَّ إليه حبال الوصل أهدى إليه لوعة الصد ، وبعد أن أطمعه بمعسول اللسان أيأسه من صدق الوجدان :

لا رَعَى اللهُ منذُ عامين عَهْداً ... لى بهذا الْمهفْهَفِ الفتَّانِ
مانحِ الوَصْلِ للخَلِىِّ ، ومُهدِى ... لوعةَ الصدِّ للمحِبِّ العانى
ذائد النوم عن جفونى ومغريـ ... ـه بجفن الْعَدُوِّ ذى الشنآن
مطمعى بالمقال منه ، وَمُدْنِي الـ ... ـيَأْس مِنِّى بنائلٍ غَيْرِ دانى

ولما تأكد له أن هذا الحبيب قد استخفَّ عقله ، وابتغى من صدِّه وصلةً لإرضاء غيره ، ارتاب فى أمره ، واستعصى على هذا الحبيب وجوره ، رغم مالهذا الحبيب من جمال فريد ، وما لهذا المحب من إيمان بالحب ، وما لفؤاده من تعلق بالمحبوب :

لا تَخَفْ أنتَ فى الجمال فريدٌ ... لا يُدانِيكَ فيهِ يوما مُدانى
يميناً لولا تُقَى اللهِ أَشْرَكـ ... ـتُكَ فى طاعتى وفى إيمانى
مَالَ بالقلب عنك ريبٌ وشَكٌّ ... ما تَبَيَّنْتُ فيهما من بَيَانِ
ريبة لو جَلَوْتُ منها يقينا ... حمد العاذلون منك مكانى
لا ألومُ الفؤادَ فى الحبِّ ما لم ... يَكُ لى بالصدوفِ عنه يدان
لا أرى للغرامِ فى الغَىِّ ذنبا ... إنما الذنبُ للوجوه الحِسَان
هن أَغْرَيْنَ بالجمالِ نُفُوساً ... بَرِئَتْ من معادن الشيطان

أنا لولا الحياءُ أفشيْتُ للنا سِ أموراً يُكلِحْنَ وَجْهَ الزمانِ
غير أنى أقنى الحياء ، وأستعـ ـتِبُ نفسى بالنُّسكِ فى رَمَضَانِ

ويبدو أن هذه التجربة قد أورثت طه حسين المغالاة فى إقباله على الحب أو تمكن الحب منه ، والمغالاة أيضا فى نفوره من الصدّ وقسوة الهجران عليه ، ويتخذ هذا منهجا لنفسه ، حتى وإن لم يرض عنه رفاقه ، وفى هذا يقول فى قصيدته « فى القاهرة » :

حاشا للهِ أن أكونَ خَلِيّا من هَوَى الْغِيدِ أو غَرَامِ الغَوَانى
أنا أَصْبُو إلى الغرام ولا يُعْـ ـرَفُ لى فى الجنونِ بالحُسْنِ ثانى
لا أُحِبُّ الْهَوَىَ إذا اعْتَرَضَتْهُ شائباتُ الصُّدودِ والهجـران
ذاكَ أنِّى أَرَى الصدودَ رَسُولَ الـ ـبُغْضِ أو قَبْضَةً من العدوان
فإذا ما بَلَوْتُهُ من خليلٍ لم أُسِئْهُ ، أَلْوَيْتُ عنه عنانى
هذه خُلَّتى وإن لم يُقَابِلْـ ـهَا رفاقى إلا بالاسْتِهْجَانِ

وفى هذه القصيدة يُظهر طه حسين نفسه بمظهر الخبير فى شئون الحب وقضاياه ، ويرفع مكانة خبرته فى هذا الأمر إلى مكانة الإفتاء فى مسائل الهوى وقضاياه ، فإذا ما استُفتى أفتى ، وإذا ما أفتى وهو فى هذه الحال من اضطراب الخاطر وبُغْض الهجر والمهاجر كان إلى المبالغة أقرب ، وإلى الجور أدنى ، فإذا الهوى عنده من الهوان ، ومثل هذا الحبيب الذى يمتنع على المحب نواله أحرى بقلبه أن يسلمه إلى النسيان ، وفى هذا يقول :

أيها العاشِقُ الذى ضاقَ ذَرْعاً بشئونِ الغرامِ فاستفتـانى
قد هوينا كما هويْت وقد نعـ ـلم أن الهوى مِن اسْمِ الْهَوَانِ
غير أنى أرى شفاءك فيما قد تَلَمَّسْتُ طبَّه فشفانى
كنت أهوى وما إخالك إلا ذاكرا ما لَقِيتُهُ من فلان
شفَّنى حبُّه كما شفَّه حبى فلم يَعْدُ أن أذلَّ مكانى
مال بالودِّ حيثُ مَالَتْ رياحٌ فكفى نَفْسَهُ الهوى وكفانى
مثل هذا الحبيبِ خَيْرٌ وأبقى لك إسْلَامُهُ إلى النسيان
لا تَجُدْ بالفؤاد إلا لمن حَصَّـ ـنهُ طُهْرُهُ من الذوَبـان

وما أظن طه حسين – فى مثل هذا الموقف من قضية صَدّ الحبيب أو هجره – بعيدا عن موقفه من قضية الجهاد الوطنى ضد الاستعمار وجوره ، ففى كلا الموقفين يأخذ طه حسين جانب الحذر من الاصطدام ، والميل إلى تجنُّب عبء تحمل الآلام ، فهناك فى جهاده كان يدعو إلى السلم ، ويوصى بالولاء ، وهنا يدعو المصدود إلى الهروب ، ويرغِّب المهجور فى النسيان ، مع أنه يحفظ قول جميل بن معمر فى صد بثيناه :

وإنى لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذى　　لو ابصره الواشى لقرّتْ بَلَابِلُه
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى　　وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلَى ، وبالْحَوْلِ تنقضى　　أواخِرُهُ – لا نلتقى – وأوائله

وكذلك يحفظ قول قيس بن ذريح فى امتناع قرب لبناه :

وإن تكُ لُبْنَى قد أتى دون قُرْبِهَا　　حِجابٌ مَنيعٌ ما إليه سبيلُ
فإنَّ نَسيمَ الجوِّ يجمعُ بيننا　　وَنُبْصِرُ قَرْنَ الشمس حين تزولُ
وأرواحنا بالليل فى الحىّ تلتقى　　وَنَعْلَـمُ أَنَّـا بالنهارِ نقيـلُ
وَتَجْمَعُنَا الأرضُ الْقَرَارُ وفوقنا　　سماءٌ نرى فيها النجومَ تجولُ

وكذلك يحفظ قول الصِّمة القشيرى فى حرمانه من ريّاه :

وأذكرُ أيامَ الحِمَى ثم أَنْثِنِى　　عَلَى كَبِدِى من خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا

وكذلك يحفظ أشعار عمر بن أبى ربيعة عن حاله فى بُعد ثُريَّاه :

كئيبٌ واكفُ العينين بالحسراتِ مُنْفَرِدِ
يُؤَرِّقُهُ لهيبُ الشوقِ بين السَّحر والكبدِ
فيُمسِكُ قَلْبَهُ بِيَدٍ ، ويمسح عَيْنَهُ بِيَدِ

وكذلك يحفظ قول البحترى عن حبيبته :

لجَّ هذا الحبيب فى الهجر جِدّا　　وَأَعَادَ الصُّدُودَ منه وَأَبْدَى
ذو فنونٍ يُريكَ فى كلِّ حالٍ　　خُلُقاً من جفائه مُسْتَجِدَّا
أَغْتَدِى راضياً ، وقد بِتُّ غَضْبَا　　نَ ، وَأُمسِى مَوْلًى وأُصْبِحُ عَبْدَا

وكذلك يحفظ أشعار الأحوص فى سلامة ، وأشعار كثيِّر فى عزة ، وعروة فى عفراء ، وتوبة بن الحميّر فى ليلى الأخيلية ، وابن عتبة فى عثمة ، وغيرهم كثير ، وجميعهم

قد جرَّبوا فى الهوى تبعات صدود الأحبة وانقطاع المودة ، ولكنهم تحمَّلوا آلام هذا ، واستعذبوا عذاب ذاك . ولم يروا فى الصد هوانا ، ولم يعلموا أن الهوى من اسم الهوان ، وأن الصدَّ رسول البغض أو قبضة من العدوان ، وأن العشق رسول الفسق ومفسدة للإنسان ، كما رأى طه حسين أو تراءى له .

وعلى كل حال فإن شاعرنا هذا فى قصائده تلك لم يستطع أن يقنع قارئه بأنه العاشق العفّ الذى استأثر الحب بقلبه ، واقتلى القلب بحبه ، أو أن يقنعه بأنه العاشق العابث الذى يطلب المرأة للهوه ، ويصرّف الهوى لعبثه ؛ لأنه حين أراد أن يسلك سبيل الصراحة فى رصد لهوه وقص عبثه فإنه حاول جاهدا أن يجعل عبثه غير مجرّم ، وأن يجعل لهوه غير محرّم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فمع أنه استمتع بهذا اللهو ، واستزاد من هذا العبث الذى قال بالحل فيه مفتيان ، إلا أن ذلك لم يطُل به العهد معه ؛ إذ ماتت حبيبته ، فطوى الدهر ذكرها عنده ، وهو نفسه سلا بعد موتها حبَّه ، يقول فى قصيدته « الفجور بعد العفَّة » :

إنْ كان فى قُبْلَةٍ جُنَاحٌ	فإننى مِنْهُ فى أمانِ
لم أستبحْ نَيْلَهَا فُجُوراً	بل قال بالحِلِّ مُفْتِيَانِ
قَدْ نِلْتُهَا واستزدتُ منها	لو بَعْضُ ما نِلْتُهُ كفانى
ثم طوى الدهرُ ذاك عنَّا	لَيْتَ الرَّدَى قَبْلَهَا طوانى
لا يَشْمَت الحاسدون إنى	سَلَوْتُ حُبِّى وما سلانى

وأغلب ظنى أن البيتين الأخيرين شهادة صدق على أن طه حسين كان يحب بعقله ولسانه لا بروحه ووجدانه ؛ لأن فراق المحبوبة بالموت أو بالهجر لا يُسلى المحب عن حبه إن كان عفًّا ، ولا يصرفه عن الهوى وطلب المتع إنْ كان لاهيا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كيف تمنى الشاعر أن لو كان قد مات قبلها ، وفى هذا دلالة قاطِعة على مكانتها عنده وأثر فراقها عليه ، ثم يقرّ فى نفس اللحظة بأنه نسى حبّه هذا نسيانا تاما ، ولم يبق فى أعماقه منه أثر يرضى شماتة الشامتين أو يروى غُلَّة الحاسدين ؛ ثم يزيد على ذلك ويعترف بأنه قد اتخذ هذا الموقف – من حيث إخلاء قلبه من الحب – لأنه رأى الهوى سيُلقى نفسه فى هوة الهوان ، ويقعُد به عن طلب المعالى وتحقيق الآمال ، فما كان منه إلا أن أقنع قلبه بأن يترك هذا للمترفين والراضين بحياة الذل والأوهام :

رأيتُ أنَّ الهوى سيُلْقِى   نفسى فى هُوَّةِ الهوانِ
فَقُلْتُ للقلبِ عَدِّ عنه   وَدَعْهُ لِلْمُتْرَفِ الجَبانِ

وعلى فرض حقيقة مرور طه حسين ببعض تجارب الهوى فى صباه وأول شبابه ، وقد سجل ذلك فى أيامه ، وكرر رصدها فى أشعاره ، ومن ذلك قوله فى نفس قصيدة « الفجور بعد العفة » :

لقد بَلَوْتُ الغَرَامَ غرًّا   فكمْ بآلامِهِ ابتلانى
كم حمد الغِيدُ من بلائى   مُذ كان لى بالهوى يَدَانِ
تحكَّمَ الغِيدُ فىَّ دهرا   ثم انثنى عنهمو عنانى

أقول على فرض حقيقة وقوع هذا فإن تجارب طه حسين فى هذا الميدان كانت قصيرة العمر ، ضحلة الغور ؛ لأن ما وقع له منها قبل سكناه القاهرة والتحاقة بالأزهر كان محفوفا بظروف تقاليد الصعيد ، وهى مُحكمة ، وبمرحلة الصبا وهى مرحلة غير مُصقلة . ولأن ما وقع له منها وقد سلك سبيل الحياة – فى المدينة على سعتها ومدنيتها ، وفى مرحلة الشباب بطيشها وقدراتها – كان مكبوحا بظروف المصاعب التعليمية والنفسية والحياتية اليومية التى كانت تشغل فكره بالتحايل على حلِّها ، وتشقى نفسه بالتعامل معها ، والعجز من الهروب منها إلا إليها .

وعلى فرض كذلك طبيعية اندفاع طه حسين إلى تجريب مثل هذه العلاقة فى حياته ، بوعى من ثقافته ، وبإلحاح من سيكلوجية مرحلة شبابه ، إذ ليس ببعيد عن ذهنه ما ثقف به نفسه من أخبار عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى الملقب بالقس لنسكه ، وأخبار عروة بن أذينة ، وهو من فقهاء المدينة ومحدِّثيها ، وكذلك أخبار عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة أحد الفقهاء السبعة فى المدينة ، وهؤلاء وغيرهم أهل تقوى وأصحاب نسك ، ومع ذلك كانوا ذوى تجارب فى ميدان الهوى ، وأرباب مواقف فى شئون الغرام . وليس بغريب على من فى مثل سن طه حسين وفى مثل طموحه أن يتَّخذ من هؤلاء أو من واحد منهم نموذجا يتقمَّصه ، ومثلا أعلى يحتذيه ، فيعيد الكرَّة فى هذا الميدان تحقيقا للشهرة ، ويجرِّب حظه فى هذا المجال تمحيصا للقدرة ، غير أنه لم يحقق لنفسه فيما سعى إليه من وطر إلا ما حُمد عليه من محاولات الإذعان لمتطلبات العصر فى

التجديد الذى يُثرى القصيدة العربية شكلا ، ويكسب رضا المجدِّدين قولا وفعلا ، ولذلك يستغل طه حسين ميدان الغزل الذى يستهوى الناس رجالا ونساء ، ويملأ الأجواء والأعماق موسيقى وغناء .

ولطه حسين فيما سعى إليه من ذلك ثلاث قصائد منشورة ، أولها قصيدته « آه لو عدل » ، وقد لفتتْ صحيفة مصر الفتاة – التى نشرتها – نظر القراء بمقدمة للقصيدة أشادت فيها بصاحبها ، وبأصالة القصيدة وطرافتها ، وجاء ذلك على الصورة التالية :

« آه لو عـدل »

« يرى القارىء فى القصيدة البليغة الآتية أن صاحبها الأديب الفاضل انتهج فيها أسلوبا يظنُّه بعض الأدباء من الأساليب الإفرنجية ؛ لاتفاقها مع الشعر الإفرنجى فى التقاطيع والروى . ولكن هذا النوع لم يَفُت العرب فى جاهليتهم ، فقد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر المسمط .

وقد جعلها تسعة أسماط ، وكلّ سمط أربعة أبيات ، يتفق البيت الأول مع البيت الثالث فى الروى ، والبيت الثانى مع الرابع كذلك » .

شادنٌ عَطَفْ عَطْفَهُ الحبيبْ
بعد ما صَدَفْ صَدْفَهُ الملول
كمْ سَبَى العقولْ قولُه الخلُــوبْ
يملك القلوبْ ثم لا يُنيــلْ

* * *

كُلُّ ذى بَهَاءْ يَمْقُتُ الوِصَالْ
يُظْهِرُ الحيــاءْ وهو فى صدودْ
مَن لِذِى السهودْ منـه بالنـــوالْ
إنَّ فى الجمالْ عَثْــرَةَ الجدودْ

* * *

إنَّ فى الهوى زلَّــةَ القَـــدَمْ
فيـه كم هوَى ثَابِتُ الجَنانْ

قل لذى السِّنانْ أو لذى القَلَمْ
كلَّتِ الهِمَـمْ عنه والبَيَـان

* * *

بَدْؤُهُ مُجُـونْ يُبْهِـجُ الحيـاه
ثُمَّ بالجنـونْ ينتهى الْخَبَـرْ
إنما انـتصرْ صَاحِبُ الأنـاه
تنـقضِى مُنـاه منه إن صَبَر

* * *

أىُّ لوعَـةٍ بَيْنَ أضلعى ؟!
أىُّ عبرة تَذِرف الشئون ؟!
ثم بالشجـونْ سَحَّ أدمعـى
سِر مُولعـى ليس بالمصون

* * *

رُبَّ لحظـةٍ أصبَتِ الحليـمْ
رُبَّ لَفْظَـةٍ تخلب النُّهـى
أعيـنُ المَهـا تَصْرَعُ الكريـمْ
فاز بالنعيـمْ من حوى اللَّها

* * *

أيها الغـرامْ وَيْكَ هل تعودْ
كنتَ منذ عامْ مُنْتَهَـى الأمَـلْ
ما الذى فعل مُذْنـف عَمَـدْ
فيم ذا الصدود آه لو عدل

* * *

شَفَّ عاذلى حُبُّه العَـذَلْ
مَا لَهُ وَلِـى غالَـهُ الحِمَـامْ
لو بَلَا الغرامْ قَبْلَ ما عَذَلْ
رَشْقَـةُ المُقَـلْ تَرْفَـعُ الملامْ

* * *

أيها الفـــؤادْ دونك الغَـــزَلْ
إنما الـــرشاد فى هَوى الحِسَانْ
إن يكنُ فلانْ صَدَّهُ الخَجُـلْ
فالهوى دُوَلْ دَعْـهُ للزمـــان

والقصيدة – كما تبدو – من حيث البناء الخارجى مُحكمة الصنعة ، نضّاحة الدلالة على ما لصاحبها فى مجال النظم من مهارة وقدرة ، إذ لم يتوقف فيها طه حسين على الالتزام – فى كل سمط منها – بوحدة القافية بين كل من البيتين الأول والثالث ثم الثانى والرابع ، مع الحفاظ على اختلاف القافيتين فى كل سمط ، وإنما ألزم نفسه بنظام داخلى فى بناء شطرات الأبيات الأربعة المكونة لكل وحدة أو مقطع أو سمط فى القصيدة ، بأن جعل نهاية الشطر الأول من البيتين الأولين يقع على حرف بعينه ، وجعل نهاية الشطر الأول من البيتين الأخيرين يقع على حرف روى البيت الذى سبقه ، وكل هذا لن يكون بمواتاة الطبع بقدر ما ينتج عن إتقان الصنعة ، والقصد إلى تكثيف التنويع فى النغمة الموسيقية التى تثير الانتباه وتجذب السمع ، إذ ليس بالمجهول بالنسبة لطه حسين أنّ شرط ذيوع الشعر وشهرته أن تستمتع الآذان بموسيقاه قبل استمتاعها بمعانيه ومراميه ، وأنه لكى ينجح فى المنافسة بهذا الميدان لا بُدَّ من أن يقدِّم للمتلقى ما يرفع قدر نفسه عنده ويعليه .

وأما محتوى القصيدة فلا يخرج عن نطاق مايمكن أن يكون لمثل طه حسين فى هذا المجال ، وهو الإنسان الطموح فى الحياة ، ولكنه مقيد الحركة بقيود التقاليد البيئية من ناحية ، وقيم الحياة التعليمية من ناحية ثانية ، وبؤس الحالة الصحية من ناحية ثالثة ، وكلّ ناحية من هذه النواحى تفرض عليه انقطاع الاستمرار ، والاستسلام للفشل ، كما أنها تصبغ فكره باليأس فى النوال كما تصبغ وجدانه بالشك فى تحقيق الأمل ، ولذلك يرى فى الهوى ذلة القدم ، ويتوقع فى نهايته الجنون والندم ...

وهذا ما يقرُّه أيضا فى قصيدته « ليت للحب قضاة » ، إذ يستهلها بقوله :

شَفَّ قلبى ما يُعَانى من تَبَاريح الْجَوىَ ؟
يَعْشَقُ الحُسْنَ ولكن ليس يَحْظَى بالوصالْ
أنا مِنْ وَصْلِ حبيبى بَيْـنَ صَدٍّ وَنَـوَى
من عَذيرى مِنْ بِخَيلٍ ضَنَّ حتى بالخيالْ

ويبدو أن أمره فى تجاربه الوجدانية لم يكن فشله فيها ويأسه منها مرتبطا بصدّ الحبيب وبُخْله فقط ، وإنما هو أيضا مرتبط بمفهوم البيئة – المحيطة به – لموضوع الحب بالنسبة للشاب القروىّ الصعيدىّ بصورة عامة ، وبالنسبة للطالب الأزهرىّ الضرير بصورة خاصة . فتجربة الحب لمثل هذا الإنسان بمفهوم هذه البيئة إنما هو استهتار وفسوق ، وبالنسبة للعرف السائد بين الناس إنما هو حرام ومروق ، ولذلك قصد طه حسين إلى أن يردَّ على الناحيتين كلتيهما ، بأنه من ناحية لم يكن مستهترا فهو لم يعط لغرامه كلَّ شئونه ، ولم يَصِلْ فى حبه إلى لوثات جنونه ، وإنما كان واعيا بمفهوم الحياة ، فطِنا فيها لمسالك النجاة ، متجنبا بها دروب التيه ، فليست الحياة جَدًّا كلها فيكون بحبه قد أضاع وقته ، وليست الحياة لهوا كلها فيكون بجده قد أشقى – بلا مبرر – نفسه ، وإنما هو أعطى لحياة الجد حقها ، ولحياة الحب حظها :

ساعةٌ عِندِى للجَـ ـدِّ وأخرى للغزَلْ
فإذا مِلْتُ إلى الجَـ ـدِّ فَمِقْدَامٌ أرِيبْ
وإذا مِلْتُ إلى الحُـ ـبِّ فآبٍ للعَذَلْ
هذه جُمْلَةُ أحْـوا لِي فَهَلْ فيها ذُنُوبْ

وبأنه من ناحية ثانية لم يكن مارقا من شريعة الله ، ولا خارجا على حدود الدِّين ؛ لأن الشرع لم يحرم غراما يرعى حدود الله ، والدين لم يجرّم حبا تستقيم به الحياة ، وإنما الذين يدّعون هذا الادعاء كذابون مضللون ، فالله محبة ، والدين يدعو إلى التواد والألفة :

يقولـــون حرام قلت ليس بحرامْ
إنما حرَّم ربى فى الهوى ماكان رِجْسًا
أىُّ دِينٍ أو كِتَابٍ لم يُبِحْ وِرْد الغرامْ ؟
لا شَفَى اللهُ لأهل الـ ـمَيْنِ والتضليلِ نَفْسًا

ولكن طه حسين برغم أنه برّأ نفسه فى الناحيتين كلتيهما إلا أنه أخلى قلبه من الحب ، لأنه وجد دنياه قد عاث فيها الأدعياء ، ووجد أن المدرك فيها مبتغاه هم المحتالون لا المخلصون الأصفياء ، فإذا به ينقذ نفسه من الاستجابة للذات النفس بالتلبية لِهَذْىِ العقل ، ويعلن هذا فى قصيدته « ذلة فى الحياة » قائلا :

يا ابنةَ الكَرْمِ وداعاً لَكِ من قَبْلِ اللقاءْ
لم أذُقْهَا غير أنى طالما مِلْتُ إليها

قد دعاني لِلْهَدْيِ عقلي فلبَّيتُ الدعاء
فَلْتَمُتْ لذاتُ نفسي غير مأسوفٍ عليها

وهو بهذا قد أخذ نفسه في هذا الجانب من جوانب الحياة بالشّدة عليها في أن يميل عن شرع الهوى ، وأن يربأ بنفسه أن يُعَدَّ من أهل الغرام ، حتى صار قلبه – كما يقول – من صم السّلام [١] ، واستمر على عهده مع نفسه في هذا الشأن ، حتى سافر إلى فرنسا ، وصادف قلبه من تعلّق بها وأحبها ، ونكص على عقِبيْه فيما أخذ به نفسه من الميل عن شرع الهوى ، إذ غرق في بحوره كما سبق أن عرفنا ، وبعد أن عمقت تجربة حبه ، وصح فكره بغذاء قلبه ، شهد بصحة ما أنكره من قبل ، وقال نثراً – لأنه كان قد انقطع عن قول الشعر – أشبه بما قاله السابقون شعراً في الحب وفلسفة العشق ، من ذلك قوله :

« ... أَخَصُّ ما يمتاز به الحب أنه صلة بين طرفين أحدهما قوى دائما ، والآخر ضعيف دائما ، أحدهما يدلّ ويتيه ، والآخر يذلّ ويستكين ، أحدهما يتحكم ويتجنى ، والآخر يتوسل ويتمنى ، ولا سبيل إلى غير ذلك ، فلو قد أتيح للمحبيْن حظٌّ مشابه متساو من القوة لما أمكن أن يلتقيا ، ولفسد أمرهما فسادا عظيما .

فقوام الحب نعيم لا يكاد يتجدد حتى يتبدد ، وجحيم لا يكاد يملأ النفوس يأساً وقنوطا حتى يتجاب عنها فيردها إلى الأمل والرجاء ، وقوام الحب أيضا أن بين المحبيْن أسبابا تمتد وتشتد حتى توشك أن تنقطع ، ثم تسمح وتلين ، فإذا العبوس قد صار إلى ابتسام ، وإذا البكاء قد صار إلى ضحك ، وإذا العذاب قد صار إلى نعيم .

وقوام الحب كذلك أنه تردد بين جنة ينعم فيها العاشقون بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب إنسان – وإن كان كل إنسان يستمتع بنعيمه هذا وقتا ما – ونار يصلى فيها العاشقون عذابا أليما مهينا ، وينغص يقظة النهار ، ويذود نوم الليل ، وهذا هو الذى جعل الحب خلاصة مافى الآداب كلها على اختلافها فى الزمان والمكان واللغة من فن شائق رائق ، وجمال رائع بارع ... » [٢] .

وما هذا الإحساس بالحب إلا أحساس مجرِّب صدق في التجربة ، فآمن بفلسفة

(١) السّلام نوع من الشجر [illegible] بشدة الصلابة .

(٢) من لغو الشتاء إلى جد الصيف ، طه حسين ، مقال حب ، ص ١٤٣ ومابعدها .

الحب وتمكُّنه من النفس والحسّ فى نعيمه وجحيمه معا ، وماهذا القول فى الحب إلا نبض محنك عاش التجربة وغاص فى أعماقها ، ففجَّر هذا فى داخله إنسانا جديدا وحساً جديداً ، وفتَّق قدراته ، فأقدره على أن يقول فيه قولا جديدا عرفناه من قبل فى الفصل الرابع من هذا البحث .

وإذا كان الرثاء والسياسة والحب من الأغراض الشعرية التى تلهم الشعراء بصدق الرغبة فى القول ، وتثرى الأعماق بتدفق الانفعال بالموقف ، فإن الأقرب منها جميعا إلى نفسية طه حسين كان شعر الشكوى ، وكان « من عادة الشعراء فى ذلك الوقت أن ينظموا فى البؤس والشكوى من ضيق ذات اليد ، وكان إمام العبد يتزعم طائفة البؤساء ، وأنشأ حزبا خاصا بهذه الطائفة ، فَلُقِّبَ بإمام البؤساء ، وقد سلك طه حسين هذا المسلك ، وكان بؤسه من ناحيتين : الناحية المالية ، وناحية آفته ، وجاء شعره مصورا لحالته النفسية المؤلمة [1] » فهو حينا يشكو طول الليل إذ تتملكه فيه الحيرة ، ويستولى عليه الهمّ ، وتفزعه وحشة الوحدة وعاديات الغمّ ، وفى ذلك يقول :

رُبَّ ليلٍ قد باتَ فيه لى الهَمُّ (م) نزيلا ، أبغِض به مِنْ نزيلِ
شَرَّدَ النومَ عن جفونى وأذكى بين جَنْبَىَّ نارَ وَجْدٍ جزيلِ
قُمْتُ عن مضجعى ولا من سميرٍ فيُسَرِّى عَنِّى ، ولا مِنْ خليلِ
ساعياً والأسى يُنَهْنِهُ من همـ ـمى وَيُغْرِى عزيمتى بالقُفُولِ
سِرْتُ والقلبُ بين داجيةِ اليأ سِ وضوءٍ من الرجاءِ ضئيلِ
وإذا ماتَقَسَّمَ الْمرءَ يأسٌ ورجاءٌ لم يَدْرِ قَصْدَ السبيلِ
ليلُ أَسْجِحْ ؛ فقد مَلَكْتَ ، وأَصْبِحْ فقد سَئِمْنَا من طَوْلِكَ المرذولِ [2]

وشكوى طه حسين من الليل هنا فى حقيقتها أمر طبيعى ، بسبب حالته الصحية ، وقد أفصح عن ذلك كثيرا فى سجلّ أيامه ، فقد « كان يقضى ليله خائفا مضطربا ، إلا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه إلا قليلا » [3] وشكواه من الليل هنا فى

---

(١) طه حسين . الشاعر الكاتب . محمد سيد كيلانى ص ٣٥ .
(٢) من قصيدة « حديث مع النيل . مصر الفتاة فى ٢٨ / ٢ / ١٩٠٩ .
(٣) الأيام . طه حسين . جـ ١ ص ١٢ .

مجازيتها ذكاء عملى فى التعبير عن مشاعره الوطنية ، فلقد ربط هنا بين طول الليل وثقل ظلامه ، وبين جثوم المستعمر على أرض مصر واستحكام ظلمه ، وهو فى ربطه بينهما يتحدث عنهما — حينًا — على أنهما شيئان تشابها فى الطول المرذول والأثر المذموم فيقول لليل :

ظَلَمَ الإنجليزُ مِصرَ فَهَلْ جَا رَيْتَهُمْ أَنْتَ فى المُقَامِ الطويلِ ؟

ويتحدث عنهما حينا آخر على أنهما شىء واحد مركب من عنصرين امتزجا ببعضهما امتزاج السالب بالموجب فى تكوين الدائرة الكهربائية ، فالعطل فى أحدهما يبطل أثر الآخر ، والعمل لأحدهما غير منفصل عن تفاعل الآخر :

ليلُ بِن لا رجعتَ ، وَاغْرُبْ فَإناً قد سَئِمنَاكَ من مُدِلٍّ مُطيلَ
لو أرادَ اللهُ أجلاكَ عَناً فانْجَلَتْ غَمْرَةُ العَدْوِ الدَّخِيلِ

وهو حينا ثالثا يشكو ظلم الدهر الذى يعبث بأمانيه فتتعثر خطاه ، وإذا ما رام أن يثأر منه لم يجد فى حربه عليه إلا طغيان أذاه ، وفى هذا يقول فى حديثه مع النيل :

هُنَّ الأمانى مَلَكْنَ قلبى يا وَيْحَ قلبى من الأمانى
ذدْن كَرَى النَّوْمِ عن جفونى وَقُلْنَ للصفـو لا يرانى
أدنيـنَ أسْبَابَهُـنَّ مِنِّـى ونائِلُ الدهرِ غَيْرُ دانى
بينى وبين الدهر حَرْبٌ لا صَنَعَ اللهُ للزمـانِ
لن يَبْلُغَ الثأرَ من زَمَانٍ من صَالَ بالسيفِ والسِّنانِ
إن كان يُغنى البيانُ عَنِّى فإنَّنِى صَاحِبُ البَيَـانِ

وينتهى الشاعر فى حربه مع الدهر إلى الاستسلام للبؤس ، والرضا بما ابتُلى به ، وما قُسم له ، فى ثبات جأش وترويض نفس ، وهو فى شكواه الدهر وسوء حظه فيه يلبس عباءة أستاذه أبى العلاء ، ويتبوأ مقعده بين الأحياء ؛ ليعيد إلى الأذهان ترانيم تشاؤمه ، وأقانيم تبرمه ، وليفيض — فى إتقان — بما تنضح به أعماقه من تعلق بفلسفته وانتهاج لمنهجه ، فمرَّة يقول بعد الأبيات السابقة :

مَنْ حَارَبَ الدهرَ لم يَسَعْهُ إلاَّ رِضَاهُ بِكُلِّ شَانِ
لم أَمْضِ عشرين غير أنِّى بَلَوْتُ دهرى كما بلانى
ما أنا والحادثاتُ إلا كالريح والأغصنِ اللِّدَانِ
أَمِيلُ بالنفسِ حيث مَالَتْ مُثَبَّتَ الجأشِ والجَنَانِ

ومرة أخرى يقول — من قصيدته — فى القاهرة — :

عَلِمَ اللهُ أنَّ حَظِّى فى البؤ سِ كبيرٌ ، لكننى غيرُ عانِ
كلُّ حَظِّى من السعادةِ أنى رُضْتُ نفسى على خُطُوبِ الزمانِ
لا أُبَالِى إذا استَبَنْتُ طُلُوعَ النَّجـ ـمِ بِسَعْدٍ أمْ بِنَحْسٍ دَهَانى
لا أُبَالِى إذا عَرَفْتُ صديقا أشَفَتْــهُ مَوَدَّتى أمْ قَلَانى
أنا لا أجْتَوِى مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ سُوءَ حَظِّى مِنْ كَثْرَةِ الإخوانِ
كُلُّهُمْ ثَعْلَبٌ إذا أعْوَزَتْـه حاجةٌ زارنى ، وإلا ازدرانى

وما ذلك الذى قاله طه حسين بمنقطع الصلة عن قول أستاذه المعرى :

ولما أن تجهَّمَنِى مُرَادِى جَرَيْتُ مع الزمان كما أرادا
وَهَوَّنْتُ الخطوبَ عَلَىَّ حتّى كأنى صِرْتُ أُمْنَحُهَا الودادا
أأنكرها ومنبتها فؤادى وكيف تنكر الأرض القتادا ؟
فأىّ الناسِ أجعله صديقا وأىّ الأرضِ أَسْلُكُهُ ارتيادا

وكذلك كان أمر طه حسين فلم يتخذ من بؤسه طريقا إلى اليأس ، وإن كان فى لحظة من لحظات الضعف قد جعل منه منفذا للنظر إلى ما فى متناول الآخرين من يُسْر ، ودافعا إلى الإفصاح عما يعانيه ويحيط به من ضروب العسر ، فإذا به ينفث على شوقى سكناه القصور وتمتعه بحياة الترف واللين ، وينفث على جافظ قدرته على الحركة ، ومصادقته للموسرين الذين يجنبونه عوز المعوزين ، أما هو فمعاناته ممتدة ، متشعبة : فقر ، وفقدان بصر ، وأصدقاء أنانيون مستغلون ، ولكنَّه يعزى نفسه بإقباله على الدرس ، وانشغاله بالأدب ، وفى ذلك يقول :

إذا شكا البؤسَ كُلُّ نَدْبٍ فقد نجا منه شاعران
بَيْنَا نُعانيهِ كان شوقى يَقْصِفُ فى كَرْمَةِ ابنِ هانى
وحافِظٌ فى القطارِ يلهو مُشَرَّدَ الهمِّ غيرَ عانى
أذاك أم مَسَّهُ شَقَــاءٌ فَانْتَجَعَ الواصِلَ الْمُدَانى
ثم انْثَنَى وهو بالصفايا من صَلَفِ الدهرِ فى ضَمَانِ
فلْيطِبْ الشاعرانِ نَفْساً إنَّــا رَضِينَــا بما نُعَــانى
ما سرَّنى ساعةً كبؤسى والأدب الغضّ صاحبان
لقد شَنِئْتُ الصحابَ حَتَّى وَدِدْتُ لَوْ كُلُّهُمْ جَفَانى

وكانت شكوى طه حسين غير مرهونة بما يقول شعرا ، وإنما كانت أيضا مبثوثة فيما كتب نثرا ، وقد سجّل على نفسه هذا الإلحاح فى الشكاية ، حتى عيب عليه أنه – فيما قال – قد جانبه الحياء ، وضل الغاية ، من ذلك ماحدَّثنا به عن نفسه بعد أن عاد من فرنسا إلى مصر بسبب إعلان الحرب ، يقول :

« ... وفى هذه الأشهر الثلاثة شكا الفتى كما لم يشْك قط فى حياته ، شكا شعرا ونثرا ، حتى لامه فى ذلك بعض الصديق ، وقال له قائلهم : أين الصبر ؟ وأين الإجمال ؟ وأين الشجاعة والاحتمال ؟ وأين عنك الحياء حتى كتبت فى بعض الصحف هذين البيتين ؟

الحمدُ للهِ على أننى قد صِرْتُ من دهرى إلى شَرِّ حَالِ
لا أَمْلِكُ القوتَ ، ولا أَبْتِغِى مَا فَاتَنِى مِنْهُ بِذُلِّ السُّؤَالِ

وقال له قائلهم أيضا : أملك عليك نفسك ، فإنك إن تكن تشكو الزمان إلى الزمان فهو لن يسمع لك ، لأن الزمان أصم غبى غافل ذاهل ، لا يعرف بنيه ولا يسمع لهم ، وإن كنت تشكو الزمان إلى الناس ، فالناس مشغولون عنك بأنفسهم ، وهم بين رجلين : عاطفٌ عليك ولكنه لا يقدر لك على شىء ، وقادرٌ على معونتك ولكنه لا يحفل بك ، ولا يلقى إليك بالا ، ولو قد أهدى إليك العون لما قبلته منه ، فما أرى أنك ترضى لنفسك هذا الهوان .

ولكن صاحبنا لم ينقطع عن شكايته ؛ لأنه لم يكن يشكو الزمان إلى الزمان ، ولا يشكو الزمان إلى الناس ، ولا ينتظر من الزمان ولا من الناس شيئا ، وإنما كانت الشكاية غناء نفسه المحزونة ، وباله الكئيب .. » (١) .

وأغلب الظن أن هذا التعقيب من طه حسين لَمِن قبيل حسن التعليل وبلاغة التبرير ، وليس من قبيل توخّى الحق وابتغاء الصدق ، إذ لابد لحزن النفس من دواع تثيره ، ولا بد لكآبة البال من أسباب تفرزها ، وإلا لفسق المحزون من تلاد فطرته ، وانسلخ المكتئب من ركاز جبلته .

---

(١) الجريدة فى ٢ نوفمبر ١٩١١ .

ولطه حسين – غير قصائده فى الرثاء والسياسة وفى الحب والشكاية – بضعة مقطوعات أو قصائد قصار فى الهجاء والتهانى ، وهى نتاج لحظتها ودواعى موقفها . وهجاء طه حسين شعرا لم يبلغ حد الإثارة التى عُرف بها شعر الهجاء عند القدماء من الهجاءين ، وتهانيه لم ترهف مزماره فينفرد نغمه ويتميز رنّه فى أسماع المتلقين .

فمن أهاجيه الشعرية قصيدته التى نشرها بعنوان : « الشعر العصرى إلى عبد الرحمن شكرى » [1] ، رداً بهذه القصيدة على مقال كتبه شكرى بعنوان « لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربى » ، وذكر فى مقاله هذا اسم طه حسين ذكر المنكر عليه قدره ، والمفسد له رأيه ، من ذلك قوله :

« قرأت عِدَّة مقالات فى الجريدة ، لأديب اسمه طه أفندى حسين ، ويعجبنى منه كثير من صريح آرائه ، غير أنى لا أرى رأيه فى قوله : إن سليقة الشعر قد فسدت ، وإن أسلوب شعراء هذا العصر أسلوب فاسد ، إذا قيس بأسلوب شعراء الدولة العباسية ... وربما ظن القراء أن الشعراء يقيسون الشعر على التفاعيل فى وقت صنعه ، هذا مايظنه كثير ممن لا يعالجون الشعر ، وأظن أن هذا ما يظنه الأديب طه أفندى حسين ، ومايعنى بقوله إن سليقة الشعر فسدت ... » [2] .

عندئذ ثارت ثائرة طه حسين على طريقة شكرى فى الغمز به من حيث إنه بالنسبة له خامل الذكر ، وفى اللمز له من حيث أنه عدّه ممن لا يعالجون الشعر ، فإذا بطه حسين يرد على غمزه بغمز أمرّ ، معلنا أن شكرى « فى الشعر والنثر أديب لا يعجز النقادا » ، ويرد على لمزه بلمز أضرّ ، مدَّعيا عليه بأنه فى القريض ليس بأمضى منه سهما ولا بأورى زنادا ، وأن قليله فى هذا المجال خير من كثير شكرى على كثرة ما قال ، وفى تفصيل هذا أو نظمه شعراً يقول :

قُلْ لِشُكْرِى فَقَدْ غلاَ وَتَمادَىَ ... بَعْضُ ما أنتَ فيه يُشْفِى الفؤادَا

بَعْضُ هذا ، فأنتَ فى الشّعْرِ والنثـ ... ـرِ أديبٌ لا يُعْجِزُ النُّقَـادَا

---

(١) الجريدة فى ٢ نوفمبر ١٩١١ .

(٢) طه حسين الشاعر الكاتب ص ٤٢ وما بعدها .

لو تَفَهَّمْتَ قَوْلَنَا لم يُكَلِّفْـ ـكَ هَوَى نَقْدِنَا الضَّنَى وَالسُّهَادَا
عُذْ إليه تَجِدْ شِفَاءَكَ فيهِ إنما نَمْقُتُ الحديثَ الْمُعَادَا
وَاقْتَصِدْ فى الغُلُوِّ ، إنَّ لَدَيْنَا إنْ تُسَائِلْ بِنَا نِصَالاً حِدَادَا
خَلِّ عنكَ القريضَ لَسْتَ بِأَمْضَى فيهِ سَهْماً ، وَلَا بِأَوْرَى زِنَادَا
إنْ تَكُنْ مُكْثِراً فَرُبَّ مُقِلٍّ حَاوَلَ الْقَوْلَ مَرَّةً فَأَجَادَا
كُنْ إِذَا شِئْتَ آمِناً مُطْمئِنًّا لم نُحَاوِلْ لِماَ تَقُولُ انْتِقَادَا

ورغم مغالاة طه حسين فى هجائه ، وإسرافه فى ادّعائه ، إلاّ أن القصيدة لم تثر المناصرين لشكرى والعارفين بقدره ؛ ليردوا على طه حسين ويوقفوه عند حدِّه ، ولم يتبعها استمرار لطه حسين فى قرض الشعر ؛ ليُثبت صدق زعمه من حيث إنه فى هذا الأمر فوقه أو حتى ندُّه . غير أنّ طه حسين بهذا الموقف من شكرى – وإن كان موقف خصومة – وبهذا الاحتكاك بشكرى – وإن كان احتكاك معاداة – وبمثل هذا الموقف وهذا الاحتكاك مع غير شكرى من الشعراء والكتاب ، قد استطاع أن يحطم بؤسه الذى كان يعانيه من حيث إغفال الناس له وإهمالهم لما يكتب ، ولولا إسرافه فى الادعاء ، ومبالغته فى الخصومة لما تحقق له نجحه فى الشفاء من هذا البؤس ، ولا نجحَ فى التطهُّر من كآبة هذا الحس .

ومن تهانيه قصيدته « يوم القران »[1] ، وقد قدّم لها طه حسين بقوله : « دُعيت إلى حفل أقامه صديقى الأديب ... أحمد حسن الزيات ، لعقد قرانه بكريمة المفضال سيد النجار ، فلما أجبت الدعوة ، راقنى ما كان فى الحفل من جمال وظرف ، ولا سيما ذلك النوع من الغناء القديم الذى اشتقت لسماعه . » ولكن الصحيفة التى نشرت القصيدة قدَّمتْ لها بقولها : « قالها صاحب الإمضاء يهنىء بها صديقه صاحب الحفل ، ويحمد من حفله أن جمعه بصديق له طالت بينهما الجفوة فأصلح بينهما » وجاءت القصيدة على النحو التالى :

---

(١) مصر الفتاه ، فى ١٥ يناير ١٩١٠ .

ياخليلــــيَّ سَلَامِــــى حَبَّــذَا يَوْمُ القَـــرَانِ
حَبَّذَا أَمْسُ فقـد أَدْ نى نَوَالاً غَيْـــرَ دانِ
حَبَّـــذَا ليلـــةُ أمس رَاقَ لى فيها زمـــانى
ليلـــة قد نِلْتُ فيها من حُظُوظى ما شفانى
ليلـة قصّر فى تقريظـ ـهـــا أمسُ لِسَانى
أنـــا لا أحمد منها حُسْنَ توقيـع الأغـانى
إنما أحمد منها حُسْنَ أُنسِى بفــلان
وسرورى بصديقــــى وهـو فى أحسنِ شان
لم أزلْ أقصفُ حتى خِلْتُ أنى فى الجِنَانِ
بينما نحن على ذلك زُفَّ القمـــران
آه يازيـات ما أجـــ ـمـلَ ساعـاتِ الأمـانى
هن قد هِجْنِ لنفسى ذكـرِ سِحْـرٍ وعنـان
أنـا لولا سوءُ حظِّـى لم أكنْ إلا ابنَ هانى
ياشقيــقَ النـفْس ضَنَا قَ الشعرُ عن نَظْمِ التهانى
لا تَلُمْنِى إن دَعَوْتُ الشِّعْـ ـرَ ، والشِّعْـرُ عصانى
جلَّ حُبِـىِّ لك يازيا ت عن وَصْفِ الْبَيَـانِ

والقصيدة كما تبدو لى أقرب إلى بساطة المجاملة وسطحية الارتجال منها إلى عمق التجربة وصدق الانفعال ، فالمناسبة على بهجتها ، والليلة على بهرجتها ، والتجربة على توافر عناصر الإثارة لها ، وتدفق المشاعر فى زحامها وبهائها ... كل ذلك لم يطلق لخيال طه حسين العنان ، فيترسم سقوفه المموَّهة ، ويصور أرضه المزركشة ، ويصمم جدرانه الموشاة بهندسة الفن وانسجام الألوان ، هذا فيما يتصل بالجمال الوصفى الذى يقاس بالنظر التخيلى أو النظر البصرى ، ويخرج منه الفكر بنسب هندسية ومكوّنات جمالية تثرى العقل وتثير الوجدان .

أما فيما يتصل بالجمال الروحى لهذه المناسبة أو تلك الليلة أو التجربة ، وما ينطوى عليه جمالها الروحى من المعانى المستترة والعواطف المتقدة ، والأحلام المرتقبة ، وغير

ذلك مما تخضرُّ به الأرواح بعد يبس ، وتفيض به القلوب بعد نضوب ، وتتنضَّر به الأعماق بعد شحوب .:. فلم يكن له فى وجدان طه حسين أثر ، ولا فى تصوُّره له أبعاد تتحدَّد أو تبتكر .

ولعل طه حسين قد أحس بذلك فأسرع ليتخذ من نفسه شاهداً على ذلك ، بالاعتذار عن تقصير لسانه فى تقريظ هذه الليلة ، وعن ضيق قدرته الشعرية عن نظم التهانى اللائقة بهذه المناسبة ، ويبرر ذلك بسموٌ حبه لشقيق نفسه « الزيات » عن وصف البيان . وموقفه هذا يذكرنا بموقفه من عاهة فقد البصر وأثرها على المبتلى بها فى مجال الشعر ، حيث قال عن المكفوف « .. ثم هو بعد ذلك قد حرم التمتع بلذة يكبرها الناس ، وجهله إياها يضاعف خطرها فى نفسه ، فإن تعاطى صناعة الشعر أو الوصف فإن هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله ، وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والوصافين فيما يتنافسون فيه إلا أن يكون مقلداً أو محتذياً » (١) .

و بعــــد :

فإذا ماكنت الآن قد بلغت الريّ من ظمأ الطموح إلى الكشف عن صلة طه حسين بالشعر ، من خلال أثر عاهته عليه وصراعه معها فى إثبات وجوده ، وإثارة الانتباه إليه ، فإن من دواعى إتمام الحديث فى هذا الأمر أن نجنى ثمار هذه الرحلة لطه حسين فى مجال الشعر ، أو أن تستحصد لأنفسنا - من تجوالنا فيما حاول ونشر - كلمة حق ، أريد بها الاستهداء بما قاله طه حسين عن نفسه وما قاله الآخرون عنه فيما نظمه أو أبدعه ، وهى فى البدء وجهة نظر تتغيا الصدق ، وإن كانت غير قاطعة ولا جامعة .

أما طه حسين نفسه ، فهو لم يشهد لنفسه بأنه شاعر بين معاصريه من الشعراء ، ولم يصبر على نفسه فى مجال الشعر بالاستمرار فى العطاء إلى أن تتميز فيه شخصيته ، ويفرض على البيئة المثقفة من حوله كينونته الشعرية وهويته ، وإن كان قد شهد لنفسه - شهادة صدق - بأنه فى بداية الأمر : « كان ينظم شعرا على نحو هذا الشعر الذى كان يقرؤه فى كتب القصص ، يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه ... » (٢) ، وأنه لما شَبَّ

---

(١) راجع الفصل الثالث من هذا البحث : الآفة وطه حسين علاقة وصراعا .

(٢) الأيام ، جـ ١ ، ص ١٣٣ .

عوده والتحق بالجامعة « جرَّب نفسه فى الشعر بين يدى أستاذه المرصفى »[١] ، وأنه لما جاوز سن الشباب والكهولة ، وأخذ ذات مساء فى ذِكْرِ الصبا وأيام الطلب ، شهد لجليسه الصديق بأنه قبل أن يتجاوز سن الشباب كان قد « أعرض عن الشعر كل الإعراض ، بعد أن استبان له أنه لم يقل الشعر قط ، وإنما قال سخفا كثيرا »[٢] ، بل إن جليسه الصديق حين ذكّره بموقفه فى مدرسة مصطفى كامل ، وإنشاده قصيدته العصماء التى أنشأها بينه وبين نفسه يستقبل بها عيد الهجرة وكان مطلعها :

كُنْ أنتَ بعد أخيك خَيْرَ هِلَالِ   وَأَضِيءْ لِمِصْرَ سَبِيلَ الاستقلالِ

فإذا بالشيخ يرثى لما ضاع من شبابه ، وما أنفق من جهده فى غير طائل ولا غناء .

وهذا الذى يشهد به طه حسين – على غير كُرْه منه أو اضطرار إليه – إنما هو صوت الحق فى أمر طه حسين فى هذا الميدان ، وكذلك هو رأى الناقد طه حسين فى شِعْر الشاعر طه حسين دون مجاملة أو نكران .

وأغلب الظن أن طه حسين – بهذه الشهادة على هذا الجانب من جوانب عطائه الأدبى ، فى تلك الفترة المبكرة من حياته ذات الامتداد والتنوع فى مجالات الإبداع الفنىّ – قد أنصف نفسه ، وكان بذلك بصير القلب حكيم الرأى ، فمحا كمته شعره بإظهار ماعليه ، وبأنه قد استبان له أنه لم يقل الشعر قط ، وإنما قال سخفا كثيرا ، إنما هو بهذا كأنما قد حرَّر لنفسه شهادة البراءة – بيده لا بيد عمرو – من أن يوضع شعره موضع الموازنة مع شعراء عصره شبابا كانوا مثله أو كهولا وشيوخا سبقوا إلى هذا المجال خطوه ، فهم قد ساروا فى هذا الطريق إلى غايته فى قدراتهم ، ولكنه هو قد توقف عنه قبل أن يوجد لنفسه مكانا بين أثريائهم أو مكانة بين أشقيائهم . وهو بهذا – أيضا – كأنما قد حرَّر لنفسه شهادة البراءة – بيده لابيد زيد – من أن يوضع شِعره موضع المقارنة بنثره ، فالنثر – بانطلاقه وطلاقة مكوناته ، واتساع ساحته فى ذاك الزمان للإبداع فيه والإضافة فى ضروبه ، والريادة فى بعض دروبه : مقالا أو بحثا أو ترجمة أو قصا ... إلى غير ذلك من أنواعه وتآليفه – قد

---

(١) الأيام ، طه حسين ، حـ ٣ ، ص ٣٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٧ .

أتاح الفرصة لطه حسين أن يحقق الريادة فى طريقة المقال وفى منهج البحث ، وكذلك فى مجال الترجمة وفنية القص ، فالموازنة بين شعره ونثره - مهاراتٍ وإضافةً - إنما هى بالحق موازنة بين عملٍ عاناه لقضاء حاجة ، وبين فنٍ صافاه حتى استدرَّ مجاجه .

أما الذين تعرضوا لهذه الجانب من جوانب طه حسين فى العطاء الأدبى فهم قلة ؛ لأن انقطاع طه حسين عن نشر الشعر ، وإعراضه كل الإعراض عن نظمه ، وانشغاله بالعطاء المتتابع فى النثر وفنونه ... أسكت النقاد عن تمحيص هذا الجانب فى عطائه ، لأن كل ماأعطاه فى رأى أكثرهم إنما هو إيذان بميلاد شاعر ، ولكنه لم يصبر على الإبداع فيه ليبلغ به الثبات له واستكناه مجاليه ، مكانة المبدع أو خلود الظافر .

وهم على قلتهم مختلفون فى الرأى ، متباينون فى وجهة النظر ، وقد بلغ بينهم هذا الاختلاف أو ذاك التباين - أحيانا - حدَّ التناقض الذى يجعل من طه حسين مبدعا فى الشعر على رأى ، ودعيًّا فيه على الرأى الآخر ، ولم يكن حكم أحدهما مجرَّدا من الهوى أو مبرَّءا من الغرض .

أما الرأى الذى يجعل من طه حسين مبدعا فى مجال الشعر ، فإنه كان شهادة شقيق نفسه ، وزميل دراسته ، وزعيم جماعته الأدبية وهو أحمد حسن الزيات ، وقد أدلى الزيات بهذه الشهادة فى مناسبة تتطلب المجاملة ، وتتقبل المبالغة ، إذ وقع هذا فى حفل تكريم طه حسين بمناسبة حصوله على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩١٤ ، وكان الزيات أحد الخطباء فى حفل التكريم ، فحدّث عن تفوُّق الطالب الأزهرى طه حسين فى مجال الإبداع الشعرى ، وأن تفوقه هذا كان مفاجأة لزملائه ، والزيات واحد منهم ، وكان شيخهم المرصفى قد كلَّفهم بالكتابة فى موضوع من الموضوعات شعراً ونثراً ، يقول الزيات فى شهادته هذه :

« ... فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى - طه حسين - لن يبزَّنا فى نثر الكلام ونظمه ، وإن بزَّنا فى حفظه وفهمه ، ولكن ماذا تقولون وقد غدا علىّ الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع ، جاهلية الأسلوب ، تمثِّل ما انطبع فى خاطره من صور الشعر القديم ... سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا ، وسترنا ما قلنا ، وشعرنا بالضعف أمام تلك القوة النادرة ، فأحللناه منا محل الإنسان من العين ، والسواد من القلب ، ومضينا على

أثره نخوض بحور الشعر ، فتارة نطفو ، وأخرى نرسب ، وهو فى السباحة ماهر وبالطريق خبير ... وبعد عامين من هذا التاريخ [أى بعد عام ١٩٠٥] استطاع بطلنا أن ينزل الشعر على حكمه ، ويروضه لذوقه ، فصاغ الشعر الحضرى العصرى فى مختلف الأوضاع ، لأنه وإن كان محافظا فى اللغة فإنه حرّ فى الشعر ، رأى ما يُثقل الشعر العربى من قيود القافية ، فوقع فى نفسه أنْ ينفس عنه ، فاخترع له الأضرب المختلفة ، والقوافى المتنوعة ، على نحو مايصنع الإفرنج فى شعرهم ، إلا أن شعره أجمل وأكمل ؛ لاحتفاظه بالذوق العربى والطابع الشرقى ... فأنتم ترون أيها السادة أنه فكر وهو يافع فى تذليل كبرى العقبات فى الشعر العربى ، وهى القافية التى يئن منها عامة شعرائنا ، ولكنهم يتألمون ولا يتكلمون أو يتكلمون ولا يعملون ... أشهد أن بداية فتانا فى الشعر خير من نهاية أكثر شعرائنا العصريّين » (١)

ولا شك أن الحصول على الدكتوراه بمصر كان – آنذاك – فى المجال الجامعى وفى حياتنا التعليمية حدثا فذا ، وصار طه حسين بأسبقيته فى تحقيق ذلك . حديث الناس ، ونموذجا فردا ، ومناسبة تكريمه هذه تخصب عواطف الأصدقاء بالتدفق فى المجاملة ، وتفسح المجال – فى تنافس المتنافسين – للتفنُّن والمبالغة ، فإذا ماكان المجامل صديق دراسة وشقيق نفس أو زميل كفاح وخليل حس ، فإن المجاملة منه تكون أوسع مبالغة ، والمبالغة فى كلامه تكون أكثر إفتنانا وأقدر إقناعا ، ولولا ذلك لما وجد طه حسين فى الساحة الأدبية من يقول عن بدايته فى الشعر : « أشهد أن بداية فتانا فى الشعر خير من نهاية أكثر شعرائنا العصريين » ولهذا السبب كانت مجاملة المجامل وشهادة الصديق لا تؤخذ فى مجال النطق بالحكم ، ولا تحسب فى دوائر قول الحق ؛ إذ لم يبرأ المقول من الهوى ، ولم يتجرد لالتزام الصدق .

وأما الرأى الثانى الذى يجعل من طه حسين دعيًّا فى مجال الشعر ، وعييًّا فى الإضافة فيه ، فكان حكم ثائر ضد طه حسين ، فى جو مشحون بالغضب عليه ، والاتهام له فى علمه وفى دينه ، بَعْد أن نشر كتابه فى الشعر الجاهلى ، فأحدث به فى مجال الدراسة ، وفى دوائر الثقافة والسياسة ، ضجيجا لم يخمد أواره ولم تنته آثاره إلا بعد أن تغير جيل ، وتبدلت ظروف ، وتغيرت عقول وأحوال ، وكان صاحب هذا الرأى هو الشيخ

---

(١) الجريدة ، فى ٢٦ مايو ١٩١٤ .

حسن البنا ، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين ، فى مقال له نشره فى مجلة الفتح [١] ، انتقد فيه تأخير تنفيذ حكم المحكمة العمومية بإعدام كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وزاد على ذلك بطلبه امتداد قرار المصادرة إلى الطبعة المعدّلة من الكتاب ، والتى ظهرت بعنوان « الأدب الجاهلى » ؛ لأن الكتاب ، بطبعته المعدلة – فى رأى حسن البنا – لا يخالف سابقه إلا بالتسمية ، ويحرص « البنا » فوق ذلك على الدعوة إلى إقصاء طه حسين عن التدريس والجامعة ، لأنه فى رأيه متهم فى مواهبه الخاصة فى المادة التى يقدمها لتلاميذه ، وفى طريقته فى التفكير ، وفى مايبثُّه فى نفوس طلبته من أخلاقه وطباعه ، وهذه هى الجهات التى يُنظر إلى المدرس منها .

وحين برّر « البنّا » اتهاماته فى الجانب الأول ، الخاص بالمواهب الخاصة لطه حسين ، تحدث عن عطائه فى مجال الشعر فقال :

« ... طه حسين لا يحسن الشعر وإن حاول ذلك ، فأتى بالغثّ المتكلف الذى يمجُّه الطبع ويستثقله السمع ... ويستشهد على حُكمه هذا بلامية طه حسين التى يقول فيها :

لا درّ درّ المالِ إنْ لم يُدَّخَرْ ... لِبَناءِ مَكْرُمَةٍ وَحُسْنِ فِعَالِ
لا درّ درّ المال إن لم يدّخر ... إلا لذاتِ الطَّوْقِ والخُلْخَالِ
لا درّ درّ المال إن لم يدّخر ... إلا لِنيْلِ مراتبِ الإجلال
ماذا يفيدُ وسامُ صاحبنا إذا ... سَبَقَتْ إلى الحُسنَى يَدُ الحمَّال ؟
أيجودُ تلميذٌ بدرهم يومه ... عن طِيب نَفْسٍ غير ذاتِ مَلَالِ ؟
ويجودُ مُضْطَرٌّ بِقُوتِ عِيالِهِ ... جَذْلان لا يُصْغِى إلى العذال
والأغنياءُ على الملاهى عُكّفٌ ... صَرْعَى الْمَلَاحِظِ والهوى الْخَتَّالِ
إنى لأخشى أن تَصِيرَ أُمُورُنَا ... إن دَامَ بُخْلُهُمُو لِأَسْوَإِ حَالِ [٢]

---

(١) مجلة الفتح ، يصدرها محب الدين الخطيب ، العدد ٢٠٢ ، الصادر فى الثامن محرم عام ١٣٤٩ هـ (يونيو ١٩٣٠) .

(٢) من قصيدة فى الاحتفال بالعام الهجرى ، الهداية ، عدد ديسمبر ١٩١٠ .

ويعلق الشيخ حسن البنا على ما استشهد به من هذه القصيدة – التى وصفها طه حسين نفسه فى أيامه بأنها قصيدة عصماء – فيقول : ... إلى آخر ما قال من هذا النظم المهلهل النسيج ، المتنافر اللفظ ، الضئيل الغاية » .

والحق أن الحكم على جميع شعر طه حسين بأنه غث متكلف يمجُّه الطبع ويستثقله السمع ، وأنه نظم مهلهل النسج ، متنافر اللفظ ، ضئيل الغاية ، إنما هو حكم لم يبرأ من الهوى الذى كان مبعثه السخط على طه حسين ، أو عدم الرضا عن جرأته فى الرأى ، واصطدامه بمسلمات ثابتة فى مسائل الدين وقضايا الفكر ، ولم يبرأ أيضا من الجنوح إلى إغماط الحق وتعمية كلمة الصدق ، لأن ما نشر لطه حسين من شعر لا نعدم فيه بيتا شارداً أو مثلا سائرا ، أو حسنة تعبير بليغ أو تركيب متين ، بل لا نعدم فيه قصيدة اجتمعت فيها عناصر الإجادة وانبث فيها روح التجديد ، بمقاييس تلك الفترة ، وذوق ذاك العهد ، وإلا فكيف ينشر له ؟! والساحة مليئة بالفرسان ، ومحررو الصحف – التى نشرت له – أصحاب قلم ولسان ، ولا يعسر عليهم التفرقة بين غث القول وبين حسن البيان .

ولصاحب « طه حسين الشاعر الكاتب » رأى ثالث وموقف ، وسط لم يتطرف فى التصنع لطه حسين أو الإسراف فى مجاملته والثناء عليه كما صنع الزيات ، ولم يتحيف فى التهجم عليه ، والمبالغة فى مخاصمته ، والإساءة إليه كما يُفهم من مقال حسن البنا ، وإنما رأى أن طه حسين قال الشعر فى بداية حياته الآدبية فأجاد حينا ، واحتذى بغيره من شعراء عصره أحيانا ، وأنه ترك الشعر إلى النثر مختارا ، بحثا عن الميدان الذى يحقق فيه ذاته ، ويستعجل به بين الناس شهرته ، وأنه لو استمر فى نظم القصيد ، والتفرغ لفن الشعر لأوجد لنفسه بين شعراء عصره مكانا غير مجهول ، ومكانة بيّنة الدليل ، وفى هذه المعانى يقول :

« .. وقد شغلت الدراسات الجامعية طه حسين ، وغيرت اتجاهه ، فترك طريق الشعراء إلى طريق آخر ، لقد فكر فوجد أن الشعر لايجلب له الشهرة التى يرنو إليها ؛ وذلك لأنَّ الناس كانوا مشغولين بشعر شوقى وحافظ ومطران وغيرهم ، فلم يجد طه حسين لنفسه المكان اللائق بين الشعراء ، ورأى أن كتابة المقالات فى النقد الأدبى ونقد

المجتمع ، والتهجم على رجال الأزهر ، وعلى بعض الشخصيات الأدبية أجدى عليه كثيرا من نظم القصائد ، وأجلب للشهرة ... ولو أنه استمر فى نظم القصائد لكان له شأن بين الشعراء المعاصرين ... » [١] .

ومأأظن الحق – بعد ماعرضت من شعر طه حسين – أن أقول معه – كما قال هو عن نفسه – أنه لم يقل الشعر قط ، وإنما قال سخفا كثيراً ؛ لأنه فعلا قد قال شعرا ، وكان حين نشره راضيا على مايقول منه كل الرضا ، بمقاييس وعيه فى زمان قوله ، وهو لم يتبرأ منه أو يظهر عدم رضاه عنه ، إلا بعد أن استمر انقطاعه عن معالجة النظم مدة تزيد على عشر سنوات ، وأصبحت تجربته فيه ، ومعالجته له ، رصيد إضافة فى سجل الذكريات ، ثم إنه بعد أن أتم دراسته فى فرنسا ، وعاد إلى مصر مزوداً بما تزود به هناك من الثقافة الأدبية والفنية والفكرية ، وأخذ يتابع كتابة المقالات النقدية فى فنون الأدب والفكر ، وكان فيها ثائراً ومثيراً معاً ، فإنه وجد عندئذ – بحكم نضجه واستكمال وعيه النقدى – أن ماقاله من شعر لو طبَّق عليه المقاييس النقدية التى يقيس بها نتاج الشعراء من حوله لوجد أن ماعليه فيه أكثر بكثير مماله منه ، وسيظل شقاً فى عطائه الأدبى ، وهو فَطِن ذكى ويحفظ قول القائل : إن دواء الشق أن تحوصه ، فتراءى له أنَّ رتْق هذا الفتق لن يكون إلاّ بالتبرؤ منه وإعلان عدم الرضا عليه ، وكذلك كان موقفه – كما سوف نعرف – من مقالاته النقدية فى نقد نظرات المنفلوطى ، فما زال يتبرأ منها حين نضج واشتهر حتى كاد يُنسى قراءه ودراسى نتاجه النقدى صحة نسبها إليه .

ومأأظن الحق – بعد ماعرضت من شعر طه حسين – أن أناصر قول الزيات أنه كان فى بحر الإبداع الشعرى بالسباحة ماهر وبالطريق خبير ، فاخترع له الأضرب المختلفة ، والقوافى المتنوعة على نحو مايصنع الإفرنج فى شعرهم ، إلا أن شعره أجمل مما صنعوه وأكمل مما أبدعوه ، وأن بدايته كانت فى الشعر خيرا من نهاية أكثر شعرائنا العصريين ، لأن هذا القول لايؤازره واقع ولا يؤيِّده حق ؛ إذ لم يكن فى أضربه المختلفة مخترعاً ، ولم يُحدث بتنويعه القوافى ابتكارا ، وإنما كان – لما فى موروثنا من التراث الشعرى –

---

(١) طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد كيلانى ، ص ٤٤ ومابعدها .

مقلدا واعيا ، وكان بما فى بعض قصائده من مظاهر التجديد فى البناء الخارجى للقصيدة محتذياً طامحا ، وسنوات قوله الشعر لاتتعدى أن تكون إيذانا بميلاد شاعر ، وتقليده أو احتذاؤه – فى هذه المرحلة من عمر الشاعر – لايغفل عنها أو يتبرأ منها إلا مجامل أو مكابر .

وما أظن الحق – بعد ماعرضت من شعر طه حسين – أن أوافق رأى « البنا » فى أن طه حسين لم يحسن الشعر ، وأنه لما حاول أن يقول شعراً أتى بالغث المتكلف الذى يمجه الطبع ويستثقله السمع ؛ لأنه نظم مهلهل النسيج ، متنافر اللفظ ، ضئيل الغاية ، إذ إن الشيخ حسن البنا يحكم على نتاج قد انقطعت صلة صاحبه به ، وتوقف عن معالجته منذ مايقرب من عقدين من الزمان ، وهذه مدة تكفى لأن يتطور ذوق المتلقى ، فيرفض الآن ماكان مقبولا منذ عشرين عاما ، ولأنْ تنضج تجربة المبدع بصقل موهبته واستكمال قدراته ، فيصل – فى مجال الإبداع بعد مرور هذه السنين من الدأب والممارسة – إلى مرحلة يصعب أن نجد بينها وبين بدايته فى هذا المجال اتصالا أو وصالا . فإذا ماأضفنا إلى ذلك أن الشيخ حسن البنا لم يكن من المشهورين بنقد الشعر ، والمشغولين بقضايا الأدب ، وأنه قال ما قال فى جو مشحون بالسخط على طه حسين ، ومتوتر بهياج الغضب عليه والاتهام له ، لأمِنّا عندئذ جريرة الغمْط لحق طه حسين فيما حاول واجتهد .

وماأظن الحق – أخيراً – بعد ماعرضت من شعر طه حسين أن أشارك رأى صاحب « طه حسين الشاعر الكاتب » فى أن شاعرنا هذا ترك طريق الشعراء إلى طريق آخر اختياراً . لأنه فكر فوجد أن الشعر لايجلب له الشهرة التى يرنو إليها ، وذلك لأن الناس كانوا مشغولين بشعر شوقى وحافظ ومطران وغيرهم ؛ فكثير من الشعراء قد برزوا فى هذا المجال واشتهروا فى تلك الفترة التى كان طه حسين ينشر فيها شعره ، رغم انشغال الناس بشعر شوقى وحافظ مطران ، بل إنهم شغلوا بإنتاجهم هؤلاء الشعراء أنفسهم وفرضوا عليهم أن يشهدوا لهم وأن يحتفوا بهم ، من هؤلاء مثلا شكرى والعقاد والمازنى وغيرهم ، حتى إن حافظ إبراهيم – رغم ذيوع صيته وعظمة شهرته آنذاك – يقول فى عبد الرحمن شكرى – وقد ظهر شعره فى الفترة التى أخذ طه حسين ينشر شعره – ولم يكن عمره قد تجاوز العشرين :

أفى العشرين تُعجز كل طوق وتُرقِصنا بأحكام القوافى
شهدتُ بأن شعرك لا يجارى وذكيتُ الشهادة باعترافى

ولكن طه حسين فى رأيى قد ترك العطاء فى هذه الساحة اضطرارا ، وليس اختيارا ، لأن تكاليف الإبداع فيه تتطلب التفرغ له ، والدأب عليه ، بعد استكمال المكونات الأساسية للشاعر من ملكة أصيلة ، وموهبة متفتحة ، وطبع مُواتٍ ، ووجدان خصب ، وخيال رحب ، وعواطف متدفقة ، أما الحصول على الثروة اللغوية ، والتمكن من أوزان البحور الشعرية فحسب ، فإن هذا لا يخلق شاعراً مبدعاً ، ولا يؤجج وجدانا مقفراً .

وعلى كل حال فإن طه حسين الفتى الطموح ، لم يخسر بتجربته مع الشعر شيئا وإن تبرأ مما أعطى فيه ، فلقد تكشّف فى هذه التجربة قدراته ، وتبصّر طريقه ومراميه ، ولمّا استبان له السبيل الذى يعلى قدره ، ويميّز شخصه ، أخلص الدأب فيه ، حتى صار فى بعض نواحيه نسيجا وحده ، وهو فى الحالين كان بصيراً بمايترك ، وبصيرا بما يأخذ ، مصدِّقا فى الطريقين حدسه ، ومباركا فى الحالين قصده ، فما تركه وأعرض عنه – وهو باب الشعر – كان مسبوقا إليه من غيره ، وما أخذ به ، وأخلص له ، ودأب عليه – وهو باب النثر – صار عطاؤه فيه ملفتا الدنيا نحوه ، جامعاً العالم من حوله .

* * *

أثر العاهة فى أسلوب طه حسين
سلوكاً وأداءً

حين ينصرف البحث إلى استيضاح أثر العاهة فى أسلوب طه حسين ، لا يمنعنا التحديد الشائع لكلمة « الأسلوب » — لغويا وعلميا وفنيا — من أن نأخذ بها طليقة غير مقيدة ، وعامة غير مخصصة ، فنعنى بها الطريق المسلوك ، والمنهج المتّبع ، والخطة المترسّمة ، لا فى فن القول ، ومنهج البحث ، وأشكال التعبير فحسب عند طه حسين ، وإنما هو كل ذلك عنده — أيضا — فى مواجهة المواقف ، وترويض النفس ، وتوجيه السلوك . فأسلوبه يعنى فى هذا المقام شخصيته ، بكل ما يحمل مصطلح الشخصية عند علماء النفس من حدود يتحدد بها ما يمّيز الفرد عن سواه ، ويتمخّض عنها مجموع صفات سلوكية وعقلية وخلقية يتفرّد بها بين الناس .

وما ذهبت بهذه الكلمة هذا المذهب الأوسع إلا لأن الآفة التى أصيب بها طه حسين — وهو صغير — لم ينحصر أثرها فى جانب من جوانب حياته دون جانب ، ولم ينحسر أثرها فى مرحلة من مراحل عمره دون أخرى ، وابتدأ هذا الأثر يتبلور — فى سلوكه — فى شكل عادة تتكرر ، منذ أن كان صبيا طُلعة ليس بالقنوع ، وانتهى هذا الأثر فى تمكّنه منه بأن صار خطة لم تتغيّر طوال مرحلة تكوينه الاجتماعى والثقافى ، وكان شابا فطنا ، متدفّق الطموح .

والتحمت العادة هناك بالخطة هنا ، فصارتا شيئا واحداً هو منهجه فى السلوك أو نظامه فى اقتحام مطاوى الطريق ، وما هذا المنهج الذى دأب عليه — أو ذاك النظام الذى انتظم فيه — إلا أسلوبه الذى لم يفتأ يغفل عنه ، ولم يقدر على أن يهرب منه فى أوقات السعة أو أحوال الضيق ، وفى حركته فى الحياة من حيث معاملته لنفسه وتعامله مع

الآخرين ، ومن حيث أيضا دوافعه إلى العطاء والإنتاج ، وتثبيت أقدامه فى صفوف المتميزين المقتدرين .

ولقد سبق التعرف على علاقة طه حسين بآفته ، وأثر ذلك على علاقته ببيئته - اجتماعية كانت أو تعليمية - وما تقدم هناك وثيق الصلة بما نسعى هنا إلى تأصيله أو تسجيله ، وإلى استنباطه أو تبريره ، وإن كان القصد هناك هو تحليل العلاقة الجوانية بين هذه الآفة وبين طه حسين فى رحلة صراعه معها ، فإن غاية الجهد هنا هو تحديد آثار هذه العاهة على صاحبها فى صراعه بها مع نفسه ومع غيره : سلوكا فى الحياة ومع الأحياء ، ومنهجا فى الإنتاج أو أسلوبا فى العطاء .

أما سلوكه فى الحياة ومع الأحياء بأثرها عليه فقد انحصر فى طورين متتابعين متناقضين :

- طور التحرُّج والحياء .

- وطور التمرد واستفزاز الأحياء .

وأما منهجه فى الإنتاج - أو قل أسلوبه فى العطاء تحت تأثيرها - فقد اضطرب فى مجالين متتاليين طبيعيَّيْن :

- مجال الاحتذاء والتقليد .

- ومجال الإضافة والتجديد .

أولا : أثر العاهة فى أسلوب طه حسين سلوكا فى الحياة ومع الأحياء :

(١) طور التحرّج والحياء :

إن طفلا يشاء له قدره أن يعيش هذه التجربة القاسية ، تجربة فقد البصر ، وهو فى بداية المرحلة العمرية التى ينزع فيها صاحبها إلى تعرّف الأشياء ، وينشط إلى استكشاف ما لا يعلم - بتلقائية غريزية ، ودوافع طبيعية ، ووعى طفولى غير ناضج - لابد من أن يكون أحد اثنين : أحدهما أن يكون طفلا خاملا ، باليا ، كسولا ، غير مهتم حتى بطرد الذباب من فوق وجهه ، وثانيهما أن يكون طفلا طُلعة ، نشيطا ، غير هيّاب ولا جبان ، لا يخشى العجز من تحقيق غايته ، ولا تثنيه العاهة عن تلبية رغبته ، والإصغاء لنوازع نفسه ، والاستجابة لميول حاجته .

وكان الطفل طه حسين من هذا الطراز النشيط الذى يحب استكشاف ما لا يعلم ، وإن كلّفه ذلك كثيرا من العناء والألم ، ولكن حادثة واحدة فى هذه المرحلة المبكرة من عمره قد حدثت له ، وكان من وراء حدوثها عاهته ، فكان لحدوثها أعظم الأثر فى نفسه ، أو قل أول أثر حقيقى فى أسلوبه مسلكا فى الحياة ومع الأحياء ، إذ حدّت ميله إلى الاستطلاع ، وقيدت حركاته بشىء من الرزانة والإشفاق والحياء ، وكان ذلك حين جلس إلى العشاء بين إخوته وأبيه ، وخطر له خاطر وهو أن يأخذ اللقمة بكلتا يديه ، فأخذها ، وغمسها من الطبق المشترك ، ورفعها إلى فمه ، فأضحك إخوته منه ، وأبكى أمه عليه ، وأحزن قلب أبيه [1] . ولولا هذه الآفة لما خطر له خاطر إمكانية تناول الطعام فى بيئة ريفية عربية دينها الإسلام بغير يد واحدة هى يمنى اليدين .

ومنذ هذا الحادث المبكر يبدأ أثر العاهة فى نفس طه حسين ، وفى أسلوبه – منذ صغره – مسلكا ونظام حياة فى طعامه وشرابه ، وفى لعبه وقضاء وقت يقظته ، ثم فى تحقيق هويته وبناء شخصيته ، بل وفى ما يختار من أسلحة لإمكان وجوده ، وتعويض نقصه .

ولقد أفاض طه حسين – فى « أيامه » . فى تجلية هذا الأثر من خلال إقراره بما انتهجه لنفسه فى طعامه أو شرابه إذ « اصطنع لنفسه إرادة قويّة ، استطاع بها أن يحرِّم على نفسه ألوانا من الطعام لم تُتَح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين ، حرَّم على نفسه الحساء والأرز ، وكل الألوان التى تؤكل بالملاعق ؛ لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة ، وكان يكره أن يضحك إخوته ، أو تبكى أمه ، أو يعلمه أبوه فى هدوء حزين » [2] وإذا ما اتخذ أهله فى شهر رمضان ، أو أيام المواسم الحافلة ألوانا من الطعام حلوة ، ولكنها تؤكل بالملاعق ، كان يأبى أن يصيب منها على المائدة ، فإذا ما أفردتْ له أمّه طبقا خاصا ، وأخلت بينه وبينه فى حجرة خاصة ، راح يغلقها من دونه ، حتى لا يستطيع أحد أن يشرف عليه وهو يأكل » [3] .

---

(١) قد سبقت الإشارة إلى هذه الحادثة فى الفصل الأوّل : الآفة وطه حسين .

(٢) الأيام ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٣) الأيام ، جـ ١ ، ص ٢٥ .

بل إن هذه الحادثة كما يقول « قد أخذته بألوان من الشدة فى حياته ، جعلته مضرب المثل فى الأسرة ، وبين الذين عرفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية ، كان قليل الأكل ، لا لأنه كان قليل الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشره ، أو يتغامز عليه إخوته ، وقد آلمه ذلك أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن تعوده ، حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس ، كان يسرف فى تصغير اللقمة ... وكان يستحى أن يشرب على المائدة ؛ مخافة أن يضطرب القدح من يده ، أو ألا يحسن تناوله حين يقدّم إليه ، فكان طعامه جافا ما جلس على المائدة ، حتى إذا نهض عنها ليغسل يديه من حنفية كانت هناك ، شرب من مائها ماشاء الله له أن يشرب ، ولم يكن هذا الماء نقيا دائما ، ولم يكن هذا النوع من ريّ الظمأ ملائما للصحة ، فانتهى به الأمر إلى أن أصبح ممعودا ، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سببا » (١) .

وكذلك كان أمره حين خرج من بيته فى القرية ، وذهب مع أخيه ليسكن الربع بحيٍّ الأزهر فى القاهرة ، فحين يجلس أخوه بين الجالسين حول المائدة المنخفضة « الطبلية » وقد وضع فى وسطها طبق الفول وإناء المخلل ، يتنافس الجالسون فيما يلتهمون وما يعبّون ، والصبى جالس بينهم قد أطرق إلى الأرض ، وحنى ظهره حتى كأنه القوس ، ويده تذهب وتجىء فى أناة وخوف واستحياء ، بين الرغيف قد ألقى أمامه على هذه المائدة ، وبين هذا الطبق قد قام بعيدا عنه فى وسطها ، ويده تصطدم بهذه الأيدى الكثيرة المسرعة التى تهوى لترتفع ، وترتفع لتهوى ، وتنزح الطبق فى أثناء ذلك نزحا ... وما هى إلا لحظات وقد فرغ ما كان فى الطبق ، ونظفت المائدة إلا من فتات ضئيل ، ومن نصف الرغيف الذى كان قد ألقى أمامه ، فلم يستطع أو لم يرد أن يتجاوز نصفه » (٢) .

وحين يُدعى إلى العشاء – بعد حصوله على الدكتوراه – على مائدة علوى باشا ، مع أساتذته الذين امتحنوه ، جلس إلى المائدة ، ولكنه – كما يقول – : « لم يُصب من الألوان التى قُدِّمَتْ شيئا ، كان شديد الحياء بطبعه ، وكانت المهابة تملك نفسه ،

---

(١) الأيام ، حـ ١ ، ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ، حـ ٢ ، ص ١٧٨ ، ١٨٠ .

وتفسد عليه أمره كله ، وكان لا يدرى ماذا يصنع بشخصه كله ، وقد وُضعت أمامه أدوات المائدة فلم يمسها ، حتى أدركه منها ذعر شديد ، ماذا يصنع بالملعقة ؟ وماذا يصنع بالشوكة والسكين ، وكيف يتصرف بها ؟ ... أليس الخير كل الخير فى أن يلبث فى مكانه هادئا ساكنا لا يعرض نفسه لسخرية أو إشفاق ؟ وظل فى مكانه هادئا ساكنا أيضا ، لا يحرك يدا ولا لسانا » [١] .

وكذلك كان أمره فيما يتصل بطعامه وشرابه وهو خارج حدود الوطن ، تلزمه عاهته التحرُّج من الحركة ، والحياء من الناس ، وهذا هو يقص علينا حاله حين امتطى السفينة التى أقلَّتْه إلى فرنسا ، بعد أن جاء الفرج ووافقت الجامعة ، فإذا به يلزم غرفته بالسفينة ، ولم يذهب مطلقا إلى غرفة المائدة ، « وكيف يذهب إليها وهو لا يحسن الحركة فى السفينة التى لا تستقر ، ولا يعرف الجلوس على موائد الطعام ، ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التى يستعملها الناس حين يطعمون ، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين من الأوربيين ، بيديه كلتيهما أو إحداهما ، كما كان يصنع فى مصر ، فليس له بُدٌّ إذن من أن يصيب طعامه فى غرفته » [٢] وما أقل ما يصيب من الطعام حين يُقدَّم له .

وكذلك يقص علينا نفس المشاعر التى تملَّكته هناك ، والمنهج الذى انتهجه حين وطئت قدماه أرض فرنسا ، والتحق بالسربون – « أنه كان يستحى من كل شيء ، ويكره أن يثير الضحك منه ، أو الرثاء له والإشفاق عليه ، وكان شرطه حين سكن فى البيت الذى أقام فيه ألا يشارك أهله فى طعامهم ، وإنما يخلو إلى طعامه الذى يحمل إليه ، ويوضع بين يديه ، ثم يخلى بينه وبينه ، فيصيب منه ما يستطيع ، لا ما يريد ، يحسن ذلك أحيانا ، ويخطئه أحيانا أخرى ، وربما وُضع بين يديه من ألوان الطعام ما لا يحسن تناوله ، فيتركه مؤثراً العافية ، محتملا فى سبيلها ما قد يتعرض له أحيانا من ألم الجوع » [٣] .

وهكذا ظل أثر هذه الآفة على طه حسين فى ناحية طعامه وشرابه ، آخذا نفسه

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٥٠٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٧٨ .

بالشدة والحرمان شعورا بالحياء ، وتجنبا للحرج فى أى مكان ، ومن أى إنسان ، واتخذ لنفسه فى هذا الأمر نظاما : « لا يذهب إلى مائدة عامة ، ولا يأكل مع آخرين إلا مضطرا ، وإلا بعد أن خطب قرينته ، فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألفها » [١] .

وكذلك كان أثرها عليه — صغيراً — فى مجال لعبه وقضاء وقت يقظته ، لم يكن أهون أمراً ، أو أخف وقعا ، إذ دفعته إلى « أن يحرِّم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شىء ، إلا ما لا يكلفه عناء ، ولا يعرضه للضحك أو الإشفاق ، فكان أحب اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد ، وينتحى بها زاوية من البيت ، فيجمعها ويفرقها ، يقرع بعضها ببعض ، ينفق فى ذلك ساعات ، حتى إذا سئمه وقف على إخوانه وأترابه وهم يلعبون ، فشاركهم فى اللعب بعقله لا بيده ، وكذلك عرف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظ » [٢] .

بل وانصرف منذ طفولته عن ألوان اللهو الذى يألفه المبصرون ، بسبب فقدانه حاسة البصر ، إلى لون آخر من اللهو ، هو الاستماع إلى القصص والأحادث وإنشاد الشعر ، فيبصر — كل ما يسمع — بعقله ، ويجمع — كل ما يتاح له — بسمعه ، ويتأمل هذا ويخزِّن ذاك ، إلى أن تفرد فى هذا الأمر بين أترابه من المبصرين وتميز ، ووطَّن حياته على هذا العوض ، وروَّض قدراته ، وشحذ مهاراته ، متخذا من عقله عينين حادتين ، ومن سمعه يدين قويتين ، ومن ذاكرته كتابا حافظا ، ومن الصبر على ما أخذ به نفسه من ألوان الشدة ، والصبر على الحرمان — دثاراً واقيا ، ومدداً باقيا .

وظل طه حسين بسبب تحرجه وحيائه يتجنب ألوان اللهو التى تحتاج إلى الإبصار ، حتى وإن كان هذا اللهو هو النزول إلى البحر أو قُل الاستحمام فى حمام الرجال ، ولما حدث له هذا الأمر وقد أُكره عليه ، بإلحاح سكرتيره « ألبير » ، وبعض أصدقائه المحيطين به ، والمراعين له ، اعتبر هذا العمل الذى قام به أو وقع له ، معجزة أو شبه معجزة ، فإذا به يكتب لزوجته رسالة بدايتها : لقد أنجزت عملا بطوليا خارقا : لقد

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥ .

(٢) الأيام ، جـ ١ ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

تحممت اليوم فى البحر ، ويختم لها قصة هذا العمل البطولى الخارق وهو نزوله بمساعدة معاونية فى حمام الرجال فى سان استيفانو ، فيقول : أتظنين أننى سأعيد الكَرَّة ؟ كان الأمر ممتعا ، لكنه فى منتهى التعقيد [١] .

ولم يتوقف أثر العاهة فى نفس طه حسين ، وفى أسلوبه – منذ صغره – مسلكا ونظام حياة ، فى طعامه وشرابه ولهوه فحسب ، وإنما تجاوز هذا الأثر حد هذا الجانب إلى جانب آخر أكثر وضوحاً فى تاريخ حياته ، لأنه الجانب الذى تحققت من خلاله هويته ، ونضجت بفعل آثاره شخصيته ، وثقفت فى ميدانه أسلحته التى اختارها لإثبات وجوده ، وتعويض نقصه ، وكان هذا الجانب الخطير فى حياة طه حسين ، والمتأثر بأثر عاهته فى حياته تأثراً عظيما إنما هو الجانب التعليمى .

وذهاب بصر الطفل فى الشرق كما يقول طه حسين – « يحدِّد حياته فى أكثر الأحيان ، فيرسم له طريقا لا يعدوها ، وهى طريق الدرس وتحصيل العلم ، ومن آثار ذلك أنك لا تكاد ترى الآن رجلا فقد بصره طفلا إلا وهو دارس للعلم ، أو متكسب بتلاوة القرآن ، ذلك لأن ذهاب بصره قد حال بينه وبين التماس العيش من طريق التجارة أو الصناعة أو غيرهما من مذاهب الحياة التى تحتاج إلى الإبصار ، على أن نصيبه من العلم محدود أيضا ، فهو لا يستطيع أن يجتهد فى تحصيل العلوم التجريبية التى تحتاج إلى البصر : كالطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية ، فإن حصل على شىء من ذلك فإنما هو عرض قد ألمّ به من غير أن يتقنه أو ينبغ فيه ، إنما يستطيع أن يدرس العلوم العقلية واللسانية والدينية ، وأن يكون راويا للأدب أو التاريخ أو نحوهما من هذه الفنون » [٢] .

وما أحسب طه حسين بحديثه هذا فى تجديد ذكرى أبى العلاء إلا معرّضا بأثر آفته عليه ، من حيث أنه لم يكن مختاراً فى أن يتجه إلى دراسة العلوم العقلية واللسانية والدينية ، ولذلك حفظ القرآن فى كتَّاب القرية ، واستظهر الألفية على يد قاضى المحكمة الشرعية ، وتردَّد على علماء المدينة وفيهم الحنفى والمالكى والشافعى ، ومنهم أصحاب الطرق ، أو المتصل بشيخ من كبار أهل الطرق ، اختلف بين هؤلاء جميعا ، وأفاد منهم

---

(١) راجع القصة فى كتاب معك ، سوزان طه حسين ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ، طه حسين ، ص ١٢٢ .

جميعا » حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم : ضخم ، مختلف ، مضطرب ، متناقض ، ما أحسب أنه عمل عملا غير قليل فى تكوين عقله الذى لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض » [١] ثم يذهب الصبى مع شقيقه الأزهرى إلى القاهرة ، فيلتحق بالأزهر ، ثم تفتح الجامعة الأهلية أبوابها ، فينتسب إلى الجامعة ، وتلوح له ومضة الأمل فى الفوز ببعثة تعليمية إلى فرنسا ، ليكمل تعليمه ، فيسعى وراءها ويمتطى ركابها ، وهو فى كل هذا مدفوع بأثر عاهته عليه ، مبتغ دفع ضررها عنه ، مهما كلّفه ذلك من جهد واحتمال مشقة ، وكأنى بالرجل يخلع على أبى العلاء المعرى صفات نفسه ، أو يستعير لنفسه صفات أستاذه ورائد طريقه فى السلوك والمنهج أو الخطة ، فإذا به يقول : « لم أكد أعرف الحياة حتى عرفت معها أنى سجين ، وأن الناس من حولى مطلقون ، يرون مالا أرى ، ويحاولون من الأمر مالا أستطيع له محاولة ، فضقت بهذا السجن أشد الضيق ، ولكنى صبرت ، واحتملت ، وعملت ، وأملت ، ولم آل نفسى مع ذلك نصحا ، فاحتملت الحياة على ما رسمت ، ومضيت أحصل على العلم وأجدّ فى تحصيله ... » [٢] .

وإذا كان أثر العاهة فى هذا الجانب من حياة طه حسين قد تجسّد فى رسم طريقه ، وتوجيه غايته ، فإن أثرها فى أسلوبه الذى انتهج بهذه الطريق وهذا الجانب لم يتغيّر عما كان عليه أسلوبه الذى أخذ به نفسه فى الجانب السابق ، وهو الجانب الاجتماعى فى حياته ، إذ استقبل طه حسين – بهذا المؤثر الدائم – حياته التعليمية بأن أخذ نفسه بألوان من الشدة كما فعل بها هناك ، وتقيدت فيه حركاته بشىء من الرزانة والحياء وهو مكره على هذا وذاك ، وما هذه الرزانة التى تكلّفها ، وذاك الحياء الذى تملّكه إلا اتقاء لما يمكن أن يقع فيه بسبب عاهته من حرج ، والمؤثّر فى الجانبين – فى حياته – واحد ، وضروب التأثير هنا – برغم اختلاف البيئة والزمان والمكان – تماما كما كانت هناك ، مجملها مغالبة النفس وأخذها بالشدة ، والحفاظ على ما يملك من نفسه وأمره

---

(١) الأيام ، جـ ١ ، ص ٨٦ .

(٢) هذا مذهبى ، العدد ٤٨ من كتاب الهلال ، مارس ١٩٥٥ م ، الفصل الذى كتبه طه حسين عن نفسه بعنوان : حب للمعرفة وصبر على المكروه ص ١١٥ .

بشدة الحياء من ناحية ، وتجنب مواطن التحرج من ناحية أخرى ، ويضاف إلى ذلك ما كان يشعر به من اضطراب وتناقض بين ما يأمله ويرغب فيه ، ولكنه يعجز عن تحقيقه لنفسه ، وبين ما يفعله ويؤدّيه ، ولكنه يرفض الاقتناع به والرضى عنه فى نفسه . كان طه حسين يلزم نفسه أو تلزمه عاهته بهذا كله فى قاعة الدرس ومكان تلقى العلم ، أو فى مقامه بالبيت ، واحتكاكه بمجالس الساعين فى طريق العلم . ولم يجد طه حسين بُداً من أن يسجل فى أيامه ما يحفظ هذه الحقائق فى تاريخ حياته وتدرُّج أطواره : ففى البيت خارج - قاعة الدرس - كما يشهد « يجلس فى الغرفة فى مجلسه هذا الذى اختاره له أخوه الأكبر ، ولا يبرحه ، أما هذا الأخ الأكبر فيذهب ومعه أصدقاؤه من الشباب ، إلى غرفة أخرى من غرفات الربع ، عند أحد الصحاب ، يتندرون ، ويتناظرون ، ويدرسون ، وفوق ذلك يشربون الشاى ، كل هذا يحدث بجواره أو غير بعيد منه ، ولكنه لا يستطيع أن يطلب الإذن له بأن يحضر مجلسهم ، ويستمتع بما فيه لذة العقل والجسم جميعا ، فأبغض الأمور على نفسه الحييَّة المتحرجة أن يطلب شيئا ، ولو طلب ذلك الشىء إلى أخيه لردّه عنه رداً رقيقا أو عنيفا ، ولكنه مؤلم مؤذ على أىّ حال ، فالخير له أن يصبر ، وأن يملك زمام نفسه ، وأن يكتم حاجة عقله إلى العلم الذى كانوا يناقشونه ويدرسونه ، وحاجة أذنه إلى الحديث عن الأساتذة ونظم الأزهر ، وحاجة جسمه إلى الشاى ، ذلك المشروب الذى يضعف أمام إغرائه أى وافد من الريف ، فالخير له أن يظل قابعا فى مجلسه ، صابرا على محنته ، غارقا فى صمته وحزنه وعذاب وحدته ، ويضاعف من إحساسه بدمامة هذا المحتوم عليه أنه لا يستطيع أن يتحرك من مجلسه ، وأن يخطو الخطوات القليلة التى تمكّنه من أن يبلغ باب الغرفة ، وهو لايستطيع أن يتحرك من مجلسه أو ينتقل من مكانه ، لا لأنه يجهل الطريق إلى الباب ، ولكن لأنه كان يستحى أن يفاجئه أخوه ، وهو يسعى حائراً مضطربا ، فيسأله ما خطبك ؟ وإلى أين تريد ؟ فكان يرى أنه من الخير أن يبقى فى مكانه ، مفضلا مغالبة النفس ، وأخذها بالشدة على أن يسمع من أخيه أو من غير أخيه ما يحرجه ويؤذيه »[1] .

وليس أمره بأثر عاهته عليه داخل غرفة الدرس - وهو فى الأزهر أو فى الجامعة

(١) الأيام - بتصرف - جـ ٢ ، ص ١٨٩ وما بعدها .

المصرية أو حتى الفرنسية – أيسر حالاً وأضيق مجالا ، وما الفصل الأوّل من هذا البحث « الآفة وطه حسين علاقة وصراعاً » إلا مشاهد مما كان يواجه من حرج ، وإثبات بالوقائع على ما كان يعانى من ضرر وحياء .

وطه حسين – فى هذا الجانب – لا يملك لنفسه شيئا إلا ما انتهج ، ولا يملك من نفسه شيئا إلا ما أحس ؛ لأنه محكوم بالرضوخ لغيره وهو صغير ، والصراع مع تبعات عاهته وهو كبير ، واستبقى من هذا المنهج ما صلح استمراره عليه مما يحفظ له القدرة على الحركة فى الحياة ، ثم أضاف إليه ما شدَّ من أزره فى إخراج نفسه من دائرة ذل الخضوع وصمت الوحدة إلى دائرة الاقتحام لإثبات الوجود ، والاندفاع لأن يكون مثيراً وثائراً بين الناس فى رأى المخاصم ، وفى وجدان المريد ، وقد تشكل بهذا كله طوره الثانى الذى امتد به عمره ، ولم تته فى زحام المواقف أو تخفت فى آفاق الصراع إشراقة شمسه .

(٢) طور التمرد واستفزاز الأحياء :

حاول طه حسين – خلال طوره الأول – الصبر على تخزين الحفيظة ، والإحجام عن إظهار السخط ، وسواء أكان ذلك منه ضعفا وقلة حيلة ، أو تعقلا والتزاما بهدى الفضيلة ، فإنه على كل حال كان فى ذاك الطور متدثرا بمغالبة النفس ، والتزام الصمت ، والنزوع إلى شيء من الانطواء ، وتقييد انفعالاته وتصرفاته بالرزانة والحياء ، مطمئنا إلى أن هذا الأسلوب سوف يجنب نفسه وقوع ما يحرجها ، ويوفر على أذنه أن تسمع مايؤذيها ، ويحفظ لأعماقه الهدوء والرضا الجبرى ، من خلال عدم خروج الآخرين – فى معاملته ، ومراعاة صحته النفسية تحت تأثير عاهته – عن حد الوقار والاعتدال .

ولكنه وجد أن هذا الأسلوب الذى اتَّبعه أو المنهج الذى التزم به ، لم يجنبه الحرج ، ولم يباعد بينه وبين الضر، إذ كثر اصدامه فى البيئة الاجتماعية والتعليمية كلتيهما بما يكره أن يسمع من اللمز بالألقاب ، ومن الصفع بالألفاظ التى تحمل إليه الإهانة والازدراء بين أهله وفى حدود القرية ، وبين زملائه فى الأزهر ، ومن أكثر شيوخ حلقات التعليم ، فإذا بالرزانة تنقلب فى هذا الطور إلى تمرُّد ، والحياء يتحول شرهاً فى استفزاز

الأحياء ، وما أقصد بالأحياء إلا أصحاب الشهرة بين الناس أو ذوى القدر المعلوم بمنطق الأشياء .

وظهرت ملامح هذا الطور فى سلوكه فى نطاق احتكاكه بالبيئة الاجتماعية بالقرية أولا ، إذ بعد أن عاد إليها فى نهاية عامه الدراسى الأول بالأزهر ، . احتمل من أهلها « ما كان يحتمل قديما ، يوما ويوما وأياما ، ولكنه لم يطق لذلك صبرا ، وإذا هو ينبو عما كان يألف ، وينكر ما كان يعرف ، ويتمرد على ما كان يظهر لهم من الإذعان والخضوع ، كان صادقا فى ذلك أول الأمر ، فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة ، تكلف وعاند وغلا فى الشذوذ » ، ويضرب على ذلك الأمثال ، ويقص فى ذلك الأقاصيص [1] :

١ سمع « سيدنا » يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه فى العلم والدين ، وببعض تمجيده لحفظة القرآن ، وحملة كتاب الله ، فأنكر عليه حديثه ، ورد عليه قوله ، ولم يتحرّج من أن يقول : هذا كلام فارغ ، فغضب سيدنا وشتمه ، وزعم أنه لم يتعلم فى القاهرة إلا سوء الخلق ، وأنه أضاع فى القاهرة تربيته الصالحة .

٢ وحين « سمع أباه يقرأ دلائل الخيرات كما كان يفعل دائما إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر ، فإذا بالصبى المتمرد المستفز يرفع كتفيه ، ويهز رأسه ، ثم يضحك ويقول لإخوته : إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه ، فتزجره أخته الكبرى بسبب ما قال ، وحين يتم والده قراءته ، يستعيد ابنه القول ، فلم يتحرج الصغير ، ويدور بينهما حوار ينتهى بأن يقول الصبى لأبيه : إن كثيرا مما تقرؤه فى هذا الكتاب حرام يضرُّ ولا ينفع ... فإذا بأبيه يصرخ فى وجهه قائلا فى عنف وإصرار : « اخرس قطع الله لسانك ، لا تَعُدْ إلى هذا الكلام ، وإنى أُقسم لئن فعلت لأمسكنّك فى القرية ، ولأقطعنّك عن الأزهر ، ولأجعلنّك فقيها تقرأ القرآن فى المآتم والبيوت . » . واستمرَّ الصبى كما يقول على عناده وإصراره ، بل استحال نقده لأبيه فى قراءته للدلائل والأوراد موضوعا للهو الأسرة وعبثها أعواما وأعواما .

---

(١) قص طه حسين هذه المواقف ، فى الجزء الثانى من أيامه ، ص ٣٠٤ – ٣٠٨ .

ثم يتجاوز شذوذ الصبى واستفزازه الدار إلى المسجد ، والمحكمة الشرعية ، ومجالس العلم بالقرية ، منكرا فى كل مكان لكثير مما يعرفه الناس ، مستهزئا بكرامات الأولياء ، داعيا إلى تحريم التوسل حتى بالأنبياء ، محاورا الناس – فى ذلك كله – فى شدة وعنف ، حتى ينصرف المحاور متحرجا يستغفر الله من الذنب العظيم ، ويستعين به من الشيطان الرجيم ، وحتى قال الناس بعضهم لبعض : إنّ هذا الصبى ضال مضلٌّ .

وسواء كان هذا الصبى فى هذه المواقف وما يشبهها ضالا مضلا ، كما قالوا ، أو ثائراً ومثيراً كما نقول ، فإنه على كل حال – كما سجل – قد انتقم لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه ، والتفكير فيه ، بل وتغير مكانه فى الأسرة .

وكذلك كان أمره فى بيئته التعليمية بالأزهر ، فقد انتهج فيها نفس المنهج الذى جرَّبه فى قريته ، فأفاده وأذاع بين الناس صيته ، وما داعيه إلى أن ينهج نفس المنهج ، ويسلك نفس السلوك إلا لأنه لم يأل جهدا فى اتخاذه من الوسائل ما يتحقق له بها فى هذه البيئة حفظ نفسه من الحرج ، وكظم غيظه عن الانفجار ، ولكن الجدوى المرتجاة مما اتخذ من الوسائل قد امتنع ، فأصابه ما أصابه من المتعلمين قليلا ، ومن المعلمين كثيرا ، فما كان منه إلا أن ثار فى أعماقه الأسى والألم ، فتحوَّلت هذه الثورة إلى صدام علنى ذهنى ، ودفعه ذلك إلى كثير من الخصام ، وكثير من الجدل ، وأخذ يرد على الغضب بغضب أمكر ، وعلى الحدة بحدة أدهى ، وتعددت له فى ذلك المواقف ، وتأكد له من ذلك – فى مستقبل حياته – صلاحية هذا المنهج فى تحقيق ما كان يطمح من إخراج نفسه عن عزلة ضربتها حوله آثار عاهته ، وتتويج كفاحه بالتفات الآخرين إليه ، والتمتع بشهرة صار مداها أبعد مما كان يجول فى أوهام غايته ، وإن كان هذا المنهج قد ورَّطه فى كثير من المشاكل ، وكاد يوقعه فى أضيق قيعان المهالك ، ولو اكتفينا بموقفين له من كل هذه المواقف أحدهما قد اندفع إليه فى البيئة التعلمية له بوطنه ، والآخر فى البيئة التعليمية خارج حدود وطنه – لتأكد لنا ما كان يمكن أن يخسره طه حسين بسبب هذا المنهج لو كان أستاذاه قد أخذاه بحدود هذا المنهج ، وسلكا معه فى التحدى والمقاومة نفس السلوك .

وكان أول الموقفين فى الترتيب الزمنى لحدوثهما هو موقفه من شيخه الذى كان يقرأ لهم « سلم العلوم » فى المنطق ، و « مسلم الثبوت » فى الأصول ، فأخذ طه حسين ذات يوم – كما يقص [(١)] – يجادل الشيخ فى بعض ما كان يقول ، فلما طال الجدال اشتد غضب الشيخ ، وقال له فى حدة ساخرة : اسكت ياأعمى ، ما أنت وذاك ! ، فلم يسكت الأعمى كما كان يفعل من قبل ، ولم يسكت الطالب طه التزاما بما يسود من عرف بين المتلقى وبين أستاذه ، بل إنه لم يحس بالحرج والحياء ليلتزم الصمت ، وإنما اندفع – فى غضب واستياء – إلى الرد على شيخه بصوت يملأ أسماع السامعين بدوىّ شرٍّ سوف يصيبهم منه شرر ، ويملأ قلوبهم توجّساً مما سوف يصيب جمعهم من ضرر ، لأن المأمور – من قِبَل الأستاذ – بالسكوت يرد على أستاذه الآمر بقوله : « إن طول اللسان لم يثبت قط حقا ، ولم يمح باطلا » ، وكان هذا الرد أعنف ما يمكن أن يصدر منه فى حلقة درس ، وأقسى ما يمكن أن يسمعه شيخ من طالب علم ، ولذلك وجم الشيخ ، ووجم الطلاب .

وكان ثانى الموقفين المختاريْن قد حدث له أو صدر منه وهو يتلقى العلم فى السربون ، وفى وقت لا يُقبل فيه من الدارس عذر لعناد ، ولا يعود على الطالب فيه خير من تعنُّت ، إذ كان ذلك الوقت وقت امتحانه الشفوى فى مادة الجغرافيا . يسأله أستاذ المادة : مسيو حسين : صف لى مجرى نهر الرون ! فإذا بالوجوم يسرع إلى مسيو حسين هذا ، ولكنّ العناد يسبق الوجوم إلى عقله وقلبه جميعا ، وإذا هو يرفض الإجابة على هذا السؤال ، فى صوت لا تردد فيه ولا اضطراب [(٢)] ، وفى عنف وعناد ، مع أنه الطالب المسئول ، ومن المفروض عليه أن يجيب حين يُسأل .

وما أظن موقف الأستاذ « ريمونجون » أستاذ الجغرافيا من رفض هذا الطالب أن يجيب على سؤاله عناداً وتأففا – مع أنه بدأ سؤاله له مداعبا متلطفا – بأيسر فى أثره على أعصابه ، وسوء وقعه فى نفسه ، من ذلك الأثر على أعصاب ذاك الشيخ وسوء وقعه فى نفسه ؛ حين رد عليه طه حسين ساخرا ومعنفا .

وبهذين الموقفين وما صدر من طه حسين قبلهما أو بعدهما أو بينهما – منتهجا نفس

---

(١) راجع القصة كاملة فى الجزء الثانى من الأيام ، ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) راجع القصة كاملة فى الأيام جـ ٣ ، ص ٦١٧ وما بعدها .

المنهج – كان طه حسين قد انتقل بمنهج الشدة والعنف – التى أخذ بهما نفسه أولا – إلى الدائرة الأوسع والأفاق الأبعد ، فأخذ بهما الآخرين فى القرية وفى الأزهر ، وكذلك فى الجامعة المصرية بعد أن كان التحاقه بها أملا ، والجامعة الفرنسية بعد أن كان وصوله إليها حلما ، أخذ يستفز ويخالف المألوف فى الجدل والمحاورة ، ويعاند ويعنف حتى وهو فى موقف المساءلة .

ومنذ أن اقتدر طه حسين على الصدام والمواجهة فى بيئته التعليمية بالأزهر ، وهو ما يفتأ يعلن سخطه الظاهر على ما صدمه به الأزهر من الحجْر على حرية الرأى فى النقاش ، والكبْت لحرية النقاش فى الحوار ، مازجا هذا السخط الظاهر بسخطه المعنوى الثائر بسبب ما يعانيه من كبت عاهته لحركاته وإمكانات قدراته ، ومن سجن الآخرين هناك له – ومنهم من هم فى عرف الناس وقوانين الوظيفة رسل علم وهداية – بألفاظ تسوؤه ، وتصرفات تثير حفيظته ، وإذا بالسخطين : الظاهرى والمعنوى ، يتحدان فى سلوك محتوم هو مسلك العنف فى النقد ، والمبادأة فى الهجوم ، فكتب المقالات الثائرة التى عرف بها الطريق إلى الصحف الداعية فى ذلك الحين إلى حرية الرأى ، ويعترف فى أيامه بما كان له من هذا المسلك فيقول « ولم يكد الفتى يأخذ فى الكتابة حتى عُرِف بطول اللسان ، والإقدام على ألوان من النقد ، قلّما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام » [(١)] .

وانقلب طه حسين فى بداية هذا الطور إلى شخص عدوانىّ فى إقباله على الحياة ، وفى اقتحامه مشاكلها ، وفى محاولاته الدائبة لتغيير كثير من أوضاعها ، ومع أنه اندفع فى هذه الطريق اندفاعا هائلا ؛ تعويضا عما فقده من نعمة البصر فى الحياة ، أو أخذاً بالثأر لما أصابه بسبب هذه العاهة من الأحياء ، غير أنه والحق يقال قد تسلح لهذه الطريق بسلاح لا يفلّ ، وحاول أن يضمن لنفسه فى مجال هذا الصراع زاداً لا ينقطع ، وقد اهتدى إلى سلاحه فأمسك به فى قوة ، واختار زاده فدأب على التزود به فى نهم ، وكان سلاحه هو الظمأ إلى المعرفة والولع بالعلم ؛ ليتحقق له بهذا السلاح ضمان الأمان

---

(١) الأيام ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧ وما بعدها .

واستمرار ومضة الأمل فى إشراقة الغد ، والانتصار على العجز والكبت بنور المعرفة والعلم ، وكان زاده هو الصبر على المكروه ، والمغالبة للأحداث ، والطموح إلى اقتحام المصاعب فى غير حساب للعواقب [١] ، ليثأر لنفسه - بهذا - من آثار هذه الآفة عليه فى الحياة وبين الأحياء .

وما تحقق لطه حسين فى مستقبل حياته من إثبات وجود ، وجذب انتباه الناس ، وتحقيق غايته من الكفاح لم يكن دعامته الأساسية هى انتهاج منهج التمرد والعناد ، وسلوك مسلك المخالفة والاستفزاز ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان فى هذا دعوة صريحة إلى أن التمرد والعناد أساس لكل نجاح ، وإلى أن المخالفة والاستفزاز جديران أن يرفعا شأن صاحبهما إلى سماوات العلا ، أو مراقى الصلاح ، فهذا لم تقم به دعوة من قبل ، ولن يصدق به زعم من بعد ، وإنما الدعامة الأساسية لكل ما تحقق له هى عاهته وما دفعته إليه من منهج وسلوك ، فلقد كانت له سلاحاً ذا حدين ، دفعته إلى أن يأخذ نفسه بالشدة والعنف فى حياته الاجتماعية والتعلمية كليهما ، ولكنها فى ذات الوقت أثمرته من الشدة والعنف ما يسرّته به لما خلق له من الدرس والتحصيل ، يُنفق فيها من القوة والجهد والنشاط والفراغ ما ينفقه غيره فيما يضطربون فيه ، وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها . ودفعته كذلك إلى أن يأخذ الآخرين بالشدة والعنف أو لنقل العناد والاستفزاز ، ولكنها فى ذات الوقت دفعت الآخرين - احتسابا لها ومراعاة لأثرها - إلى أن يأخذوه بالرفق وكظم الغيظ ، وكان هذا هو موقف أبيه منه ، فلم يمسكه فى القرية ولم يقطعه عن الأزهر كما توعد وهدد ، وكذلك كان موقف المحاورين منه ، فلم يفعلوا أكثر من الانصراف عن المحاورة ، مستغفرين الله من الذنب العظيم ، مستعيذين به من الشيطان الرجيم ، وكذلك كان موقف شيخه منه ، فلم يفعل شيئا بعد أن وجم ووجم الطلاب معه من رد طه حسين إلا أنه قال : انصرفوا اليوم ، فهذا يكفى . وكذلك كان موقف استاذ الجغرافيا بالسربون ، لم يفعل ما كان ينبغى أن يفعل ، كأنْ يحرمه من الحصول على درجة لأنه امتنع عن الإدلاء بجواب ، ولكنه أعطاه من الدرجات ما يعصمه

(١) راجع دراسات حول طه حسين ، د . حسين نصار ، الفصل الخاص بمذهب طه حسين فى الحياة ص ٩ - ٣٥ .

من الإخفاق إن أتيح له النجح فى غير الجغرافيا من مواد الامتحان ، وكذلك كان شأن الآخرين – غير هؤلاء – منه ، احتساباً لآفته لا تخوفا منه ، ومراعاة لأثرها عليه ، لا إقراراً بصواب تصرفه وسلامة موقفه .

وإذا أضفنا إلى ذلك من أثر هذا السلاح عليه أثرين آخرين ، أولهما أن هذه الآفة بشهادته هى التى أزكت فى نفسه خصلة الظمأ الشديد إلى المعرفة حتى إنه أدمن التزود منها بلا انقطاع ، فإذا ما حصل على نصيب منها جدَّ فى روحه وفكره إغراء بأن يحصِّل شيئا آخر أبعد منه مدى وأشد عمقا ، وبهذا الأثر عاش طه حسين فى نماء مستمر ، وفى عطاء متنوع ممتد . وثانيهما أن هذه الآفة فى الوسط السياسى والفكرى والاجتماعى الذى احتك به طه حسين – أول ما احتك – قد يسَّرت له من يأخذ بيده تشجيعا ، ويأخذ بطريقه توجيها ، ويشد من أزره حماية ودفاعاً ، فهو يعاند ويجادل ، ويتمرد ويستفز ، ومن ورائه أحمد لطفىَ السيد وعبد العزيز جاويش ، وحسبه أن يكونا له موجهين ومدافعين فى آن ، وبهذا الأثر ركب طه حسين سبج الأمواج فى مجال النقد بلا تحفظ ، وفى مجال الإثارة والاستفزاز بغير اضطراب . إذ هيئا له أن يكون طرفا فى الصراع الدائر فى ساحات السياسة والفكر ، والأدب ، فوافق شنٌّ طبقة كما يقولون : نفس ثائرة طموح ، وجو مهيأ مأمون ، فما أسرع ما انزلق الفتى – كما يقول طه حسين عن نفسه – من هذا النقد السخيف ، إلى طول اللسان ، وشىء من الشتم لم تكن بينه وبين النقد صلة [1] . ويقصد طه حسين بذلك مجموعة مقالاته « نظرات فى النظرات » والتى جرّد فيها المنفلوطى من كل نعت حسن ، وجرد كتاباته من كل فنية أو مهارة ، ولنكتف بنظرة من نظراته ، لتكون للتاريخ – فى حكمهُ على هذا الطور من حياته – حجة على إسرافه ، وبرهانا على انحرافه – كما قال فيما بعد – عن سواء السبيل فى النقد ، وعن فرط التهوُّر فى استفزازه ، يقول فى « النظرة الثانية » [2] .

« وضع صاحب النظرات لفصول كتابه أسماء شتى بين اجتماعيات ودينيات وعلميات إلى غير ذلك . وأريد أن أبدأ بنقد آرائه فى فروع الكتاب كله ، نقداً علمياً

---

(١) الأيام ، جـ ٣ ، ص ٤١٩ .

(٢) الشعب فى ٢٠ أبريل ١٩١٠ .

محضاً . ثم أعيد الكرَّة عليه فأنقد فيه العبارة والاستعارة ، والخيال والاستعمال ، وإن كان الكتاب ليشتمل على خطأ من هذا النحو كثير ، وما النظرات إلا كتاب كثرت فيه الحسنات والهنات . أجل ! لم ينبُغ صاحب النظرات ، وما هو إلا كغيره من الكتَّاب الذين رفعهم الوهم فى العيون ، وسيعطيهم اليقين من المكانة ما يستحقون .

أول عيب آخذه على صاحب النظرات أنه مشغوف كل الشغف بذات غيره . كما أن العيب الثانى فيه أنه منكر كل الإنكار لذات نفسه ، فإن السرقة فى كتابه شائعة شيوعاً فاحشاً ، ولست غالياً إن قلت إن اسم كتابه مختلس من ديوان « النظرات » للرافعى . ولقد أرى كما سيرى القارىء أن فى الكتاب فصولا سُلبت قسراً من أصحابها ، ونُسبت إلى صاحب النظرات ميناً وزوراً ، بينما أبحث عن كثير من فصول الكاتب الخاصة التى كانت تذاع فى المؤيد ولا سيما السياسة فلا أجد لها فى الكتاب أثراً .

أما السرقة فعذر صاحب النظرات معروف ، وهو قلة المادة ، وضيق الحظيرة ، وأما غلوه فى الإنكار لذات نفسه فهو ما أسأل عنه وأتلمس له العذر فيه . وهنا يجب على أن أذكر حقيقة تاريخية تضاف إلى ترجمة المؤلف ، فيقال : كان يرى الرأى يعتقد أنه الحق ، ثم لا يأنف أن يبيعه بثمن بخس ، ويشترى به رواج الكتاب ، فما كان أشد حاجته إلى شىء من شجاعة النفس قليل .

العيب الثالث من عيوب النظرات أن صاحبها أبعد الناس عن توخِّى الحقيقة ، وأحبهم لاصطناع الخيال سبيلا إلى غايته حتى فى العلم لا يبالى إن راقه الخيال أصاب الحقيقة أم لم يوفق إليها . أنا لا أذم الخيال من القصاص يأخذون به أعنة النفوس إلى الفضيلة ، ويكبحون به جماحها عن الرذيلة ، ولا أكرهه من الكتاب والشعراء لأنهم يغرسون به فى قلوب العامة حب الخير ، وإنما أمقته كل المقت إذا أقامه صاحبه مقام البراهين القاطعه فى العلم ، يخدع به الناس عن آرائهم وعقائدهم فيثير فيهم الشك ، ويخمد فى نفوسهم قوة اليقين . أمقته كل المقت ، وأعتقد أن من يصطنعه كذلك ليس إلا خادعا للأمة ، يجب أن يكون نصيبه من اللوم أضعاف نصيبه من الثناء . وليس عجيبا أن أشفق على الماضى فى هذا السبيل أن يزل أو يناله فيها العثار ، بل أقول إن صاحب النظرات كثيرا ما أخطأ بهذا السبب فى ترتيب خياله خطأ فاحشا . وإنَّ له أفكارا هى

أشبه شيء بماس بيرا ، يأخذه الناس جوهرا ويلقونه حجرا كما يقول هو فى شعر بعض الشعراء . ذلك بأنه اصطنع الخيال وهو غنىّ عنه ، واطرح الحقيقة وحاجته إليها أشد ما تكون .

العيب الرابع : أن لصاحب النظرات ألفاظا ومعانى وأساليب تشغفه كل الشغف ، فلا تزال تتردد فى كتابه حتى تمجها الأسماع ، وتعافها الطباع . وسيرى القراء من ذلك كثيرا . ولكنى لا أنسى أن أقول إن بعض الأساتذة قد سمَّوا صاحب النظرات « لأيَّاما » ؛ لتردد هذا الكلمة فى كتابه حتى لا يخلو منها مقال .

الخامس والسادس : أن الكاتب على شغفه بجودة العبارة ، وحسن الإشارة ، وكلفه بأن يكون كلامه فخما سهلا ، وخفيفا جذلا ، وأن يكون أسلوبه أنيقا ولفظه رشيقا ، كثيرا ما يلجئه الحرج إلى سخف فى الاستعارة والتشبيه ، ويضطره إلى أن يكون كلامه رثا غثا ، وأسلوبه ساقطا مبتذلا . وكثيرا ما تحمله قلة المادة اللغوية على اللحن الفظيع ، والغلط الشنيع ، والخطأ المخجل فى الاستعمال كما سيرى القارىء .

السابع والثامن : أن أبا العلاء الثانى مولع بكاذب العناوين ، وساقط الألقاب وإن أبى علينا ذلك فى لزومياته كل الإباء . فلو قرأت ما اشتمل عليه الكتاب من ضخام الألقاب العامة والخاصة لأنكرت فلاسفة الغرب جميعا لا أحاشى منهم أحدا . فلست أعرف بينهم من استطاع أن يكتب فى جميع الفنون التى كتب فيها فيلسوفنا الحكيم من اجتماع ودين وأخلاق وقصص وعلم وغير ذلك . ولكن وا أسفاه ! لا تكاد تتم الكتاب حتى تحمد الله على السلامة ، وتقنع من الغنيمة بالإياب .

أنا ومن سألته من الأدباء ، وفيهم الأساتذة والعلماء ؛ لا نعرف لصاحب النظرات فى كتابه رأيا خاصا وإن كثرت الأنانية فى أقواله . كما أنَّا لا نعرف تلك الشخصية فى الكتابة التى انتحلتها له الصحف المطرية إلا أن تكون لألاء السراب الكاذب » .

وإذا كان طه حسين قد استفز المنفلوطى فى هذه النظرة من نظراته ، بأن اصطنع

له ثمانية عيوب فى شخصه : وهو فى ذلك الحين علَمٌ من أعلام الأدب الحديث ، وفى كتابه : وهو فى نفس الحين عينٌ ثرَّة من عيون الفن والبيان فى العصر الحديث ، فإنه قد استمرّ فى هذا الاستفزاز طوال ثمانى نظرات تِباعا ، لو كان ما ورد بها هو الحق ، ودعاواه فيها يؤازرها صدق لكانت كافية لإخراج المنفلوطى من زمرة أدباء العصر ، وإبعاد كتاباته من أن تعد مصدرا للثقافة الأدبية فى مختلف الأوطان العربية ، بله مصر ، بل ولعبارة واحدة قد ختم بها طه حسين نظرته الثامنة [١] التى عنونها بعنوان « الحمق والسخف فى كتاب النظرات » كانت كافية لأن يهلك المنفلوطى وما كتب ، وذلك حين ختم طه حسين نظرته الثامنة بقوله للمنفلوطى ساخراً منه ، مسيئا إليه ، بل هو فى الحق - وقد بلغ به العنف حد الخروج عن حدود العدل - كان ساخراً من المتأدبين والأدباء فى ساحة الفن والأدب ، لأنهم جميعا للمنفلوطى أصدقاء معجون ، ولكتاباته قرّاء متلهفون ، فى حين أنه يقول له فى ختام هذه النظرة : « ... فلا أقسم بالزور ، أحاديث الغرور ، ما رُزِء الآباء فى الأبناء ، والأمهات بالبنات بأعظم من رزء العلم بمثلك ، وإنى عليك من هذا لمن المشفقين » .

ولكن المنفلوطى لم يُستفز فيرد على طه حسين ، فيدركه ما يريد : بأن يجعله منه مناظراً وله نداً ، وإن كان طه حسين كسب من وراء ذلك بعض ما كان يطمع ، ولم يخرج من طور التمرد والاستفزاز بخُفَّى حُنيْن ، إذ وجد من قراء المنفلوطى من يرد عليه فى المؤيد رداً ليس أقل تجريحا لطه حسين ، ولا هو أقل استفزازا ، جاء فى بعضه موجها الكلام لطه حسين :

« ... لو كانت أخلاق المنفلوطى كما زعمتَ لقابلك بمثل ما تكتب ، وأنت تعلم كما يعلم غيرك أن قلمه لا يضيق عن الكتابة ، ولكن قلماً وقف نفسه على نشر الفضيلة وتسجيل الحقائق أرفع من أن يجاريك فى وقاحتك وسوء أدبك ، إن نفسا عالية كنفس صاحب النظرات أعلى من أن تنازلك فى ميادين السفاهة ، فكن فى مأمن منه ، فإنَّه لن يؤاخذك بما تكتبه ... أيها الكاتب ظننت نفسك شيئا مذكورا ، فلا تعجب إذا أصابك من غيرك ما لم تكن لتنتظره ، فإن الغرور بالنفس مؤد إلى المهالك .... » [٢] .

---

(١) العلم ، فى ٣٠ مايو ١٩١٠ .

(٢) المؤيد ، فى ٦ يونيو ١٩١٠ .

ولم يخصّ طه حسين المنفلوطى فقط بالتجريح والاستفزاز ، وإنما قبل هذا قد ألهب سوطه الشيخ عثمان المهدى ، بمقال يتهمه فيه ومن نهج نهجه بأنهم قوم لم يعرفوا مذاهب الشعر ، ولم يدفعوا إلى مضايقه ، ويختمه بعبارة جارحة مستفزّة فيقول : « هذا قسطك اليوم ، ولعله يكفيك ، على أننا نبيح لك المناقشة إن قبلتْ الصحف سخفك » [(١)] ولم تكن إساءته واستفزازه للشيخ عثمان المهدى أقسى أثراً وأعظم ضرراً مما وجهه لصاحب كوكب الشرق وهو أحمد حافظ عوض ، وكان يكتب فى القياسات والاستنتاجات بإمضاء مستعار هو أبو فصادة ، فنقده طه حسين فى استهانة وازدراء ، ولنكتف بهذه الفقرة من مقاله حيث يقول له : « ... على رسلك أبا فصادة ، لا ترع ، إنى لا أريد صيدك ، ولا أدرى لم تنصب لك الشباك ، فقد علم الله والناس أنك لا تقع من أحد موقعا ، فثلثاك ريش ، وثلثك يذوب على أسلة قلمك حين تكتب ، فيمثّل لنا ضعف عقول الطير ، وما أحسبك إلا ستقضى بعد حين » [(٢)] .

ولكن طه حسين بعد أن حقق غايته من استفزاز الآخرين ، والتهجم - بالسخرية والتجريح - على الآمنين والمعروفين ، استغنى عن طول اللسان بالسباب والتحقير ، واستقصى فنون القول وأساليب البيان فى إلباس استفزازه براعة السياسىّ المناور ، وصياغة تهجمه بفصاحة المفاوض الخبير ، فكان عنيفا ولكن برزانة العقل ، وقاسيا ولكن فى حدود ما تقبله ساحة النقد ، لا يشذّ فى عنفْه وقسوته عن هذه الرزانة وتلك الحدود إلاّ تنفيسا عن ترة كَمُنَتْ فى أعماقه ، وثأراً من ماض لم يستطع أن يتخلص من آثاره فى مستقبل حياته ، مثال ذلك ما كتبه ناقدا به أستاذه الشيخ محمد المهدى الذى كان سببا فى عدم حصوله على الدكتوراه بدرجة الامتياز [(٣)] فكان نقده مُراً ممضًّا ، أعاد فيه سيرته الأولى فى التهجم والسباب ورمى الآخرين - أساتذته وأصحاب الفضل عليه - بفاحش القول ، وكتب هذا المقال بعد عودته من فرنسا مضطرا ؛ بسبب الحرب ، وكان قد ذهب إلى الجامعة واستمع لدرس الشيخ فى تاريخ الأدب ، فجاء فيما

---

(١) راجع طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد كيلانى ، ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) مصر القناة ، ٣١ أغسطس ١٩٠٩ .

(٣) ويقال أن الشيخ المهدى كان سببا فى إلغاء توظيف طه حسين بالجامعة ، فى الفترة التى مكثها بمصر أثناء الحرب ، ولم يكن له مورد رزق .

كتب – موجها الكلام إلى زميل رحلته إلى فرنسا « أحمد ضيف » والذى لم يحضر معه هذا الدرس – : « كان درس الأستاذ المهدى فى تاريخ الأدب العربى فى الأندلس أيام المستنصر والمنصور بن أبى عامر أشبه بمعرض الصور المتحركة ، تمر فيه ظلال الشعراء ولمّا يتبين منها الطلاب أكثر من أسمائهم ، وما عسى أن يكون درس ذهب نصفه فى وصف مكتبة المستنصر ودهاء المنصور ، وألمَّ النصف الباقى بما يتجاوز عشرة من الشعراء ؟؟ ... إنك لسيِّءالحظ ياضيف !! فلو سمعت معى درس الأمس لرأيت شعر ابن هانىء يُنسب إلى ابن خفاجة ، ثم يعتذر الأستاذ حين ينكر ذلك عليه بعض الطلبة ... » (١) .

ولم ينته طه حسين عن رمى أستاذه بالجهل ، وعدم الصلاحية لأن يكون من رجال العلم ، حتى بعد أن مرّ ما يزيد على عقد من الزمان على هذا المقال ، وبعد أن صار طه حسين من مشاهير الرجال ، لم يخفت صوت سبابه له ، ولم ينطفىء لهب تعدِّيه عليه ، فحين يكتب الجزء الثالث من أيامه يصوره مسخة بين طلابه ، ويجعل لنفسه الغلبة عليه فى جداله ، والمنعم عليه – فى أثناء تقديمه الدرس – بتصويب أخطائه ، ومن عباراته فى هذا قوله عنه : – « كان أبعد ما يكون عن العمق » ...

– كان متكلفا متفاصحا لا يتكلم إلا العربية الفصحى مغربا فيها ، يملأ بها فمه ، وربما أضحك منها طلابه ...

– وكان الفتى جريئا عليه يجادله فى الدرس فيرهقه من أمره عسرا ، وربما أضحك منه الطلاب ، لأنه كان لا يحقق ما يروى من الشعر ، ولأن الفتى كان يردّه إلى الصواب ، فيظهر عليه الاضطراب ... » (٢) .

ولكنه فى غير هذه الحال كان عنفه فى غير ابتذال ، وكانت قسوته دليل جرأة وفطنة ، وبرهان دهاء واقتدار ، وتمثَّل ذلك كله فى فصوله النقدية التى كانت مصدراً لصراعه مع الرافعى والعقاد وسلامه موسى والمازنى وشكرى وهيكل وزكى مبارك

(١) جريدة الوطن ، فى ١٦ فبراير ١٩١٥ .

(٢) الأيام ، جـ ٣ ، ص ٤٥٨ .

وتوفيق الحكيم وشوقى وحافظ وعلى محمود طه وابراهيم ناجى وغير هؤلاء كثير من الأدباء : الكتاب والشعراء وأهل الفن [١] .

وإذا أردنا اجتزاء المثل على عنفه فى غير ابتذال ، وعلى قسوته الممزوجة بالفطنة والدهاء ، والاقتدار ، فإننا نختار من أقدم هذه الفصول نشراً ، ومن أحدثها مِنّا زمانا ، دون قصد إلى استقصاء أو ابتغاء لتحليل ، وعندئذ يكفينا من الفصل فقرة ، ومن الكثرة قطرة ، ويغنينا عن التحليل لفتة أو إشارة . ولعل مناوشة طه حسين لمصطفى صادق الرافعى ، وما دار بينهما من صراع على صفحات الجريدة سنة ١٩١٢ ، كانت البداية الحقيقة لخصومة أدبية ممتدة بين اتجاهين مختلفين فى حياتنا الأدبية ، هى الصراع بين المحافظة والتحديث ، وكان الرافعى قد نشر كتابه « حديث القمر » وقرّظه حافظ بقصيدة نشرها فى الجريدة » [٢] مطلعها :

قَرَأْتُ كِتابَ حديثِ الْقَمَرْ   فَنِعْمَ الكِتابُ وَنِعْمَ الأَثَرْ
بدايةُ هذا الْفَتَى الرافعى   نهايةُ كُلِّ أديبٍ ظَهَرْ

فكتب طه حسين مقالا عنيفا مَاكِراً ، ينقد فيه الرافعى من خلال تحليله لقصيدة حافظ ، وينقد فيه حافظ من خلال تعريضه بالرافعى ، من ذلك قوله فى بداية المقال :

« نعم : إن حافظا لم يقرِّظ صاحبه بالأمس ، بل كان أبلغ منى فى نقده ، وإن احتاج من الجهة الخلقية إلى شىء من الصراحة حتى لا يخدع الجمهور ، ولا يغرِّر بأغمار الناس ، فأين من التفريظ قوله :

فَعِنْدَ كِتَابِكَ تَحنِى الرؤوسُ   وَتَعْيَا العقولُ وَتَعْنُو الفِكَرْ

ومتى كان الكتاب الذى يعيى العقول كتابا حسنا أو سفراً محموداً » ؟! ويأخذ طه حسن فى تحليل قصيدة حافظ على هذا الوجه حتى يصل إلى قوله :

ولو أَنْصَفُوكَ لَقَالُوا معى   أَجَادَ وَأَعْجَزَ طَوْقَ البَشَرْ

فيقول « نعم أيها الشاعر الكبير ، لقد أنصفناه وقلنا معك : إنه قد أجاد وأعجز

---

(١) انظر – فى هذا – المعارك الأدبية – لأنور الجندى . وطه حسين فى معاركه الأدبية والفكرية ، لسامح كريم .

(٢) الجريدة فى ٥ يناير ١٩١٣ .

الناس عن فهم كتابه ، والاهتداء إلى غرضه ، وعن محاكاته والنسج على منواله ، إذ كان قد بلغ من الغموض والخفاء ، ومن التعقيد والتكلف ما أعيا العقول ، وأعنى الفكر ... » [١] .

وإذا كان الرافعى فى رأى طه حسين قد بلغ من الغموض والخفاء ، ومن التعقيد والتكلف ما أعيا العقول وأعنى الفكر ، فإن العقاد عند طه حسين أكثر تعقيداً وأعسر تكلفا لأن ما يكتبه – فى رأى طه حسين – لم يتوقف عند إعياء عقول الناس ، وإنما يعيى عقل العقاد نفسه ، فلا يقدر أن يفهم ما يكتب ، وقد جاء ذلك فى نقد طه حسين لكتاب العقاد مطالعات فى الأدب والحياة فقال فى مقدمة فصله :

« قرأت مقدمة الكتاب فسخطت وضجرت وضقت ذرعاً بالكاتب وكتابه ، وأكرهت نفسى على المضى فى قراءته ، ذلك لأنى لم أفهم من المقدمة شيئا ... نعم ، لم أفهم منها شيئا ، ويقينى أن المتواضعين أمثالى لن يفهموا من المقدمة شيئا ، لا لأنها لا تدل على شىء ، بل لأنها أدق من أن تتناولها العقول المتواضعة ، أنا أريد أن يضحك الأستاذ العقاد ، وأزعم أنه لم ولن يفهم من مقدمته شيئا ... » [٢] .

ومكر طه حسين غير خاف هنا ، كما أن مناورته لم تكن مبهمة هناك ، والشدة والعنف فى كلا الموقفين لم ينصرفا إلى سباب مبتذل أو ألفاظ غير محتشمة .

وإذا اكتفينا بعنفه وشدته مع كاتبين لنجتزىء الإشارة والمثل من موقفه من شاعرين حديثين ، فإننا نجده متمسكا بمنهجه ذاك الذى استقام عليه أمره – فى تعامله مع الأخرين ونقده لأثارهم – وهو الشدة الممزوجة بذكاء المناورة ، والعنف المصبُوغ بأساليب الدهاء ، فهو غاضب وعلى شفتيه ابتسامة المجامل ، وهو راض وفوق جبينه تقطيبة المتحامل ، وهو فى الحالين بارع ماكر ، ويكفينا فى التمثيل على ذلك فقرتان من مقالتين متتابعتين ، تناول بهما شاعرين مشهورين ، هما الشاعر المهندس على محمود طه

---

(١) المصدر السابق ، فى ٧ يناير ١٩١٣ .

(٢) حدث الأربعاء ، جـ ٣ ، ص ٦٨١ .

فى ديوانه الملاح التائه ، والشاعر الطبيب إبراهيم ناجى فى ديوانه وراء الغمام ، واستهل طه حسين ثانى المقالتين ترتيبا فى النشر بقوله [١] :

« كان موضوع الحديث يوم الأربعاء الماضى مهندسا ، وموضوع الحديث اليوم طبيب ، فما زلنا إذاً بين العلماء الذين لم يصرفهم العلم عن الأدب – استغفر الله – بل الذين أغراهم العلم بالأدب ؛ فأقبلوا عليه ، وزاحموا فيه أصحابه الذين أنفقوا فيه حياتهم ووقفوا عليه جهودهم ، زاحموهم مزاحمة الموفق المنتصر الذى لم يظفر من النجح بحظ قليل ... » .

والشاعران المهندس والطبيب داخلان بحُكمه فى دائرة من زاحُموا أهل الأدب مزاحمة الموفق المنتصر الذى لم يظفر من النجح بحظ قليل ، ولكنه لم ينكر على أحدهما شاعريته ، برغم إفصاح هذه الجملة الأخيرة عن مَكره ومراوغته ، فقد مدح كلا منهما وأثنى عليه بأسلوب هذا المنهج الذى أَلِفه واعتاد عليه ، من ذلك قوله فى فصله عن المهندس فى الملاح التائه » « ... لست أنسى أنى ذهبت فى بعض أيام الصيف مع جماعة من الأصدقاء نستريح فى مدينة « فونتنبلو » ، وكان بين هؤلاء الأصدقاء رجل أحب شيء إليه أن يخرج للنزهة ، فيمضى فى غير طريق ، ويسعى على غير هدى ، وكان إذا خرجنا معه إلى الغابة لم نلبث أن نسمع منه هذه الجملة : « هلمّ نضل فى الغابة ساعات » ، وكان سعيدا كل السعادة حين يضل ، ولكن غابة فونتنبلو على سعتها واختلاطها محدودة لا يلبث الضال فيها أن يهتدى ، أما الغابة التى يألفها شاعرنا المهندس فليست محدودة ، لأنها ليست فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هى فى الكون ، أو هى الكون الذى هو أكبر من الأرض والسماء ، فإذا ضل فيها شاعرنا فليس إلى أن يهتدى من سبيل ، والواقع أنه لم يهتد ، وأنه إن مضى على حاله هذه فلن يهتدى أبدا ، وأكبر الظن أنه يحسن الإحسان كله إذا وضع فى هذه الصحراء التى يهيم فيها ، أو فى هذه الغابة التى يضل فيها ، أعلاماً يهتدى بها فى الظلمات ، وأكبر الظن أنه يجد هذه الأعلام لو تعمق فى قراءة الفلسفة ، وفى قراءة طائفة من الفلاسفة بنوع خاص ، وليس عيبا على الشاعر أن يقرأ ، ولا أن يكثر القراءة ، وإنما يعيب الشاعر ألا يقرأ ، أو ألا يقرأ إلا قليلا .

---

(١) حديث الأربعاء ، جـ ٣ ، ص ٧٣٠ .

ولعل شاعرنا إذا قرأ وأكثر القراءة حمى شعره من بعض ما قد يعاب به ، فشاعرنا يلتقى فى بعض الطريق مع جماعة من الشعراء الفلاسفة ، وأكبر الظن أنه يلقاهم مصادفة ، ولعله أن يكون قد قرأ لبعضهم شيئا ، ولكن المحقق أنه لا يسعى إليهم ، ولا يعتدى عليهم ، فلو أنه قرأ ، وأكثر القراءة ، ونظّمها ، وقيد ما يستخلصه منها لظهر فى شعره ما يدل على أنه قد سعى أو لم يسع إلى هذا الفيلسوف أو ذاك ، وَلَمَا استطاع أحد أن يظن به السعى أو الاعتداء » [1] .

وكذلك كان موقفه من الشاعر الطبيب فى مكر الشدة ودهاء العنف والمراوغة فى توجيه النقد ، يقول :

« ... ونحن نكذب شاعرنا الطبيب إن زعمنا له أنه نابغة ، بل نحن نكذبه إن زعمنا له أنه عظيم الحظ من الامتياز ، وإنما هو شاعر مجيد تألفه النفس ، ويصبو إليه القلب ، ويأنس إليه قارئه أحيانا ويطرب له سامعه دائما ، فإذا نظرنا إليه نظرة الناقد المحلل الذى يريد أن يقسم الشعر أنصافا وأثلاثا وأرباعاً كما يقول الفرنسيون ، لم يكد يثبت لنا أو يصبر على نقدنا ، وإنما يدركه الإعياء قبل أن يدركنا ، ويفرّ عنه الجمال الفنى قبل أن يفر عنا الصبر على الدرس والنقد والتحليل .

هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن يُقرءوا فى رفق ؛ لأنهم قد فطروا على رقة لا تحتمل العنف وشدة الضغط ، هو من هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن نستمتع بما فى شعرهم من الجمال الفنى ، كما نستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون أن نشطّ عليها بالتقليب والتعذيب ، هو شاعر هين لين رقيق ، حلو الصوت ، عذب النفس ، خفيف الروح ، قوى الجناح ، ولكن إلى حد ، لا يستطيع أن يتجاوز الرياضة المألوفة ، ولا أن يرتفع فى الجو ارتفاعا بعيد المدى ، وانما قصاراه أن ينتقل فى هذه الرياض التى تنبت فى المدينة أو ما حولها ، والتى لا تكاد تبعد عنها كثيرا ، وهو إذا ألمّ بحديقة من الحدائق أو جنة من الجنات لا يجب أن يقع على أشجارها الضخمة الشامخة فى السماء ، وإنما يجب أن يقع على أشجارها المعتدلة الهينة ، ويتخيَّر من هذه الأشجار أغصانها الرطبة اللدنة التى تثير فى النفس حنانا إليها ، لا إكبارا لها ولا إشفاقا منها ، هو شاعرُ حبٍّ رقيق ،

---

(١) حديث الأربعاء ، جـ ٢ ، ص ٧٢٥ .

ولكنه ليس مسرفا فى العمق ، ولا مسرفا فى السعة ، ولا مسرفا فى الحب الذى يحرق القلوب تحريقا ، ويمزق النفوس تمزيقا ، شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة ، منه بهذه الموسيقى الكبرى التى تذهب بك كل مذهب ، وتهيم بك فيما تعرف ، وما لا تعرف من الأجواء ... » [١] .

وليس القصد هنا تقييم الجانب النقدى فى إنتاج طه حسين ، أو تحليل ما له أو ما عليه ، ولكن الغرض الأساسى من عرض ما عرضت من المواقف ، واختيار ما اخترت من فقرات مجتزأة من مقالات له ، إنما هو التمثيل على أثر آفته فى صراعه بها مع نفسه ومع غيره سلوكا فى الحياة ومع الأحياء ، منذ أن عرف معنى الحياة واحتك بالأحياء . وكان فيما انتهج لنفسه بأثر آفته بصيرا بما يكفل له تحقيق طموحه فى إثبات وجوده ، وحشد الآخرين من حوله مخاصمين أو مناصرين على امتداد حياته ، فقد غَلَّفتْ آثارها مزاجه العام بالشدة والعنف ، أخذ بهما نفسه أولا ؛ ليتجنب مواطن الحرج والإحساس بالعجز والهوان ، وأخذ بهما غيره ثانيا ؛ ليوجد لنفسه مكانا بين الصفوف ، وليحقق لذكره اسما بين أرباب القلم وأصحاب الرأى وأهل البيان ، وما كانت شدته وعنفه فى الظاهر إلا تنفيسا عن معاناته فى الباطن ، وما كان اصطدامه بالحياة وبالأحياء إلا تجسيدا لاصطدامه الدائم بأثر تلك العاهة فى أعماق النفس ومواطن الابتلاء .

ثانيا : أثر العاهة فى أسلوب طه حسين طريقة فى الكتابة ومنهجا فى العطاء :

لم يكن أثر تلك العاهة فى أسلوب طه حسين مسلكا فى الحياة ومع الأحياء مبتور الصلة عما كان لها عليه من أثر فى أسلوبه طريقةً فى الكتابة أو منهجا فى العطاء . فالشدة هناك كانت فى حمل النفس على ما يعلو بها عن مواطن المؤاخذة ومشاعر الإشفاق والعطف ، فتميز ولفت إليه الانتباه ، وشدَّ إليه الأنظار ، وكانت فى حملها على الاصطدام بالحواجز عن طريق تدريبها على اقتحام المخاطر ، وتمحيصها بتحطيم أودية الخوف ، فتفرّد بأن شق لنفسه فى حلك عاهته طاقة نور سداها لألأة القمر ، ولحمتها ضوء النهار ، لا تدركها فى ليله عتامة ، ولا يغلّفها فى نهاره ستار ، هذه الشدة هناك

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣١ ، ٧٣٢ .

قد بسطت ظلالها على خطاه فيما بدأ به وانتهى إليه : كاتبا صاحب طريقة ، ومنتجا صاحب منهج ، وهو فى المجالين احتذى وقلد ، ثم أضاف وجدد ، وكان فى الحالين بصيرا بما أخذ وبصيرا فيما قدّم .

(١) مجال الاحتذاء والتقليد :

إن ما يقع للنابهين فى بداية حياتهم من احتذاء المشاهير واتخاذهم قدوة ، وتقليد المرموقين والأكثر خبرة ، هو أول درجات النجاح ، وأوضح مظاهر النباهة ، وبخاصة إذا كانت حياتهم مرتبطة بالأدب ، فالسير فى دربه حرث فى أرض ليست بِكرا ، واختيار المثل الأعلى – طموحا للتميز فيه – ليس أمراً نُكرا .

وكذلك كان أمر طه حسين فى مرحلة تكوينه الأدبى ، فقد ظل أعواما طوالا يلتقى بصاحبيه الزيات والزناتى كل يوم إذا كان الضحى ، ثم لا يفترقون حتى يتقدم الليل ، يدرسُون الأدب ويقرأون الصحف ، وقد وحَّد بينهم كما يقول « التطلع إلى ما كان يقوله ويأتيه المثقفون الممتازون ، أولئك الذين كانوا يدبِّجون الفصول فى الصحف ، يمسُّون بها السياسة والأخلاق وشؤون الاجتماع ، وأولئك الذين كانوا يخطبون فى المحافل والمجامع ، ويتحدثون فى الأندية ، وتنشر الصحف خطبهم ومحاضراتهم ، وتناقل الناس أحاديثهم ومحاوراتهم ، وتُذكر أسماؤهم فتمتلىء بها الأفواه ، وتبتسم لها الشفاه ، وتشرق لها الوجوه ، ويشتد بها الإعجاب ، ويتخذ الشبان أصحابها مُثلا عليا لما شئت مما يطمح فيه الشباب من بعد الذكر ، وارتفاع الشأن ، والظفر بما يظفر به عظماء الرجال من الإكبار والإجلال » [(١)] .

إذن كان لابد لطه حسين وصاحبيه أن يتخذ كل منهم لنفسه مثلا من أولئك المثقفين الممتازين يحتذى حذوه ، ويتمثل فيه القدوة ، ويقرأ له ، ويحفظ عنه ، وينتهج نهجه ، يتخذ منه أولا قيادا ، ثم يكون له – من بعدُ – امتداداً ، ثم ينسلخ منه ، ويستقل عنه . إذا ما توفرت لديه مقوِّمات التفرد والتميز – فيصبح هو ذاته قدوة بما تفرَّد فيه وتميَّز به إضافة وارتيادا .

---

(١) من لغو الصيف إلى جد الشتاء ، طه حسين ، ص ٣٦٣ .

ولم يكن الذين كانوا المثل الأعلى لهؤلاء الثلاثة من الشباب – من الشعراء والخطباء والكتاب – ممن كان لهم فى أول شباب هؤلاء هذا القدر من بُعد الذكر وارتفاع الشأن ، إلا نَفَراً قليلا ، وكل واحد من هؤلاء النفر القليل فردٌ فى المجال الذى صار فيه القدوة والدليل ، فمصطفى كامل فى الوطنية والخطابة السياسية فرد ، ومحمد عبده فى الدعوة إلى الإصلاح وجهاده فى الساحة الاجتماعية والدينية فرد ، وعبد العزيز جاويش فى البيئة الصحفية فرد ، وأحمد لطفى السيد فى البيئة الفكرية فرد ، وكل من البارودى وشوقى فى البيئة الشعرية فرد ، وكان المنفلوطى فى البيئة الكتابية أو فى المدرسة النثرية فى ذاك العهد فردًا يشار إليه بالبنان ، لا يُشق له فى هذا الطريق غبار ، ولا يملك قارئه إلاّ الإكبار والإجلال ومواصلة الاستحسان ، ولقد أعلن طه حسين فى مقالاته المبكرة حين عرف طريقه إلى الصحافة ، وتعرَّف بل التصق بمن يعينه على النشر – أعلن تفرد هؤلاء الأفراد فقال : « فى البلد أفراد من الكتاب إذا أعلن أحدهم إلى الناس أن مقالا له سيُنشر فى إحدى الصحف يوم كذا ، صادف منهم نفوساً كلفة بما يكتب ، وقلوبا مشغوفة بقراءته ، ثم ألسنة بعد ذلك منطلقة بالثناء ، وأقلاما جارية بالإطراء ، منها ما يثنى على الكاتب لأنه الكاتب ، ومنها ما لا يصدر فى إطرائه إلا عن اعتقاد صحيح بأنه فى مقاله محسن مجيد » [1] وما أظنه فيما يقول إلا قاصدا المنفلوطى ، وما حققه لنفسه من مجد أدبى .

وإذا كان طه حسين فى هذه الفقرة قد كنَّى عن المنفلوطى ولم يصرح به ، وقد خصّه من التوصيف بما كان له وحده وإن لم يسمِّه ، فإن الزيات قد شهد بما شهد طه حسين للمنفلوطى ولكن فى صراحة مستقيمة ، وفى اعتراف لا يشوبه مسّ الظنون ، فيقول : « ... أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد إشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورنَّ فى أسماع الأدباء رنين النغم ، فرأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ ، وسجعات البديع ، وما لم يرونه فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد العذب . وكان هذا النفر الأيفاع من

---

(١) انظر : وحى الرسالة للزيات ، المجلد الأول ص ٣٨٦ . وانظر مقال المنفلوطى بين طه حسين والمازنى د . محمد رجب البيومى ، الهلال ، يوليو ١٩٨٦ .

المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام الرواق العباسى يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون المؤيد ؛ ليقرأوا مقال المنفلوطى خماسى وسداسى وسباع ، وطه مرهف أذنيه ، ومحمود مسبل عينيه ، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب ، فلا ينبس ولا يطرف ، وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى تلميذه المختار .... » .

وما هذا النفر الأيفاع من المتأدبين إلا طه حسين ومحمود زناتى وأحمد حسن الزيات نفسه ، وهو فى جماعته حينذاك بشهادة طه حسين كان يقوم من صاحبيه مقام الأستاذ ، لأنه كان أحب منهما للصحف ، وأكثر منهما عكوفا عليها وإغراقا فى قراءتها ، وأوسع منهما صدراً للتجديد [1] ، وما هذا الاعتراف الصريح الفصيح من الزيات إلا شهادة حق على تعلّق ثلاثتهم فى مرحلة التكوين بالمنفلوطى وأسلوب كتابته ، حتى إنهم يقرءون المقال خمس مرات فأكثر ، وفى كل قراءة كان كلّ منهم يركز أو يخزن وربما يحفظ ويستظهر بطريقته ، ومظاهر عادته فى التركيز أو التخزين أو الاستظهار فطه مرهف أذنيه ، ومحمود مسبل عينيه ، والزيات لاينبس ولا يطرف .

وهؤلاء الفتية الأيفاع المبهورون بالمنفلوطى لم تنقطع صلتهم فى مرحلة تكوينهم بمن قرأ لهم المنفلوطى أو أخذ عنهم وتتلمذ على أيديهم من المحدثين أمثال محمد عبده والبكرى وناصف . ومحمد المويلحى ، وأحمد مفتاح ، وحمزة فتح الله ، وعبد الله فكرى ، وأحمد فارس الشدياق ، وإبراهيم اليازجى وغيرهم كثير ، من مشاهير كتاب العصر الحديث ، وبمن قرأ لهم المنفلوطى أو أخذ عنهم ، وتتلمذ على أيديهم من السابقين أمثال ابن خلدون وابن المقفع والجاحظ والصاحب والهمذانى والخوارزمى وغيرهم كثير من المتباينين فى زمان السبق ، والمتفردين فى طرق الأداء ، وقبل هؤلاء جميعا كان القرآن الكريم ، المثل الأعلى فى روعة المضمون وعظمة البناء ، وكان كذلك المأثور من أحاديث وأقوال الرسل والأنبياء والصالحين والحكماء .

---

(١) من لغو الصيف إلى جد الشتاء ، طه حسين ، ص ٣٦٥ .

وطه حسين حين بدأ ينشر ، وتمكن منه الطموح بما مكّنه من الوسائل والإمكانيات التى تعينه على أن يكون ، بل وأن ينتشر ، كان واعيا بمطالب النهضة الأدبية والفكرية التى تموج من حوله ، وكان يقظا لما يروج - إبان هذه الفترة - بين المتلقين من أساليب النثر الفنى ، وما يرتفع به شأن الكاتب عندهم على غيره ، وكان عليه أن يأخذ نفسه بالشدة التى اعتاد أن يأخذها بها فى كل جانب من جوانب حياته ليحقق لنفسه ما يبغى ، وليكون بين الناس كما يحب ، فليس أمامه من سبيل إلا أن يظهر للناس فيما يكتب بمظهر القادر على منافسة البارزين فيما يكتبون ، والمتمكن من طرق هذه الصناعة التى صاروا بها روادا متميزين .

وأوضح طرق الصناعة الكتابية فى تلك الفترة كانت طريقتان ، طريقة الكتابة المسجوعة التى تعتمد على الصنعة اللفظية ، وطريقة الكتابة المترسلة التى تعتمد على الحرية التعبيرية .

وكانت الطريقة الأولى ممتدة الجذور فى تاريخ فن الكتابة ، تتابع إتقان الصنعة لها من ابن العميد [١] وعصره الذى كان عصر تألق وزخرف ، فهداه طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفقر ، أنيق الديباجة ، بديع الوشى . تلاه الصاحب ابن عباد [٢] الذى سار على نهجه ، ولكنه أربى عليه فى الحلية اللفظية ولاسيما فى السجع والجناس حتى قيل فيه : لو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه أن يتخلى عنها . ثم حمل عبئها من أتباعه الحريرى ، فمهّد بها لظهور الطريقة الفاضلية ، بالقصد إلى البديع ، والمبالغة فى الصنْعة ، والإفراط فى تدبيج اللفظ . ثم تولاها القاضى الفاضل ، فبنى على أصولها طريقته الجديدة التى مازها بالإغراق فى التورية والجناس ؛ وظلّ هذا المذهب فى الكتابة غاشيا على العيون ، رائنا على القلوب حتى عصرنا الحديث ، فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الإفرنجية [٣] .

---

(١) توفى ابن العمير سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) المتوفى سنة ٣٨٥ هـ .

(٣) راجع فى ذلك تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات ، ص ٢٣٤ - ٢٤٩ .

ولقد كانت هذه الطريقة البديعية فى الكتابة حتى أوائل القرن العشرين دليل الكاتب على القدرة والتمكن ، ودليل فن الكتابة على التشبث بالتراث والتعلق بأسلوب المقامات ، ودليل هذا الطور من أطوار تطور النثر الفنى فى العصر الحديث من أن ينسج على خصائص فن الشعر من توازى الجمل ، وانسجام الإيقاعات ، والحفاظ على أصول اللغة العربية من فصاحة وجزالة ، ومن رونق ورصانة ، وعناصر أخرى لها فيها صفات الاستقرار والثبات .

ولقد كتب بهذه الطريقة أساتذة طه حسين والسابقون عليه فى هذا المجال أمثال محمد عبده وحفنى ناصف والبكرى والمويلحى وغيرهم من أبناء جيلهم ، وكلهم تخرجوا فى الأزهر أو دار العلوم . ووهبوا حياتهم للإصلاح والتثقيف والتعليم ، ولقد شهد طه حسين بذلك فقال : « ... ورأينا المتأخرين من المحافظين فى النثر قد عمَّروا حتى أوائل هذا القرن ، ولم يخلصوا من قيد السجع والبديع إلا بعد أن طغى عليهم سيل هذه النهضة الحديثة التى ظهرت عنيفة بعد الحرب الكبرى ، وما نزال نرى إلى الآن طائفة من الكتاب الناثرين قليلين ، ولكنهم موجودون ، يكتبون فيسجعون ، ويخضعون لقيود البديع وأغلاله ... » [١] .

وإذا التمسنا على ذلك المثال ، فهذا هو محمد عبده حين راح يشقُّ طريقه إلى الكتابة فى الصحف جاء أول مقال نُشر له [٢] – وكان تحية منه لجريدة الأهرام – جاء على هذا النسق من النثر الفنى الذى يكلف بالبديع ، ويعتمد على السجع ، وعلى غيره من ألوان المحسنات اللفظية والمعنوية ، مكثرا من قصار الجمل ، والاستعانة بشاهد شعرى أو جملة قرآنية أو مثل سائر أو حكمة إنسانية ، ليمكِّن لنفسه فى عالم الكتابة ، ويدل بذلك على ماله من قدرة وبراعة ، وجاء أول مقاله إشادة بمصر التى كانت فى سالف الزمان « مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كانت قد اختصت بتربية العلوم وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة فى الصنائع ، والابتكار فى أنواع البدائع ، فكان أبناء العالم إذ ذلك ينتدون نداها ،

---

(١) حافظ وشوقى ، طه حسين ، ص ٤ .

(٢) جريدة الأهرام ، فى ٢ سبتمبر ١٨٧٦ م .

ويستجدون جداها ، يستمطرون من الغيث قطرا ، ويستمدّون من المحيط نهراً ... »
واستمر محمد عبده على هذا النسق البديعى المتعمَّد ، حتى وصل فى آخر مقاله إلى غايته المقصودة ، وهى تحية الجريدة والإشادة بفضلها ، وأثرها بين الناس ، فقال :
« ... فيالها من جريدة أسَّست قواعدها فى القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادى بمقالها وحالها : حىّ على الفلاح ، وهلموا إلى موارد النجاح ، لا تقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى ، تلك أوهام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عِبَر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سرّ السماوات » .

وإذا كانت الطريقة البديعية فى كتابة النثر الفنى قد راجت فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وكانت منهج كتّاب الثورة العرابية ، ومجال تنافس بين الأدباء فى نسج الرسائل الإخوانية ، وتدبيج المقالات التى امتطت نَمَط المقامات ، فإن هذه الطريقة قد ذاعت من جديد فى بعض المجلات المصرية عقب دستور ١٩٢٣ ، ولقد كتب بها حفنى ناصف كثيرا من مقالاته ، من ذلك مقاله بعنوان مصاب إدريس فى يحيى ، الذى حمل فيه على جريدة الاعتدال المناوئة للمصريين ، وعلى محرِّرها يحيى السلاوى الذى أجمع الوطنيون على ضرورة هدمه ؛ لأنه كوفىء لتنديده بالمصريين ، ممالأةً لبعض أصحاب السلطان ، فقال حفنى فى بعض هذا المقال [١] :

« ... كان عهدى به يفهم المعانى وان كان يُعانى ، ويعقل ما يقال وإن لم يكن فى الحال ، فرماه الدهر بالاختلال لماً باشر تحرير (الاعتدال) ، فأصبح عريا عما يقال له علم . ضاربا صفحا عن خروج المسمى من حيِّز الاسم ، ولقد كنت أفاخر به الخفراء ، وأجعله موضوع حديثى فى الليلة الليلاء ، واستغنى بذكره عن تعاطى النشوق وأطرد باسمه النوم عند الخفوق .... » . بل إن هذه الطريقة البديعية فى الكتابة ، أو المقال المسجوع على طريقة أسلوب المقامات ، كانت تشكِّل – فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن – اتجاها كتابيا فى حياتنا الأدبية الفكرية ، ينسج أربابه بطريقته جميع الموضوعات التى يقدمونها للقارئ : سياسية أو وصفية ، واجتماعية أو أدبية ، وتأملية أو انطباعية أو غير ذلك من موضوعات ، وإن كان هذا الاتجاه رغم جودة بعض نماذجه – كما يقول

(١) راجع نثر حفنى ناصف ، ص ٩٧ .

الدكتور أحمد هيكل – « كان صحوة الموت بالنسبة للنثر البديعى المتكلّف ، الذى لفظ آخر أنفاسه بعد سيطرة الاتجاه المرسل ، وتطور طرقه وتنوعها » [١] وإن كان مِن زعماء هذا الاتجاه مَن كان مدفوعا إليه بدافع النضال من أجل إحياء اللغة العربية ، وحمايتها من اللفظ الدخيل وفساد اللهجة العامية ، ومن بين هؤلاء محمد توفيق البكرىّ الذى يقول فى مقدمة كتابه صهاريج اللؤلؤ [٢] :

« ... أما بعد ، فهذه كلمات فى النثر ، وأبيات من الشعر ، ضمَّنتها نخبا من الحِكم ، وأقاويل من جوامع الكلِم ، وذكرى من مغرّبة الأخبار ، ونعوتا لبعض الأناسىّ والآثار ، ومُثلات فى المواعظ والاعتبار ، وشعشعتها بأنظار الجهابذة المتقدمين ، والحكماء المتأخرين ، كما تشعشع الرَّاح بثغبان البطاح ، فجاءت بحمد الله من البلاغة فى القرار المكين والركن الركين ، وقد التزمت فى أكثر عباراتها فُصَحَ الحجَّاج ، ولسان رؤبة ابن العجاج ، وأنا أعلم أن من الأدباء اليوم من ينفر من الغريب ولا ينفر من الدخيل ؛ لاستيلاء العجمة على هذا الجيل ، فلم يثننى ذلك عن أن أودِّع كلام الأعراب بهذا الكتاب ، وأحدو فى إثر تلك الرقاق بما فى هذه الأوراق ... » .

إذن هذه الطريقة فى معالجة كتابة النثر الفنى – فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن – كانت فى رأى المتمكّنين منها والقادرين عليها وسيلة نضال ؛ لإعلاء شأن الفصحى وحمايتها من الدخيل ، وما استشرى من فساد لسان الجيل ، وكذلك هى فى رأيهم دليل تمكُّن واقتدار على ما يجعل الكلام أدخل فى تمكين المعانى فى الأذهان ، وأنشط للأسماع ، وأدعى للإقبال ، وأخفّ على الأرواح ، مما جعلها بالنسبة لمشاهير الأدباء مجال تنافس وافتنان ، ولغة الطبقة العليا من أهل الفصاحة والبيان .

من هنا كان على طه حسين الطموح الناشىء – وقد عرف طريقه إلى الصحافة وتيسرت أمامه سبل النشر – أن يأخذ نفسه بهذه الطريقة مقلداً فحولها ، منتهجا نهج أبطالها ، باحثا عن إمكانياته فى تحقيق ذاته من خلالها ، وبخاصة لأنه كتب المقالات المرسلة فلم يثر اهتمام أحد ، ودعا القراء إلى أن ينازعوه أطراف القول فيما يكتب ويقول

---

(١) راجع تطور الأدب الحديث فى مصر ، د . أحمد هيكل ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) صدرصهاريج اللؤلؤ لمحمد توفيق البكرى سنة ١٩٠٦ ، والنص ص ٣٠١ .

فلم يستجب لدعوته أحد ، حتى إنه صرخ فى القراء والنقاد معا ، وعلى صفحات الجرائد تحت عنوان مِن أيّهم أنا ؟ (١) وقال فيما قال :

« فأما سيىء الحظ من الكتّاب فأحد اثنين : رجل لم يلق من الناس إلا انتقادا مُرًّا ، وتشهيرا مخجلا ؛ لأنه لم يقصد إلى الجادة ، ولم يوفق إلى الصواب .

ورجل لم يلق من الناس خيرا ولا شرًّا ، ولم ينل منهم حلوا ولا مُراً ، لأنه لم يكتب ما يستحق المدح أو القدح ، أو لأن مقاله صادف من الناس أوقات الخمول والسآمة .

فمن أىّ هؤلاء يمكن أن أكون أنا ؟

خطر لنفسى هذا الخاطر ، فألقت علىّ هذا السؤال بعد أن قرأت مقال الجمعة ، فإذا هو سابع ما نُشر بهذا العنوان ، وقد يكون الرابع عشر لما نُشر بهذا الإمضاء ، وإذا أنا كأوّل يوم كتبتُ ، لا أقول لأنى لم أسمع كلمة ثناء ، فقد علم الله ما ابتغيتها اليوم . ولا تمنيتها ، ولئن كنت مشغوفا بها كل الشغف ، فهى الآن أزهد عندى من عفطة عنز كما يقول على بن أبى طالب ، لأنى أعلم أن آنها لم يؤن بعد ، وأدّخرها لذلك اليوم الذى تطلبنى فيه ولا أطلبها . ولكن لأنى لم أسمع كلمة ناقد ، ولم أر مقالا لعائب بعد أن دعوت القراء إلى أن يُنازعونى أطراف القول فيما أكتب وأقول .

ولقد كنت أحسب أنّ بؤسى مطبق فى كل شيء ، حتى فى الكتابة ، وأن موقفى زلق فى كل مكان حتى بين الكتّاب . نظرت فإذا أنا لست من كتّاب المنزلة الأولى ، فلم يرُعْنى ذلك ، لأن هذه المنزلة غاية يبلغها كل كاتب مثلى لم يقف من حيث الإجادة والإحسان عند حد ، ثم نظرت فإذا أحد الرجلين فى المنزل الثالثة ... »

... فهذه هى غايته التى يريد أن يبلغها ، أن يكون معدوداً من كتّاب المنزلة الأولى ، وهؤلاء الكتاب الذين تتألف منهم هذه المنزلة هم أولئك النفر الذين شهد لهم طه حسين – من قبل – شهادة العيان بأن النفوس كلفةٌ بما يكتبون ، والقلوب مشغوفة بما

---

(١) طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد الكيلانى ، ص ٣٨ .

يسطرون ، وما هؤلاء إلا المنفلوطى ومحمد عبده وحفنى ناصف وغيرهم ممن يُعدّون من طبقتهم ، وفى منزلتهم .

... وهذا هو منهجه فى بلوغ هذه الغاية ، والوصول إلى هذه المنزلة ، ألاَّ يقف من حيث الإجادة والإحسان عند حد ، وألا يتجمَّد فى مجال الكتابة والإنشاء فى حدود طريقة أو على هامش مذهب ، وقد نسج المقالات بالأسلوب المرسل ، فلْيقتحم الطريقة الأصعب ، والمذهب الكتابى الذى لا يصلح له أو يفلح فيه إلا أئمة الأدب حينذاك ، وفرسان البراعة آنئذ ، أو من يريد أن يمكِّن لنفسه فى عالم الكتابة ، وبين أرباب القلم ، ولذلك نشر عدة مقالات مقلِّدا فيها هذه الطريقة ، مُحتذيا فيها حذو هؤلاء ، من بين هذه المقالات ما نشره بعنوان : « بيْن العبرات والزفرات » ومنها نكتفى بهذا النص ، وفيه يقول [1] :

« يقضى ساعات الليل ومعظم النهار بين قلب يجف ، ودمع يكف ، وجسم يرتجف . شهيق وحريق ، زفير وسعير ، وجيب ولهيب . عين ساهرة ، وهموم ثائرة ، ونفس حائرة بين ماض مؤلم ، ومستقبل مظلم . صامتاً إلا من كلمات متفرقات يسبقن إلى قلبى فيثرن كمينه ، ويهجن دفينه . يتلجلج بهن لسان لا يكاد يقوى على النطق ... أواه .... ويلاه ... ليتنى ... لكننى .

على أنه منذ أيام قد كان يستطيع أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ، أو شاطىء النيل فيَسرِّى همه ، ويسلى حزنه . أما الآن فقد لزم الفراش فما يستطيع الحركة ، ولا يقوى على النهوض .

وأصبح مثل النسر طارت فراخه … إذا رام تطياراً يقال له قع

رُحماك اللهم بهذا الشاب ، ماذا جنى ؟ وما عسى أن يكون ذنبه ؟ إنه لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره ، ولم يحمل من أعباء الحياة ما يكلّ متنه ، ويثقل كاهله . لم يشفّه عشق ، ولم يستخفه غرام . لم يشك علة بعينها على أنه أعيا الأطباء !

---

(١) مصر الفتاة ، فى ١٩ أكتوبر ١٩٠٩ .

رحماك اللهم ! إنه يعول أبوين وأخوين . فمن لهم إذا اختطفته المنية من بينهم بعد حين ؟

رحماك اللهم ! أيذوى هذا الغصن اللدن ؟ وتذبل هذه الزهرة الناضرة ؟ ويستأثر الموت بهذا السيد ؟ وتضم الأرض هذا الشخص الكريم ؟ بعد أن كان مثال الكمال فى الخَلق والخُلق » .

« كان بديع الصورة ، جميل الطلعة ، وضىء المنظر ، حسن المخبر ، طاهر النفس ، طيب السيرة . لا يعرف الشر ولا يميل إليه ، اللهم إلا زلة هى أصل نكبته ومصدر محنته . زلة إلا تكن صغيرة فقد كانت حداثة سنّه فيها خير شفيع » .

« ذنب إلا يكن مغفوراً فإنه لم يرغب فيه ، ولم يأته طائعا . جناية إن تكن فظيعة فإنما جناها عليه حسنه وخبث النساء » .

« يالله وللمحدثين ! عقول ناشئة ، ونفوس ضعيفة ، إلى خفة الروح ، وجمال الطلعة ، وتهافت البغيات عليهم ، وتغافل الآباء عنهم ، فماذا يصنعون ؟ » .

« يسأل القارىء عن هذا الشاب الذى صفت نفسه من الدنس ، وطهرت من كواذب الأخلاق . كيف يعثر أو يزل ؟ ولكنه إذا التفت إلى أن قوة من الشر تكمن فى كل نفس مهما كانت خيرة ، وتهيجها المؤثرات الخارجية إذا لم يتغلب عليهن حب الخير ؛ بلغ من الشاب عذراً ، وسأله عن هذه المؤثرات ، وأنا بالإبانة له عنهن زعيم » .

وحسبى أن أسجل هنا لمحمد سيِّد كيلانى صاحب « طه حسين الشاعر الكاتب » رأيه فى تقليد طه حسين وغيره من شباب تلك الفترة للمنفلوطى ، فى الألفاظ وفى العبارات وفى العناوين إذ يقول :

« وكان الشبان يحسدون المنفلوطى على تلك الشهرة ، وذلك المجد الأدبى الذى ظفر به . وخُيِّل إلى بعضهم أنهم قادرون على مجاراته ، ولكن كانت تنقصهم الملكة الأصلية والموهبة الطبيعية التى رُزقها صاحب النظرات ، فعجزوا ولم يجدوا عندهم المقدرة على الكتابة ، فانقطعوا بعد مقالات قليلة . وكما قلدوه فى الألفاظ والعبارات قلدوه فى العناوين . وكان طه حسين أحد هؤلاء المقلدين . فكتب مقالات تحت عنوان : « بين

العبرات والزفرات » سلك فيها مسلك المنفلوطى فى مخاطبة الوجدان ومحاولة إثارة العواطف . وموضوعها قصة شاب على درجة كبيرة من الجمال ، طيِّب السيرة ، لا يعرف الشر . كان يعمل خادماً فى منزل أحد الأغنياء ، فهامت به ربة القصر وقرَّبته منها ، وأجلسته إلى المائدة بجانبها ، ثم راودته عن نفسه فلم يمتنع . وظل الأمر مستوراً حتى انكشف ، إذ دخل صاحب القصر فجأة فوجد الشاب جالساً بلصق الزوجة ، فثار وأطلق عليه النار فأصابته رصاصة فى فخذه . وقد تمكن الشاب من الفرار ، وهام على وجهه فى مدينة القاهرة ، وظل كذلك حتى عثر عليه طه حسين . وتناول الكاتب مشكلة الخير والشر ، فأشار إلى وجود الشر فى كل نفس مهما بدت خيرة . ثم دافع عن الشاب دفاعاً حاراً ، وألقى اللوم كله على النساء العابثات » [١] .

وطه حسين فيما صاغ من مقالات نثره الفنى بهذه الطريقة حاول أن يأخذ نفسه بالشدة فى التأنق واصطناع السجع وغيره من محسنات البديع ، وأن يلمّ فى مقاله ببضعة مفردات مستبضعة من بطون المعاجم أو مسترجعة من لغة المقامات ، وأن يجنح فى طريقته إلى منهج القص وتتابع السرد والوصف ، وتوظيف الالتفات فى توجيه الكلام ، أو طرائق التشبيه فى تجسيد المعانى ، أو أسلوب القرآن فى بناء الجمل وتكوين الصور واستخدام الألفاظ ، وهو فى كل ناحية من هذه النواحى مجرِّب مجتهد ، يطمح لو يستطيع أن يستقيم مقاله على كل حسنة كاتب امتاز بها ، أو كل ميزة فى نثر فنى مكتوب انجذب إليه قراؤه بسببها ، فيأخذ من ثروة اللغوى قوة اللفظ ومتانة السبك ، ويأخذ من بلاغة البليغ جمال الصياغة وروعة الإثارة ، ويأخذ من طريقة القاص حسن العرض وفنية السرد ، ويأخذ من أسلوب القرآن طلاوة البناء باقتباس بعض ألفاظه ونظام تراكيبه ... ولكنه كان يأخذ من ذلك كله بقدر إمكانه هو على الأخذ ، لا بحجم إمكان المأخوذ منه على العطاء ، ولذلك بقى هو بقدر ما أخذ مقلِّدا لمن أخذ منه ، محتذيا لمن استهلمه فألهمه ، وبما استعان به واستهداه ، فأعانه وآزر على طريق الاحتذاء خطاه .

---

(١) طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد كيلانى ، ص ٣٢ - ٣٣ .

وأكثر مقالات طه حسين التى نسجها بهذه الطريقة قد نشرها حين كان بين صحيفة « مصر الفتاة » وبين صحيفة المؤيد [١] خصومة قديمة ونزاع عنيف ، فُتح من خلاله لطه حسين طريق الاشتباك مع كتاب المؤيد ، ومن بينهم مصطفى لطفى المنفلوطى ، ولذلك لم يخل مقال من مقالاته التى نشرها بعنوان « نظرات فى النظرات » من فقرة أو فِقَر ، تكلف فيها السجع ، واستجدى فيها ألوان البديع ، ظهر لنا ذلك فى النظرة الثانية التى سبق عرضها كاملة ، وفى الفقرة المجتزأة من النظرة الثامنة ، ونرى مثل هذا فى النظرة الثالثة [٢] ، حيث يقول عن القراء المخدوعين — فى رأيه — فى المنفلوطى وما يكتب ، والغافلين — فى نظرته — عن حقيقة الكِتاب وما يحوى ، فإذا بهم يرفعون المنفلوطى إلى ما لا يستحق من المكانة لأنهم مخدوعون ، ويجعلون من كتابه سِفراً سابقا لزمانه لأنهم غافلون ، يقول :

« خدعتهم ألقاب لم يفهموها ، وعناوين لم يتبيَّنوها ، لو قرأوا الكتاب لعرفوا أن مكانه من الكتب الأخرى مكان الأصداء المختلطة من الأصوات المختلفة ، وأن الكتاب ليس إلا مزيج الصالح والفاسد من آراء القدماء والمحدثين » .

ونرى مثل هذا أيضا فى النظرة الرابعة ، حيث يقول عن مقالات المنفلوطى فى العلم وفنه ، وفى العلميات وروافدها :

« خمس رسائل من العلم فى الكتاب لم يرفعن حقا ، ولم يضعن باطلا ، ولم يأتين برأى سديد ، ولا بحث مفيد ، ولم يبْنين قاعدة طريفة أو فائدة ظريفة ، تفرقن بين الجمّ الغفير ، من نظيم ونثير ، على رِكَّة فى اللفظ وقبح فى التصوير ، لا يرفعن صاحبهن من العلم إلى مكانة الطلاب الأذكياء ، بله النوابغ الباحثين . » ويختم هذه النظرة بقوله موجها الكلام للمنفلوطى : « أيها الكاتب المغرور ، ليس بنافعك أن تحوك لنفسك من الحمد برودا ، وتنظم لها من الثناء عقوداً ... »

ونرى مثل هذا فى مستهل النظرة الخامسة [٤] ، حيث يقول ، والكلام موجَّه للمنفلوطى

---

(١) صحيفة مصر الفتاة كان صاحبها يوسف المويلحى ، وصحيفة المؤيد كان صاحبها الشيخ على يوسف .

(٢) الشعب فى ٢٦ أبريل ١٩١٠ مقال بعنوان : منزلة النظرات من الكتب المحدثة .

(٣) الشعب فى ٤ مايو ١٩١٠ . مقال بعنوان : ماس بيرا فى كتاب النظرات .

(٤) الشعب . فى ١١ مايو ١٩١٠ — مقال بعنوان : الكذب والتغرير فى كتاب النظرات .

أيضا : « ... أيها الكاتب المجيد ، عم صباحاً أو مساء ، واشرب هواء أو ماء ، نل بيديك السماك ، وإذا استطعت فانطح بقرنيك الأفلاك ، أو سابح فى البحر الأسماك ، فلن أتأثر بالنقد إلا إياك ... » .

وهكذا كأنما طه حسين يدفع نفسه إلى هذه الطريقة دفعا بغير رفق ، ويلحّ على ألوان البديع إلحاحاً بغير قصد إلا أن يكون مبتغيا أن يناظر المنفلوطى فى رعاية سبك الجملة والاهتمام البالغ بالأسلوب ، وفاته أن ذلك عند المنفلوطى قد تم عنده باكتمال الخبرة ومواتاة الطبع ، وما جاء فى نظراته من فِقَر مسجوعة أو حتى الموضوع بجملته إنما كان سجعا فى غير تكلف أو إسراف ، وكانت فيه ألوان البديع موظفة فى تحسينها المبنى ، وتجسيدها المعنى فى غير افتعال أو إلحاح ، ولنكتف بالفقرة المسجوعة عند المنفلوطى من موضوع السريرة [١] حيث يقول :

« .. تتراءى لك السريرة فى ظاهرها كأنها أديم السماء أو صفحة الماء ، فإذا بدا لك أن تكتنه باطنها فإنك غير بالغ من ذلك مأربك إلا إذا استطعت أن تخترق جلدة السماء فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص فى أعماق الماء ، فتشاهد ما فى باطنه من عجائب المخلوقات ... » .

ولنكتف من الموضوع المسجوع بمقاله : « دمعة على الأدب [٢] . حيث يقول :

« مات بالأمس إمام الشعر البارودى ، وإمام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، وسكبنا عليهما من الدموع ماسكبنا ، ثم كففنا من تلك الدموع ، وخفضنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل : إن فى الباقى عزاءً عن الفانى ، وإن فى الأبناء خلفا من الآباء ، ولقد كرّ على عهدها الشهر بعد الشهر ، والدهر بعد الدهر ، والأدب جاثم فى مكمنه هامد ، لم يُبعث من مرقده بعد ما قبرناه ، ولم ينشر من قبره

---

(١) النظرات ، جـ ٢ ، ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥ وما بعدها .

بعدما واريناه ، فتساءلنا أين الباق الذى يزعمون ، والخلف الذى يذكرون ؟ . أين فطاحل اللغة الأدبية لا السياسية ، وأرباب الأقلام العربية لا الأعجمية ؟

عذَرنا المويلحى الكبير واليازجى ؛ لأنهما ماتا ، ولحقا بصاحبيهما فهل مات شوقى وحافظ والبكرى والمويلحى الصغير ؟

ما مات منهم أحد ، وإنما كانت حياة ذينك الرجلين ، حياة الصناعتين ، وكان لوجودهما سر من الأسرار ، ينبعث فى الألسنة فيطلقها ، والأقلام فيجريها ، وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصابيح الكهرباء ، تشتعل المصابيح بتيارها ، وتضىء بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها ، وانقضى أجلها ، عم الظلام واشتد الحلك ، والمصابيح كما هى ، جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى .

أما شوقى فقد طار فى جو غير هذا الجو ، وهام فى واد غير هذا الوادى ، وما زالت تعبث به الأنواء حتى أغرقته فى شبر من الماء ، وأما حافظ فقد انقضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء [١] ، أما حياته الشعرية فلم يبق منها غير نظم المقالات السياسية من العام إلى العام ، وأين هذه القيثارة البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف الرنان ، الذى كنا نسمع منه مختلف الألحان ، وأفانين الأشجان ، وأما البكرى والمويلحى فقد قضيا حق التأليف ، هذا بصهاريجه [٣] ، وذاك بفتراته [٤] ، ثم لحقا بالسابقين ، ومضيا على أثر الماضين .

أين سكانك لا أين لهم أحِجازا أوطنوها أم شآما ؟

أين الروضة الغنّاء التى كنا نتفيَّأ ظلالها ، ونهصر أغصانها ، ونقطف ما شئنا من ورودها ورياحينها ؟ وأين البلابل التى كانت تنتقل بين أشجارها فتطرب بالأغاريد ، وتستهوى بالأناشيد :

فاسألنَّها واجعل بكاك جوابا تجد الدمع سائلا ومجيبا

---

(١) هو كتاب لفكتور هيجو الشاعر الفرنسى ، ترجمه حافظ إبراهيم ترجمة فصيحة ولم يتمه .

(٢) كتاب صهاريج اللؤلؤ لتوفيق البكرى .

(٣) كتاب فترة من الزمن أو حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى .

أنا لا أعجب لشيء عجبى لهؤلاء الأدباء ، يحزنون فلا يبكون ، ويطربون فلا يضحكون ، ويتألمون بلا أنين ، ويعشقون بغير حنين .

أيطرب البلبل فيغرد ؟ ويشجى الحمام فينوح ؟ ويطرب الشاعر ، ويشجى الكاتب فلا ينطق لسانهما ، ولا يهتز قلمها ؟ » .

وما القصد من إيراد هذه الفقرة أو رصد هذا الموضوع إلا إثبات الفرق فى مثل هذا النثر الفنى – القائم على ألوان البديع وسجع الجُمَل – بين المصطنع عن قدرة ، وبين المطبوع عن خبرة ، فأولهما يثير بنفس القارىء مدي المعاناة ، وثانيهما يهز وجدان القارىء بمدى المصافاة ، فأما ما ينتج عن المعاناة فإنه يُقرأ ثم يترك لأنه متعِب ، وأما ما ينتج عن المصافاة فإنه يُقرأ ، ويستعاد فيمتع ويعجِب ، وكذلك كانت مقالات المنفلوطى المثل الأعلى لكتابة المقالة ، والطريقة المثلى فى تمثيل روح العصر ، فإن بالغ فى فقرة أو فى موضوع فى التزامه السجع لا نكاد نجد له كلمة تحتاج إلى تفسير ، أو إلحاح فى المحسنات يؤدى إلى ملال ، وهذا ما كان ينقص طه حسين ، فلا نكاد نجد فقرته المسجوعة تخلو من لفظة أو بضعة ألفاظ تطلب الإيضاح ، ولا نكاد نجد موضوعه المسجوع يخلو من ذلك ، ثم يستعجلنا الملال فوق ذلك من إتمامه ؛ لإسرافه فى استخدام المحسنات ، ولم يعالج هذين المأخذين عنده لا ممارسته الكتابة بهذه الطريقة ، ولا مُضيّ الزمن به فى التثقيف والتعليم حتى تقدم لامتحان العالمية فى الأزهر ؛ لأنه برغم هذين العاملين الكافيين لاستكمال خبرته ، وتجنب نقاط ضعفه فى كتابته ، نقرأ له ما كتب تحت عنوان : « يوم الصائم عند جمهور الناس » [1] فإذا به يقول :

« انتصف عليهم النهار وقد أوردهم الصدى موارد الردى ، وبلغ منهم الأوام منازل الحِمام . فجفت الشفاه ، وكمت الأفواه . وخلت الأجواف . وفترت الأُطراف ، وعبث الصداع بالأبصار والأسماع . يصهر جلودهم القيظ ، وينضح قلوبهم الغيظ . فالبطون فارغة ، والعيون زائغة ، والنفوس ذاهلة ، والأجسام ناحلة . وقد قطع الحلم عنهم أسبابه ، ومد النزق بينهم أطنابه . فعم الجهل والحمق ، وكثر الطيش والخرق . وانطلق اللسان

---

(١) الجريدة فى ١٩ أغسطس ١٩١٢ .

بمحرجات الأيمان على الجليل النابه ، والخسيس التافه . ولئن سألتهم عن مصدر ذلك وعلّته ليقولن وهم ساخطون : إنما نحن صائمون » .

« كذلك يقضون النهار فى آثام وأوزار ، إلا ما كان من نوم ساعة كيوم ، ومن نعاس كقلع الأضراس . فإذا دنا الغروب خفقت القلوب ، وأصغت الآذان لاستماع الأذان . وطاشت نكهة الطعام بالعقول والأحلام . فترى أشداقاً تتحلب ، وأحداقاً تتقلب بين أطباق مصفوفة ، وأكواب مرصوفة تملك على الرجل قلبه ، وتسحر لبه بما ملئت من فاكهة وأترعت من شراب » .

« الآن يشق المسمع دوى المدفع . فانظر إلى الظماء وقد وردوا الماء ، وإلى الجياع أطافوا بالقصاع ؛ تجد أفواهاً تلتقم ، وحلوقاً تلتهم ، وألواناً تبيد ، وبطوناً تستزيد . ولا تزال الصحائف تُرفع وتوضع ، والأيدى تذهب وتعود ، حتى تتصبب الجباه عرقاً ، وتتقطع الأنفاس شرقاً ، وتدعو الأجواف : قدْنى قدْنى ، وتصيح البطون : قَطنى قطنى ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنها الأبدان قد بلغ منها الكد وأعياها العناء ، فمالت بعد الحركة إلى السكون » .

وما أظن ألفاظ : الأوام ، والحمام ، وقدنى ، وقطنى ، ومحرجات ، وتتحلّب ، سهلة الفهم بلا معين من عودة إلى معجم ، أو الاستعانة بمن يعلم ، ولا أظن هناك جملة خلت من محسن ، ولا فقرة لم تقم على ألوان البديع ، وشرط تأدية الألوان البديعية وظيفتها البلاغية فى الكلام ألا تكون مكثفة ، لأنها فيه كالحُلى ، والحلىّ تزيد قيمته بندرته ، وتذهب نضرته فى كثرته ، وهذه الألوان قلّت فى الكلام أو كثرت إنما تحسن إذا انبعثت عن طبع سمح وسجيّة صافية ، وتستهجن إذا صدرت عن تكلف أو اتسمت بملامح التصنع ، وتستدعى لإبراز المعنى فى وضوح وقوة فيبدو فى ثوب قشيب يسلب السمع ويسكن بين جوانح النفس ، وليس فقط لتزيين المبنى وإثبات قدرة على التصرف فى اللغة وإتقان الصنعة ، فتعمُّد هذا قصداً إن لم يفسد على القارىء وضوح المعنى وقوته فإنه يفقده نشوة التذوق ومتعة الحسّ .

وعلى كل حال فإن الكتابة بهذه الطريقة فى الفترة المبكرة من حياة طه حسين الأدبية – وأعنى بها مقالاته قبل سفره إلى فرنسا واستكمال تعليمه بجامعاتها – إنما كانت

نماذج حثّه عليها صدق الرغبة فى مبارزة حاملى راياتها ،أولئك النفر الذين دأبوا فيها على المحاولة فتمكّنوا ، واستمرأوا بها ممارسة الإنشاء والكتابة فأبدعوا وتفنّنوا ، وأعانهم فيما قدموه عن طريقها صفاء الفطرة وعمْق الخبره ونقاء الطبع ؛ ليبقى عطاؤهم بها ولها – فى مواجهة الدخلاء والمُقْتَحمين – إثبات ضعف وطريق احتذاء ، وليستمر ريادتهم لخصائصها الفنية – فى رياض الأدب وطريق المتأدبين – غاية إتقان وأصالة بنيان .

ولكنّ طه حسين فى غير مجال المبارزة كان يكتب بالنثر المرسل الذى تحرر من قيود البديع ، وتجنب ثقل التكلّف ، وتجاوب مع متطلبات الأسلوب الصحفى المتحرر ،الذى راده جمال الدين وعمقه وأذاعَهُ تلامذته من بعده ، وفى مقدمتهم محمد عبده ، ثم أكمل ملامحه وخصص طرائقَهُ من تأثروا بهذين العملاقين أمثال المنفلوطى والمويلحى وسعد زغلول ، والرافعى وعبد الرحمن البرقوقى وقاسم أمين وحافظ إبراهيم ، وعبد العزيز البشرى ، ومصطفى عبد الرازق وأخيه علىّ ، وكذلك طه حسين وغيره كثير ، وذلك لأن نشرهم بالصحافة أو جهادهم على صفحاتها لم يكن مرتبطا بالكتابة فى الأدب ، وإنما كانوا يكتبون فى السياسة والاجتماع والفلسفة والعلم والتاريخ وغير ذلك ، مما ينضج وعى المتلقين ، وينوِّع ثقافتهم ، وينهض بحياة أمتهم ، ولم يكن ما يكتبونه موجهاً إلى الخاصة من الناس أو الطبقة العليا من المثقفين ، وإنما كان موجها للناس جميعا ، ولأكبر عدد من القارئين ، ولذلك كان هذا النثر المرسل لا يهتم بالصياغة البيانية أو الأساليب البلاغية بقدر ما يهتم بإبراز الحقائق ، وإقامة البراهين ، وتحليل أفكار الموضوع ، والاهتمام بوضوح الأداء ، على اختلاف فيما بينهم فى مدى البساطة والترسل فى الإفصاح عن طوايا الأفكار والنفوس ، وفى مدى الاندفاع أو التخطيط فيما يتصل بدقة اختيار الكلمة المتناسبة فى جرسها ، وطريقة بناء الجملة وتباينها فى فواصلها ، جنوحا إلى السمو عن أسلوب السوقة ، والدنو من أسلوب الخاصة ، واستبقاء لما يكتبون ما ينبغى أن تتسم به صنعة الكتابة من مسحة فن تثيرُ الفكر وتثرى الأحاسيس .

وهو فى كتابته بهذا النثر المرسل لم يكن ذا خصائص أسلوبية يُعرف بها فى تلك الفترة قبل سفره إلى فرنسا ، فلم يلتفت الناس إليه على أنه صاحب أسلوب ، ولكنه حاول أن يلفتهم إليه من حيث الموضوع الذى يحدثهم فيه ، أو الرأى الذى يبادرهم به،

كأن يكون الموضوع غريبا أو الرأى مخالفا أو تجتمع له الناحيتان فى مقال واحد – من ذلك مثلا – فى غرابة الموضوع – أن يخرج على الناس بمقال يحدثهم فيه عن ارتياده الملاهى الليلية ، وهو الضرير وابن البيئة الريفية الدينية ، والمترعرع فى العلوم الأزهرية ، وأن ذهابه هناك لم يعتقد فيه الخطأ ، وإنما قصد إليه وهو معتقد أنه مصيب ، ومثل هذا الفعل منه أو ممن يشاركونه فى حالته الصحية ونشأته البيئية والتعليمية تصرُّف غريب ، وسلوك غير مألوف ، ثم إن اعتقاده عن يقين بأنه فى ذلك مصيب يضيف إلى غرابة الموضوع مخالفة لرأى العامة ، وخروجا على عادة الجماعة ، ولكنه طه حسين بكل مكوناته الشخصية التى حاولتُ استنباطها وتقدم عرضها ، وجاء هذا المقال تحت عنوان « الذوق والجمهور [1] » وفى أوّله يقول :

« كنت منذ أيام فى ملهى من الملاهى العامة ، التى يجب أن تُتَّخذ مثالا صادقا لذوق الجمهور ، وقد يكون هذا التصريح خطراً جدا ، فإن الجمهور لا يقبل من كاتب مثلى أن يزج نفسه فى المراقص وأندية الغناء ، بل إن أسرتى نفسها قد تنكر علىّ ذلك أشد الإنكار ، لأنها لا ترضى منى إلا أن أسلك سبيلا واحدا ، هو ما بين البيت والمدرسة ، وقد ألوم نفسى أيضا على ذلك ، بل قد لمتها من غير شك أشد اللوم ، وأنّبتها أشد التأنيب ، ولكننى أستميح القراء والمنكرين علىَّ معذرة من أن أقول : إننى لم أقصد إلى ذلك المهى وأنا اعتقد أنى مخطىء ، وإنما قصدت إليه وأنا أعتقد أنى مصيب ، وليس هذا بعجيب ، فإن ما مُنِحْنَاهُ من قوة الخيال كان كافيا كل الكفاية لتضليل أنفسنا ، وتمثيل الأهواء الفاسدة لنا فى صورة المقاصد النافعة ... » .

ومن ذلك مثلا فى مخالفة الرأى رأيه فى أن الدين لا يمكن أن يكون ركنا من أركان الوحدة بين أهله ، لأنه فى كل وطن يأخذ شكلا خاصاً بهذا الوطن ، وفى كل بيئه يأخذ صبغة معينة هى بتلك البيئة أشبه ، وبمرور القرون عليه لا يبقى بينه من التشابه فى أوطانه المختلفة وبيئاته المتباينة إلا أنه نشأ من أصل واحد . وهذا الرأى المخالف لم يلفت إلى صاحبه الآخرون لأنه خالف فيه رأى العامة ، أو خرج فيه على عادة الجماعة ، وإنما ألفتهم إلى صاحبه بالضجر منه والسخط عليه ؛ لأنه خالف فيه وحدة أركان الإسلام فى

---

(١) الجريدة فى ٣١ يوليو ١٩١١ م .

كل زمان وكل مكان ، واستقرار حقائق العقيدة – كما بيّنها القرآن ووضحتها السنة – جعلها هى هى فى كل بيئة من البيئات أو وطن من الأوطان ، وجاء هذا الرأى فى مقال نشره تحت عنوان : « المصرية والدين » [1] وفى هذا المقال يقول : « ولست أريد أن أقول إنّ الدين أيضا خاضع لحكم الوطنية ، وأثر من آثار الأرض التى يسكنها الشعب المتدين ، فإنى أخشى إن قلت ذلك أن لا أصيب ، وبعبارة أخرى أن أُرمى بالإلحاد والمروق ، وإنما أقول شيئا لا يستطيع أشد الناس حرصاً على الدين ورسوخا فيه أن ينكره علىّ ، أو ينقمه منى ، وهو أن الدين بعد أن ينزل به الوحى من السماء ، ويودعه نفوس الناس عن طريق الأنبياء والمرسلين – صلوات الله عليهم أجمعين – لا يكاد ينتقل من وطن إلى وطن ، ومن بيئة إلى بيئة ، حتى يأخذ شكلا خاصا ، وصبغة معينة هى بتلك البيئة أشبه . ولا تكاد تمر عليه القرون حتى لا يبقى بينه من التشابه فى أوطانه المختلفة إلا أنه نشأ من أصل واحد ، وخرج معدنه من منجم معين ، أى لا يبقى بينه من التشابه إلا ما بيّن أمم الإنسان المختلفة من التشابه الفطرى فى وحدة النوع ، فمن هنا ظهر أن الدين على ما فيه من إصلاح للناس ، وإقامة لحضارتهم وعمرانهم ، لا يمكن أن يكون جامعة منضبطة للحياة الدنيوية الصالحة .. »

والذى يهمنا هنا – من الفقرة المنزوعة من بداية الموضوع الأول ، والأخرى المنقولة من ثنايا الموضوع الثانى – ليس الغرابة فى الموضوع أو الخلاف فى الرأى ، وإنما ما يهمنا حقا هو ان النثر المرسل الذى كتب به طه حسين مقالاته فى هذه الفترة لم يكن دالا على ملمح خاص به ، أو خصائص أسلوبية تميزه ، كما كان الأمر عند المنفلوطى ولطفى السيد وغيرهما فى ذلك الوقت . ومعنى هذا أيضا أن هذه الفترة الزمنية – منذ أن بدأ طه حسين يكتب وينشر – كان فيها مقلدا وليس مُضيفا ، ومحتذيا وليس مبدعا ، ولم يتوقف تقليده عند حد الانتهاج بمنهج الطريقة البديعية التراثية فى الكتابة حين المبارزة ، ومنهج الطريقة الترسلية التلقائية أو الصحفية عندما يكتب فى السياسة والاجتماع والتاريخ متوخيا تحقيق الذات ، وإثبات الوجود ، وإنما أيضا كان يقلد أولئك النفر من المشاهير فى طريقة اختيار العنوان المثير ، وسبق أن رأيناه يحتذى حذو المنفلوطى ؛ فيكتب

---

(١) المصدر السابق ١١ مارس ١٩١٣ م .

المنفلوطى النظرات ، فإذا بطه حسين يتبعه محتذيا فيكتب مجموعة مقالاته « نظرات فى النظرات » ، ويكتب المنفلوطى مجموعة مقالات فى العبرات ، فيتبعه أيضا محتذيا ليكتب مجموعة مقالات تحت عنوان بين « العبرات والزفرات » ، بل إن كثيرا من أسماء كتبه احتذى حذو غيره فى اختيار الاسم ، وقد اعترف هو نفسه بذلك حين لم يصبح هذا الأمر غائبا عن أهل الفكر أو غائما على دراسى الأدب ، وقد سجل الدكتور محمد الدسوقى فى كتابه « أيام مع طه حسين » اعتراف طه حسين لمجموعة من الأدباء الذين اجتمعوا حوله مساء الثلاثاء ١٩٦٩/١٢/٢ م ؛ ليحتفلوا بعيد ميلادة الثمانين ، فإذا بأحدهم يثير – فى دهاء – قضية الاقتباس من الآخرين ، من خلال سؤال قال فيه : ما رأى العميد فيما نُشر عن نجيب محفوظ ، وأنه اقتبس بعض قصصه كميرامار من أدباء آخرين ؟ ، فبعد أن أجاب العميد بما يراه فى أمر نجيب محفوظ ، قال – وكأنه أحس بما وراء هذا السؤال من تعريض به فى مثل هذا الأمر – : « أما أنا فقد اخترت « على هامش السيرة » من كاتب فرنسى اسمه « جيل لوميتر » هو قد أصدر كتابا بعنوان « على هامش الكتب القديمة » وقد أعجبتنى طريقته ... » [١] ويعترف عليه غيره بأنه احتذى الأجانب والمستشرقين فى مسميات كتبه ، ومناهج بحثه ، فمنهم من يربط بين حديث الأربعاء لطه حسين ، وبين أحاديث الاثنين لسانت بيف [٢] ، ومنهم من يصل بين الأيام لطه حسين وبين يوميات أندريه جيد ، وكذلك بينها وبين ذكريات الطفولة والشاب لإرنست رنان [٣] ، ومنهم من يومئ بطرف غير خفى إلى ما أفاده طه حسين من رنان فى كتابه « مستقبل العلوم » حين أتاح لنفسه الفرصة فكتب « مستقبل الثقافة » وإلى ما أفاده من المستشرق الإنجليزى « جرجيس صال » وهو يكتب كتابه فى الشعر الجاهلى [٤] ، وليس الأمر مقصورا على إفادته من الآخرين فى عناوين المقالات ،

---

(١) أيام مع طه حسين ، د . محمد الدسوقى ، ص ١٠٤ .

(٢) سانت بيف (١٨٠٤ – ١٨٦٩ م) راجع الربط بينهما فى : طه حسن وزوال المجتمع التقليدى ، د . عبد العزيز شرف ص ٢٩٦ . وطه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه ، الأب كال قلته ، ص ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٧ .

(٤) أيام مع طه حسين ص ١٧٧ ، ١٧٨ وراجع الأهرام ١٢ مايو ١٩٢٦ م مقالة الأستاذ عبد المتعال الصعيدى بعنوان « فى الشعر الجاهلى سرقات مؤلفه » .

أو ما يختار من أسماء المؤلفات ، وإنما أمره يتعدى ذلك إلى أن يحذو حذو الأدباء والمفكرين – وبخاصة الفرنسيين – فى الاتجاهات الفكرية ومنهج البحث والدرس ، فقد أعلن مراراً فى مقالاته وفى كتبه اقتناعه بمنهج تين ، وتأثره بعقل الشعر الفرنسى بول فاليرى ، وإعجابه بآثار فولتير وأفكار ديدرو ورسو ، واعتناقه مذهب ديكارت فى البحث .

ولا أقصد من محاولتى هذه – من حيث الوقوف على جانب مظهر التقليد والاحتذاء عند طه حسين فى نثره : موضوعات ، وعناوين للمقاولات والمؤلفات ، قبل سفره إلى فرنسا ، أو حتى بعد استكماله دراسته بها – أن أحتسب هذا مأخذاً يؤخذ عليه ، ومنقصة يشدّ منها ، وإنما كان القصد من وراء ذلك هو الإشارة إلى أن طه حسين فى هذا الجانب كان محتذيا ومقلدا من ناحية ، وكان فيه من ناحية أخرى منضبطا بضوابط أثر عاهته عليه من حيث ما دفعته إليه من أخذ نفسه بالشدة فى تحقيق الذات وإثبات الوجود ، ليتخلص من عزلته بسببها ، وبؤس إحساسه بمنقصتها ، فإذا ما قلّد نافس من يقلدهم وبارز من يحتذيهم ، ومع أنهم – بالنسبة إليه – رواد فيما قلّدهم فيه ، وهو منقاد لهم فيما نافسهم عليه ، إلا أنه أستطاع أن يوجد لنفسه بينهم مكانا معلوما ، وذكرا مرفوعا ، ولو بتحدّيهم فى مكانتهم أو مخالفته لآرائهم .

أما أنه قلّد فى طريقة الكتابة واحتذى فى تأليف العناوين أو فى مناهج التأليف ، فليس فى هذا مأخذ يعيب صاحبه ، لأن التقليد أحد عنصرين تستقيم بهما وتكتمل حياة الفرد أو الجماعة على مدى الزمن ، كما تستقيم بهما وتكتمل حياة الأدب أو الفن فى كل عصر ، وفى كل وطن ، وهذان العنصران هما : التقليد والتجديد . فالتقليد للفرد والجماعة أو للأدب والفن ميزة الثبات والاستقرار ، وقوة الاتصال بين الماضى والحاضر أو بين الجذور والأغصان ، ثم يأتى دور التجديد فيضيف إلى هذا كله تلبية حاجة الفرد والجماعه أو الأدب والفن إلى التحول والتطور ، وفضيلة الانتقال إلى ما ينبغى أن يكون لا الجمود فى نطاق ما كان ، أو الاكتفاء بما تحقق الآن . فطه حسين فد قلّد واحتذى ، ولكنه كان فى تقليده بصيرا بغايته التى يطمح إلى بلوغها ، وكان فى احتذائه بصيرا بطريقه التى أفلح فى تعبيد مسلكها ، فإذا به بعد أن نال بالاقتداء والاحتذاء ما نال من شهرة وذيوع ذكر ، تجنح به آماله الفساح ونفسه الطموح إلى أن يأخذ بنصيبه

من ثانى هذين العنصرين اللذين تسقيم بهما وتكتمل حياة الفرد ، أو ملامح الطور من أطوار الأدب ، وهو عنصر التجديد ، فيضيف ويجدد أو يجوّد ، ولن تكن إضافاته أو تجويده وتجديده فى أسلوبه – طريقة فى الكتابة أو منهجا فى العطاء – مبتور الصلة عن أثر عاهته عليه ، وقوة دفعها له ، ومدى تأثيرها فيه .

(ب) **مجال الإضافـة والتجـديد :**

ليست الإضافة فى طور من أطوار الأدب أو مرحلة من مراحل الفكر تنشأ من فراغ ، ولا هى محققة فى الأدب تطورا وفى الفكر عمقا واتساعاً بجهد فرد ، ولا هى تعنى تقطيع الأواصر وانعدام الارتباط بين إضافات البارزين من السابقين فى ذات المجال المضاف إليه فى أى عهد . وإنما هى ثمرة جهد ، وحصاد كدّ ودأب لكل مجاهد دؤوب أراد أن يكون له بين البارزين المضيفين ذكر ، وأن تكون إضافته بين إضافات الآخرين أدلّ عليه ، وأميز له ، فإذا هو بها يكون نسيجا فرداً ، وإذا هى به تكون أوضح نسبا ، وأقوى زندا ، وإن لم تخل من آثار القدماء وإبداع المحدثين .

وإذا استوضحنا هده الفكرة فى مجال الأدب النثرى منذ النصف الثانى من القرن الماضى لوجدنا للسابقين على طه حسين فى هذا المجال من الرواد والبارزين إضافات لكل منهم ، تنبىء به ، وتدل عليه ، أو ترتبط به وتنتسب إليه ، وتشد إليها – فى حد ذاتها – انتباه الدارسين ، وشغف الناشئين ، ومن ذا الذى يرى أن إضافة المويلحى تذوب فى إضافة المنفلوطى ؟ أو إضافة هذين تذوب فى إضافة الإمام محمد عبده ؟ أو فى إضافة البشرى أو غير هؤلاء من أبناء هذا الجيل ؟ .

وكذلك الأمر إذا استوضحنا هذه الفكرة فى جيل طه حسين – أو هذا الجيل الذى ظهر بعد إنشاء الجامعة المصرية ، وتبلورت ملامح عطائه ، وتحددت معالم إضافاته – فإننا لواجدون للعقاد إضافة لا تذوب فى إضافة طه حسين ، وللزيات إضافة لا تذوب فى إضافة أى منهما ، وللمازنى إضافة لا تذوب فى ثلاثتهم أو تحلل فى إضافة غيرهم من أولئك الذين اقتدروا على التميّز ، واستحقوا من أمتهم الإكبار والتقدير .

وإضافة طه حسين فى رأى الكثيرين تتبلور فى جانبين : جانب **المنهج** الذى توكأ عليه فى البحث والدراسة ، وجانب **الأسلوب** الذى عُرف به فى ميدان فن الكتابة .

ا - المنهـج :

والتفصيل فى هذا الجانب يتطلب وجهة أخرى غير وجهة هذا البحث ، تتغيا عرض المناهج ورصد أصولها ، وتتبُّع مسارها ومواطنها ، والمقارنة بينها وبين بعضها ، فى الدراسات العربية والأجنبية قديما وحديثا ، وما لهذا أقصد ، ولا إليه فى هذا الدرس أطمح ، وإنما أبتغى فقط الإشارة إلى ما كان لطه حسين فى هذا الجانب مما يتصل بأثر عاهته عليه فى أخذ نفسه بالشدة ، وحملها على الاصطدام بالحواجز ، عن طريق تدريبها على اقتحام المخاطر ، وتمحيصها بتحطيم أودية الخوف من مخالفة المألوف ، والتعرض للقديم بالثورة عليه والشك فيه ، وإعادة النظر فى كثير من المعتقدات الفكرية والأدبية - بالرفض لها وإدانتها - باستخدامه المناهج الغربية الجديدة فى البحث والدرس .

والمنهج الذى توكأ عليه طه حسين فى الدراسة والبحث ليس من صنعه أو ابتداعه ، وإنما هو فى الحق من حذوه واتباعه ، ولكنه عُد لطه حسين إضافة تذكر له وترتبط به ، بالنسبة لما كان مألوفا فى الدراسة الأدبية ومجال التأليف حتى نهاية الربع الأول من هذا القرن ، فى مسار نهضتنا الحديثة .

وكانت هذه الإضافة بالنسبة له استثماراً لما تزوَّد به من مناهج البحث الجديدة بالجامعة المصرية أولا - حين التحق بها - حيث تلقى دروسه فى الأدب الفرنسى ، وفى أدبيات الجغرافيا والتاريخ ، وفى السريانية وأصول العبرية والحبشية ، وفى تاريخ الفلك عند العرب وتاريخ الأدب العربى ، وفى تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وفى الاصطلاحات الفلسفية ، وفى تاريخ الشرق القديم ، تلقَّى هذه الدروس كلها على يد مستشرقين أمثال : لوى كليمان ، واجناتسيُو جويدى ، وليتمان ، ونلينو ، وسانتللانا ، وماسينيون ، وميلونى ... ثم استكمل استيعابه وتأثره بهذه المناهج الجديدة - فى التفكير وعلاج البحث وطرق الدرس مدة دراسته بفرنسا - على يد جلونز ، وبلوك ، وسينوبوس ، وإميل دوركايم ، وسلستان بوجليه ، ولانسون ، وليفى بريل ، وقد درّسوا له التاريخ اليونانى والرومانى والحديث ، كما درَّسوا له علم الاجتماع ، والأدب الفرنسى ، وفلسفة ديكارت [١] ..

---

(١) راجع مذكرات طه حسين د . عبد الرحمن بدوى . ص ٧ وما بعدها ، وطه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه ، الأب كمال قلته .

وبالإضافة إلى أثر هؤلاء الذين درّسوا له جميعا – كان تأثره بمن قرأ لهم ، وصادقهم ، وتمثّل أفكارهم ومناهجهم ، أمثال ارنست رنان ، وديدرو ، وديكارت ، وأوجست كومت ، وسبنسر ، وبول فاليرى ، وروسو ، وفولتير ، وجول رومان ، وسانت بيف ، وتين ، وغيرهم كثير من الأدباء والمفكرين الفرنسيين وغير الفرنسيين .

وكان ثمرة درسه على يد هؤلاء جميعا ، وقراءته واستلهامه مناهج وأفكار هؤلاء جميعا ، أن ظهر طه حسين للحياة الأدبية فى ميدان البحث والدرس بمنهج عدّه الكثيرون إضافة له فى حياتنا الدراسية ، ارتبطت به وانتسبت إليه ، لأنه كان أشهر من أشاعها فى واقعنا الدراسى ، وكان أبرز خصائص منهجه فى دراساته خاصتين دعا إليهما ، وحاول تطبيقهما :

الأولى : أن الباحث فى تاريخ الآداب ليس عليه أن يتقن علوم اللغة وآدابها فحسب ، بل لابد له أن يلم إلماما بعلوم الفلسفة والدين ، ولابد له أن يدرس التاريخ القديم والحديث ، وتقويم البلدان درساً مفصلا ، وأنّ الباحث عن تاريخ الآداب لا يكفيه مِن درس اللغة حسن البحث عما فى القاموس واللسان ، وما فى المخصص والمحكم ، وما فى التكملة والعباب ، بل لابد له مع ذلك من أن يدرس أصول اللغة القديمة ومصادرها الأولى ، ولابد له من أن يدرس علم النفس للأفراد والجماعات إذا أراد أن يتقن الفهم لما ترك الكاتب أو الشاعر من الآثار ، وأن اللغة العربية وحدها لا تكفى لمن أراد أن يكون أديبا أو مؤرخا للآداب حقا ، إذ لابد له من درس الآداب الحديثة فى أوربا ودرْس مناهج البحث عند الفرنج ، بله ما كتب الأساتذة الأوربيون فى لغاتهم المختلفة عما للعرب من أدب وفلسفة ، ومن حضارة ودين [1] .

الثانية : لابد لنا أن نصطنع فى نقد أدبنا وتاريخه ، وفى بحثنا العلمى والأدبى منهج ديكارت ، المبنى على الشك ، والمتستر وراء الدعوة إلى حرية العقل والفكر . فى كل مجال من مجالات البحث والدرس .

ولمنهج ديكارت مبادىء نادى بتطبيقها فى كل نقد أدبى أو علمى ، وفى كل

---

(١) راجع تجديد ذكرى أبى العلاء ، طه حسين ، ص ١١ .

بحث أصيل ، وخلاصتها عدم التسليم بشيء إلا بعد العلم بأنه حق ، بعد أن يتوفر له السند الواضح الجلى ، وتقسيم المشكلة وما لزم لحلها ما وسعنا التقسيم ، بادئين بما هو تابع لغيره ومعقول بهذا الغير ، إلى ما هو مستقل بنفسه ، ومعقول بذاته ، منتقلين من المبسط إلى المركب ، مع التحقق من عناصر موضوع البحث ، والتيقن من عدم إغفال شيء منها ...

وقد طبَّق طه حسين هذا المنهج بعنصريْه الأساسيين هذين ، وما يتبعهما من توابع ، حين قام بدراسة أبى العلاء وعصره ، وابن خلدون وفلسفته الاجتماعية ، والأدب الجاهلى ، والمتنبى ... وغيرها .

ولقد جلب هذا المنهج على طه حسين كثيرا من المتاعب ، وكلَّفه ألوانا من المعاناة ، ومع ذلك فقد كانت إضافته بالدعوة إلى هذا المنهج وتطبيقه فى البحث والدرس – برغم ما له وما عليه – ليست بمنأى عن أثر آفته عليه ، من الاندفاع إلى الشك وإثارة الظنون ، ومن الدأب على تحقيق الذات ، ولفت انتباه الناس وجذبهم نحوه من مناصرين وخصوم .

ب – الأسلوب :

كتب الكثيرون عن أسلوب طه حسين فى الكتابة ، فمنهم من جعله به أديبا ممتازا من الطبقة الأولى [(١)] ، ومنهم من جعله به – بين كتاب عصره – كاتبا من الدرجة الثانية [(٢)] ، ومنهم من جعل هذا الأسلوب بسماته المميزة له ، وخصائصه الغالبة عليه

---

(١) يقول إسماعيل مظهر : أما الأديب عباس محمود العقاد فيرى فى الدكتور طه حسين أديبا من الدرجة الأولى وبحَّاثة ذات أسلوب يعيد للذهن الأسلوب الفلتيرى الذى امتاز به شاعر الألمان الأعظم . (راجع أدباء معاصرون حـ ١ . للدكتور إسماعيل أحمد أدهم . عرض وتقديم الدكتور الهوارى ص ٢٩٨ .

(٢) يقول محمد سيد كيلانى عن طه حسين : هو متكلم ، ولكنه ككاتب يعتبر من رجال الطبقة الثانية ، خذ كتابا من كتبه ، واقرأ منه صفحة واحدة ، فإنك تستطيع أن تحذف سطورا كثيرة من هذه الصفحة ، دون أن تفقد شيئا من المعنى الذى قصد إليه الكاتب أو تخطئه ، ثم حاول أن تفعل ذلك مع كاتب مثل محمد حسين هيكل فإنك لن تستطيع أن تحذف كلمة واحدة دون أن يختل المعنى ، فالكلام عنده بقدرالمعانى ، ولا هكذا عند طه حسين . راجع : طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد كيلانى ص ١٧٥ .

مدرسة مستقلة فى النثر ، أو طريقة منفردة فى الكتابة صار لها تلامذة يحتذونها ، وعشاق مأخوذون بها ومدافعون عنها [(١)] ، فأطلقوا عليها اسما تُعرف به ، أو وصفا تُنسب إليه ، فمنهم من أطلق عليها مدرسة « السهل الممتنع » ؛ ذلك لأن كتابته بلغت من السهولة والسلاسة عند المتلقين مبلغا يهيىء لكل قارىء بأنه قادر على أن ينسج مثلها ، فإذا ما جرّب ذلك امتنعت عليه القدرة ، وتعثّر به التقليد لها ، لأنه لا يملك ما وراء هذه السهولة من مكونات شخصية وخبرة . ومنهم من أطلق عليها اسم صاحبها ، فاكتفى بتسميتها طريقة طه حسين ؛ ذلك لأنه صاحبها ، وهى خالفت طريقة العقاد ، وطريقة الزيات ، وطريقة المازنى وغيرهم ، فالمبدع أولى أن ينسب إليه ويرتبط باسمه ما أبدع . ومنهم من اختار لها اسما أو وصفا ، ومن هؤلاء الأستاذ الدكتور أحمد هيكل ، حيث أطلق على طريقة طه حسين اسم « طريقة التصوير المتتابع » [(٢)] ، وعلل اختياره إطلاق هذه التسمية على طريقة طه حسين فى الكتابة ، بأن هذا الكاتب يغلب عليه فى أسلوبه التصوير كما يغلب عليه التتابع ، وحلل صاحب كتاب تطور الأدب الحديث فى مصر جانبى التصوير والتتابع فى طريقة طه حسين ، منتهيا فى تحليله إلى أن التصوير بالألفاظ والجمل فى تتابع عند صاحب هذه الطريقة ، كانت أداته المسيطرة فى كتابته سواء فى ذلك وهو يرسم شيئا حسيا خارجيا أو وهو ينقل جوا نفسيا داخليا ، أو وهو يجسّم معنى أو يبرز فكرة أو يعمّق إحساساً ، وحدد أهم وسائل هذا الكاتب فى رسم صورهِ من ذلك : الاعتماد على الجمل القصار ، وإيراد تلك الجمل أو بعض أجزائها فيما يشبه الإعادة والتكرار ، واستخدام الروابط فى وفرة وتنوع وتقابل ، واستخدام طائفة من « اللازمات » فى البدء والانتقال والتفصيل ، والميل إلى التوجه بالحديث إلى المخاطب ، حتى ليبدو وكأنه يحدّث قارئه ولا يكتب إليه ...

---

(١) أدباء معاصرون جـ ١ ص ٢٩٨ يقول اسماعيل مظهر : ويكاد يكون طه حسين المفكر المصرى الوحيد الذى له مدرسة كبيرة تنافح عن أدبه ، تعدت حدود مصر إلى سوريا ولبنان والعراق ، بل وأنه يُحتذى ويُقلد فى أسلوبه وكتاباته من معظم أدباء الشباب ، وهذا موضع خطورته وأهميته فى تاريخ الأدب الحديث ، لأنه قد نجح فى التسلط على تفكير الأدباء الناشئين ، فرض عليهم أدبه .

(٢) تطور الأدب الحديث فى مصر ، د . أحمد هيكل ، ص ٤٢٢ وما بعدها .

ومن الباحثين من لم يجعل لطه حسين فى أسلوبه طريقة مسمّاة ، تدل عليه ، وتنتسب إليه ، وإنما رأوا فيه الصورة العصرية للجاحظ ، إذ كان الجاحظ « يستقصى ويلح وراء المعانى والأوصاف والخواطر ، لا يترك منها شيئا ، وكان يطوِّع اللغة لعقله وشعوره وخياله ، فيوردها ألفاظا دقيقة ، ويرددها جملا مزدوجة . مقسمة ، ويسهب فيها بعبارات موسيقية فياضة حتى يشتفى ، يجدّ فيبلغ من التحقيق والإحاطة جهد العقول ، ويهزل عابثا ، وخبيثا ماكراً ، يبكى ويسخر ماشاءت له براعته ومروءته الخلقية والدينية حتى كأن الجاحظ هو الدنيا جميعا .

وطه حسين متأثر بالجاحظ فى أسلوبه ، لا يهجم عليك برأيه ، فيلقيه إلقاء الآمر ، وإنما يلقاك صديقا لطيفا ، ثم يأخذ بيدك أو بعقلك وشعورك ، ويدور معك مستقصيا المقدمات ، محللا ناقدا ، يشركك معه فى البحث حتى يسلمك الرأى ناضجا ، ... ثم يتركك ويقف غير بعيد متحديا لك أو ضاحكا منك ، وذلك فى عبارة رقيقة عذبة أو قوية جزلة ، فيها ترديد الجاحظ وتقسيمه ، فإذا قصَّ أو وصف أخذ عليك أقطار الحوادث والأشياء ... » [1] .

ويقول الدكتور شوقى ضيف فى مثل ذلك ، من حيث صلة أسلوب طه حسين بأدبائنا القدماء أمثال الجاحظ : « ... ومن أهم ما يميز طه حسين فى الأيام وغير الأيام أسلوبه المتموج الزاخر بالنغم ... وطه حسين من هذه الناحية يشبه أدباءنا القدماء من أمثال الجاحظ الذين كانوا يقصدون قصداً إلى التأثير بموسيقى كلامهم ، فالكلام لا يُؤدَّى بأواخر عبارة ، وإنما يُبسط بسطا ليحمل أداء موسيقيا يضاف إلى أداء الأفكار والمعانى وقد يكون سبب ذلك فى القديم أن الناس لم يكونوا - مثلنا الآن - يقرأون الأدب بعيونهم ، بل كانوا يقرأونه بأصواتهم وآذانهم ، فكان الشعر ينشد إنشادا ، وكان النثر يتلى فى الصحف تلاوة ، لذلك حافظوا على موسيقى الكلام محافظة دقيقة .

واحتفظ لنا فى هذا العصر طه حسين بخصائص لغتنا القديمة ، فوفَّر لأسلوبه كل ما يستطيع من جمال صوتى ، وأتاح لهذا الجمال أن يعبر تعبيرا طبيعيا عن نظراته

---

(١) الأسلوب ، أحمد الشايب ، ص ١٢٨ .

وتحليلاته ... فلم يعد الجمال الصوتى عنده فارغا ، بل أصبح لا يتجزأ من أدبه ... » (١) .

والدكتور طه حسين نفسه لا ينكر أن تقليد الأدباء القدماء إنما هو مقوّم أساسىّ من مقومات لغتنا المعربة الفصحى ، يتساوى فى ذلك الشعر والنثر جميعا « فكما أنك لا تسمع قصيدة ولا تقرؤها إلا رجعت بها إلى أصولها التقليدية الأولى ، وإلى الإطار التقليدى الذى يحيط بها ، ويمكنها من الثبات والاستقرار ، ومن الجريان على الألسنة وحسن الموقع فى الأسماع والقلوب ، فأنت لاتقرأ كتابا ولا فصلا إلا رجعت بما تقرأ إلى الأصول التقليدية القديمة ، وذكرت هذا الكاتب أو ذاك من كتّاب العصر القديم .

.... مازال الأصل فى الكتابة كالأصل فى الشعر : تخير اللفظ الفصيح الرصين الجزل للمعنى الصحيح المصيب ، والملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وبين المعنى والمعنى فى كل ما يكوّن هذا الانسجام الخاص ، الذى يستقيم به الشعر والنثر فى لغتنا العربية الفصحى مع الحرص كل الحرص على الإعراب ، والإيثار كل الإيثار للألفاظ الصحيحة التى تقرّها معاجم اللغة المعروفة وحدها ، إن كان الكاتب محافظا غاليا فى المحافظة ، أو التى جاءت فى قصائد الشعر ورسائل الكتاب وان لم ترد فى المجمعيّات إن كان الكاتب سمحاً معتدلا ، وقد يجترىء الكاتب فيستعير من لغة الشعب أو من لغة العلم الحديث أو من بعض اللغات الأجنبية كلمة أو كلمات من المجددين الغلاة فى التجديد ، وقد يبلغ بهذا الغلوّ أقصاه ، فينحرف بأسلوبه نحو العامية المبتذلة بعض الانحراف ، أو نحو مذهب من مذاهب الأوربيين فى القول ، ولكنه على ذلك كله متحفّظ محتاط ، لا يخرج بالعربية عن أصولها ، وإنما يريد أن يغنيها وينميها ويعرّب ما يضيفه إليها من الألفاظ والأساليب » (٢) .

وهو برأيه هذا لا يخرج نفسه عن نطاق هذا الحكم ، ولا يجنّب طريقته أن يكون بينها وبين الروّاد السابقين وشائج صلة وروابط اتصال ، مادام أمره فى قدراته ، وشأنه فى طريقته ألا يكون إمعة يُعجزه التميّز ، وتابعا لا يقوى على الاستقلال ، فهو قد مضى فى

---

(١) الأدب العربى الحديث فى مصر ، د . شوق ضيف ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) ألوان ، د . طه حسين ، مقال الأدب العربى بين أمسه وغده ، ص ٣٩٨ من المجلد السادس من المؤلفات الكاملة لطه حسين .

تحقيقه طريقته ، وتميزه بخصائص أسلوبه المنتسب إليه والدالّ عليه ، فى ظل كل ذلك الذى قال عنه من تمسك بأصول العربية فى الكتابة ، وأخذ بطرق إغنائها وإنمائها لتفى بالتعبير العصرى عن حاجاتنا العقلية والوجدانية ، حتى استعار لذلك من لغة الشعب أو من لغة العلم الحديث أو من بعض مذاهب الأوربيين فى القول أو بعض اللغات الأجنبية [١] ، وانتهى به ذلك كله بأن صار صاحب إضافة فى مجال الكتابة ، هى طريقته التى ارتبطت به ، أو أسلوبه الذى عُرف عنه ، يتساوى عندنا فى ذلك أن تفرّغ طريقته فى مسمّى ويحدّد أسلوبه بعنوان ، أو أن تظل إضافته هذه هى مجموعة الخصائص التى تميزه فى كتابته ، كأنها الوشم الظاهر فى وجه إنسان .

ولقد رضى طه حسين عن طريقته هذه أو أسلوبه ذاك ، وجهر بهذا الرضا على مسامع الآخرين ، من ذلك قول المازنى : « ولقد سمعت الدكتور مرة يقول وقد عرض ذكر أسلوبه أنه لا يطمع من الشهرة فى أكثر ما وفِّق إليه ، من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به » [٢] ، بل وسجَّل هذا الرضا على صفحات الجرائد السيارة راداً على مصطفى صادق الرافعى ، الذى هاجم أسلوب طه حسين على صفحات السياسة بمقال تحت عنوان : « أسلوب جديد » ثم سجل الموضوع فيما بعد – فى كتابة « تحت راية القرآن » – بعنوان « أسلوب طه حسين » ومنه قوله : « لم ينفرد الأستاذ طه حسين بانتحال الجديد أو التجديد ، ولا هو أوّل من زعم ذلك ، أو حامى عنه ، أو كابر عليه ، فقد سبقه آخرون .... ثم كان أول من استعمل الركاكة فى أسلوب التكرار ، كأنه يمضغ الكلام مضغا ، فنزل به إلى أحطِّ منازله ، وابتلى العربية منه بالمكروه الذى لا صبر فيه ، والمرض الذى لا علاج منه ، وصار ذلك له طبعا بالإدمان عليه ، فلا يأتى بالجملة الواحدة إلا

---

(١) راجع أسلوب طه حسين فى ضوء الدرس اللغوى الحديث ، د . البدراوى زهران ، حيث ضرب الأمثال على إفادة طه حسين فى أسلوبه من الخصائص اللهجية المتنوعة فى الأقاليم المصرية ، وبخاصة صعيد مصر ، ص٣٨ و مابعدها ، وعلى استفادته من التراكيب التى حفظها من التراث ، وفى مقدمتها القرآن ، ص٥٠ ومابعدها ، ورصد قوائم باستعمال بعض العامىّ فى أسلوبه ، ص ٥٧ وما بعدها . وبعض الدخيل ، ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) قبض الريح ، للمازنى ، ص ٤٧ .

انتزع منها الانتزاعات المختلفة ، ودار بها أو دارت به تعسُّفا وضعفا ، وإخلالا بشروط الفصاحة وقوانين العربية ، والآفة الكبرى أنه كان يحتسب ذلك إبداعا منه فى الأسلوب ، وإحكاما فى السبك ، وطريقة بين المنطق والبلاغة .

وإن من عجز أن يعلو لا يعجز أن يسفل ، بيد أنَّا لم نجد ولم نعرف غير هذا الأستاذ أحداً يرضى لنفسه أن يتمدح بالعيب ، ويتحسن بالقبح ، ويرفع المنازعة مما لانزاع فيه ، فكان يزعم أنه لا ينساغ لأديب أن يردّ عليه هذه الطريقة ، وأنه هو لا يحصى من قلدوه فيها ، حتى رميناه فى جريدة السياسة بهذه الكلمة التى تراها ، فعلَّ من بعدِها يتحفظ على نفسه ، ويتوقّى التكرار بجهده ....

إلى الأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين :

عرفنا أنك تدعو إلى نمط جديد فى الكتابة ، تنقل به أساليب الإنشاء ، أو تتغيَّر به رسوم هذه الأساليب ، أو تعفو طرائق هذه الرسوم . وأن هذا مما تبعث عليه سنَّة التطور ؛ لأنه فصل ما بين القديم والحديث ، ثم هو هو الذوق الأدبى الجديد الذى تزعمه ، والذى يختلج إليه الطبع فى هذا الزمن ، وتقتضيه ضرورة العلم والاتساع فيه ، والأدب والتحقق به ، واللغة والرغبة فى إحيائها .

وقد كشف لنا الأستاذ الفاضل – ومن يجاهدون فى سبيله ، ويكتبون على طريقته أو يحتذونها – عن حقيقة ذلك النمط ، وعرضوا أمثلة ، وحققوا معنى مصاحبة الطبع ، ومفارقة التكلف فى هذه اللغة الفصحى التى لا يولد أحد فيها ، ولا ينشأ أحد عليها ... وبيَّنوا كيف يكون الكاتب حضريا فى رأيهم ، وكيف يتسمّح لهذا الذوق ، ويترقّق فيه ، ويتظرف به ، وكلّ ذلك بما كتبوا ويكتبون من هذه المقالات السائغة اللينة الحلوة ، التى تسرع فى تلاوتها إلى الطبع بأشد مما تسرع كتابتها إلى المطبعة ..... ولكنى فى كل ما قرأت من بدء اتصال الرواية بالعرب إلى اليوم لم أصب مثل هذا الأسلوب الذى تكتب به ، كقولك فى صدر قضية المعلمين التى نشرتْها السياسة اليوم : « نعم قصة المعلمين ، فللمعلمين قصة ، وللمعلمين قضية ، وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة وألا تكون

للمعلمين قضية ؛ لأننا نَرْبأ بمقام المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية ، ولكن أراد الله – ولا مردّ لما أراد الله – أن يتورط المعلمون فى قصة ، وأن يتورط المعلمون فى قضية – ليست قضيتهم – أمام المحاكم ، وإن كانت أوشكت فى يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم ، وليست قصتهم مفزعة مهلعة ، وإن كانت أوشكت فى يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة ... » فهذه عشرة أسطر [بأسطر الجريدة] صغيرة،دار (المعلمون) فيها عدد أيام الحسوم ، وحكيت (القصة) ست مرات ، وكان (للقضية) ست جلسات ، غير ما هناك من مفزعة ومهلعة قد أفزعت مرتين وأهلعت مرتين ، وغير مابقى مما هو ظاهر بنفسه ، ولا ريب أن الأستاذ إما أن يكون قد نحا بهذا نحواً لا نعرفه ، وقصد إلى وجه لم نتبيَّنه ، فهو يدلنا عليه لنجريه فيما أجريناه من أساليب البلاغة ، ونؤرخ له فى الذوق الجديد . وإما أن يكون عند ظننا به فى اعتبار هذه الكلمات رُقًى وطلاسم للتسخير بقوتها وروحانيتها ، فإذا قرأ المعلمون هذه المقالة عشر مرات انحلَّت المشكلة ، وجاءهم الرزق ، وهم نائمون ، ولكن يبقى ياسيدى أن تختم الكلام بعد هذه الهمهمة والغمغمة بقولك : الوحَى الوحَى ، العجل العجل ، الساعة الساعة ... والسلام »[1] .

فيرد طه حسين على هذه المقالة أو الرسالة ، بمقالة أو رسالة معلنا رضاه عن أسلوبه ، وتمسكه بطريقته ، فهو بهذا الأسلوب أو تلك الطريقة نسيج وحده ، لا يحاكى بها قدماء ، ولا يتشبه فيها بمحدثين ، وفى بعض ذلك يقول :

« ... أما بعد ، فلسنا نحاكى بأسلوبنا أسلوبا آخر قديما أو حديثا ، ولسنا نتكلف هذه المحاكاة ، وإنما هى طريقتنا فى التفكير ، وطريقتنا فى الإملاء ، فإذا أراد الأستاذ أن يقدِّر هذه الطريقة ، ويؤرخ لها فى كتابه ، فنحن شاكرون له عنايته ، وإذا أراد الأستاذ أن يزدريها ويربأ بكتابه عنها فله ذلك ، غير ملوم ولا معاتب » .

وعلى كل حال لم يكن الرافعى وحده – من أصحاب الطرق المميَّزة فى فن الكتابة ، أو الأساليب البارزة المختصة بأصحابها إبان نهضتنا الحديثة فى ميدان فن النثر – لم يكن وحده – الذى هاجم أسلوب طه حسين ، وأمسك به من تلابيبه ، بسبب إسرافه فى التكرار

---

(١) السياسة ، فى ٢٧ يونيو ١٩٢٣ . وانظر كتاب « تحت راية القرآن » للرافعى ، ص ١٠٤ وما بعدها .

والإعادة [١] ، ولم يكن هذا المقال – الذى اتّكأ عليه الرافعى واستشهد به – هو المقال اليتيم فى كتابات طه حسين [٢] ، التى طغت فيها هذه الصفة فخرجت بصاحبها وما كتَب عما لفن النثر من جاذبية وسحر ، ولم تكن خاصية التكرار فى أسلوبه هى وحدها قوام طريقته أو عماد أسلوبه ، وإنما هى إحدى خصائصه الأسلوبية البارزة ، والتى يتكون من مجموعها وتلاحمها فى كتابته ، شخصية طه حسين الكتابية أو طريقة صار لها به كينونة أو صار له بها هوية .

ومجموعة هذه الخصائص فى أسلوب طه حسين تزيد أرقام بنودها أو ألوان أصباغها فى رأى دارس ، وتقل فى رأى آخر ، بحسب مادة الدرس من أعمال طه حسين الكتابية ، وبحسب أفق البحث وقدرات صاحبه الاستنتاجية ، فلقد اشتمل نثر طه حسين على المقال ، والقصة ، والترجمة الذاتية ، والكتاب المؤلف ، والكتاب المترجم

---

(١) هاجم المازنى – وهو صاحب أسلوب ورب طريقة – أسلوب طه حسين من حيث التكرار والإطالة فقال : ... ولما كان قد ألف أن يملى كتبه ورسائله ومقالاته ، فإن كتبه وحديثه حين يجدّ فى مستوى واحد ، كائنا ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد فى أحاديثه ما تجده فى كتابته من الخصائص والشيات ، ويندر فى غيره مثل ذلك .

ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام ، وأن يجعل الجملة قصيرة فلا تطول مسافة ما بين أولها وآخرها ، وأن يغرى بالتكرير والإعادة إلى حد ما ، إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة ، نعم ، ولن أراها إلا خطبا مدونة ..... ولا شك أن أظهر عيب فى مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما إليها من سبيل ... » راجع قبض الريح . للمازنى . ص ٣٠ ، ٤٥ .

(٢) لطه حسين عديد من المقالات وبخاصة السياسية تتسم بالإسراف فى التكرار ، من ذلك مثلا مقاله الذى نشره فى كوكب الشرق بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٣٤ م ، ومنها قوله : « نعم ، ليست مشكلة واحدة ، ولا مشكلتين ، إنما هى مشكلات عدة تشغل الوزارة فى هذه الأيام ، أو قل تشغل أبطال الوزارة ، فلا يزال بين الوزراء قوم متواضعون لم يخلقوا لأنفهسم بعد مشكلات تَغُمهم ، وتؤرق عليهم ليلهم . فلسنا نعلم أن لوزير الأشغال مشكلة ظاهرة ، ولسنا نعلم أن لوزير المواصلات مشكلة صارخة ، ولسنا نعلم أن لوزير الزراعة مشكلة تعلن نفسها إلى الناس ، وقد تكون لهؤلاء السادة من الوزراء مشكلات لم تظهر بعد ، وقد تظهر غدا أو بعد غد ، وقد تكون لوزير الأوقاف أيضا مشكلة أو مشكلات لم نعلم بعد من أمرها شيئا ... » .

وكل لون من هذه الألوان يقبل من مجموعة هذه الخصائص ما ينسجم وطبيعة الكتابة فيه ، أو يقبلها جميعا ، ولكن بنسب مختلفة لكل منها ، فى كل فن من فنون النثر حسبما تقتضى طبيعته ومراميه .

ولنحاول التركيز على أبرزها وضوحا ، وأكثرها شيوعاً ، وأقربها صلة بمكوناته الشخصية ، وأقواها تولدا عن أفته أو تجسيداً لأثر آفته عليه ، وتأثيرها فى أسلوبه تأثيرا عظيما ، دون طمع فى الحصر أو جنوح إلى الاستقصاء .

وأولى بنا أن نهتدى إلى هذه الخصائص من واقع نموذج متكامل ، لا من جمل مبتورة أو أسطر مختارة من عبارة ؛ لأن الجملة والجملتين أو السطر والسطرين لا يصْدقان الحكم على أسلوب الكاتب ، ولا يقيمان البراهين على السمات الفنية للمكتوب ، والنموذج المتكامل هنا فى هذه المساحة الضيقة من البحث ، وبدافع تحقيق هذه الغاية المحدَّدة من جوانبه ، يمكن أن يكون مقالاً ، أو فصلا من كتاب ، أو مشهداً من مشاهد قصة من قصصه ، لتكون النظرة إلى خصائص طريقته أو السمات الفنية لأسلوبه أوضح وأشمل فى الوصول إليها والحكم عليها .

ولمَّا كانت معظم كتب الدكتور طه حسين فى أساس نشرها مقالات ضم بعضها إلى بعض – فيما بعد – فتألف منها كتاب ، أو فصولا متتابعة ظهرت كلها أو بعضها أولا فى دوريات ، فما وجدت بى حاجة فى اختيار النموذج أن أخص المقال بنموذج والكتاب بفصل ، واكتفيت بأن أجعل للمقال والفصل من كتاب نموذجا واحداً ، وللقصة مشهداً واحداً ، وأن يكون النموذج المختار بداية الكتاب أو القصة ، حيث يتوفر للأديب – فى بداية كل عمل – صدق الرغبة فى جذب القارىء ، وبراعة الاستهلال لهذا العمل المقروء أو المسموع ، فيصفو جهده فى تحقيق هذين الهدفين ، قبل أن ينشغل فى داخل العمل بتزاحم الأفكار ، وتتابع الأحداث ، وأن يكون النموذج – من ناحية ثانية – أقرب إلى القِصَر منه إلى الطول . فليست الغاية تحليل الأفكار أو تتبع المضمون ، وأن يكون النموذج – ثالثا – ممثلا لطريقة طه حسين فى الكتابة بعد أن استقرت على خصائص فنية : صار بها بين الأدباء علماً مميزاً ، وصارت به فى طرق الكتابة منهجا محتذى ، وكان النموذج الأول هو الفصل الأول من كتاب « مستقبل الثقافة »

الذى نشر عام ١٩٣٨ ، وكان هذا الفصل بعنوان : « الثقافة والعلم أساس الحضارة والاستقلال » [١] وفيه يقول :

الموضوع الذي أريد أن أدير فيه هذا الحديث هو مستقبل الثقافة في مصر التي رُدَّت إليها الحرية بإحياء الدستور ، وأُعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال . فنحن نعيش في عصر من أخص ما يوصف به أن الحرية والاستقلال فيه ليسا غاية تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم ، وإنما هما وسيلة إلى أغراض أرقى منهما وأبقى ، وأشمل فائدة وأعم نفعاً .

وقد كانت شعوب كثيرة من الناس فى أقطار كثيرة من الأرض تعيش حرة مستقلة ، فلم تغن عنها الحرية شيئاً ، ولم يُجْدِ عليها الاستقلال نفعاً ، ولم تعصمها الحرية والاستقلال من أن تعتدى عليها شعوب أخرى تستمتع بالحرية والاستقلال ، ولكنها لا تكتفي بهما ولا تراهما غايتها القصوى ، وإنما تضيف إليهما شيئاً آخر أو أشياء أخرى .

تضيف إليهما الحضارة التي تقوم على الثقافة والعلم ، والقوة التي تنشأ عن الثقافة والعلم ، والثروة التي تنتجها الثقافة والعلم . ولولا أن مصر قصَّرت طائعة أو كارهة في ذات الثقافة والعلم لما فقدت حريتها ، ولما أضاعت استقلالها ، ولما احتاجت إلى هذا الجهاد العنيف الشريف لتسترد الحرية وتسعيد الاستقلال .

وليس من النافع أن نندم على ما فات ، ولا من الممكن أن نستدرك ما كان ، بل من الخير الذي يشحذ العزم ويقوي الأمل ، أن نفكر فيما أتيح لنا من الفوز ، ونبتهج بما كُتب لنا من الظفر ، في هذا الجهاد الطويل الشاق الذي انتهى بنا إلى أن نسترد الاستقلال ، ونحمل العالم المتحضِّر على أن يعرفه لنا ، ويؤمن لنا به ، ويتلقانا في عصبة الأمم كما يتلقى الأمم الحرة الكريمة .

من الخير أن نغتبط بهذا ونبتهج له ، ولكن على ألا نكتفي بالاغتباط والابتهاج ، وعلى ألا نشغل بالفرح عن النشاط ، وألا يصرفنا الأمل عن العمل ، وألا نقف أمام الاستقلال والحرية موقف المعجبين بهما المطمئنين إليهما . إنما نأخذهما كما تأخذهما الأمم الراقية على أنهما وسيلة إلى الكمال وسبب من أسباب الرقي ، لا يكفَّان عن العمل وإنما

---

(١) مستقبل الثقافة ، طه حسين ، ص ١٢ – ١٥ .

يدفعان إليه ، ولا يحدَّان الأمل ، وإنما يمدَّانه ويزيدانه قوة وسعة وانبساطاً . وما أعرف أني أشفقت من شيء كما أشفق من الاستقلال بعد أن كسبناه ، ومن الحرية بعد أن ظفرنا بها ! أشفق منهما لأنى أخشى أن يغُرَّانا عن أنفسنا ، ويُخيِّلا إلينا أننا قد وصلنا إلى آخر الطريق حين وصلنا إليهما ، مع أننا لم نزد على أن ابتدأنا بهما الطريق .

وأُشفق منهما لأنهما يحمِّلاننا تبعات جساماً حقاً ، أمام أنفسنا أولا ، وأمام العالم المتحضر ثانياً .

وأنا أخاف أشد الخوف ألا نقدِّر هذه التبعات ، أو ألا نقدرها حق قدرها . أخاف أن نقصر في ذات أنفسنا ، فنهمل مرافقنا ، أو نأخذها في غير حزم ولاجدّ ، فنتأخر ونحن خليقون أن نتقدم ، وننحط ونحن خليقون أن نرقى ، ويعود الاستقلال والحرية علينا بالشر ، وهما خليقان ألا يعودا علينا إلا بالخير كل الخير .

وأخاف أن نقصِّر في ذات أنفسنا ، وعلينا – من الأوربيين عامة ومن أصدقائنا الانجليز خاصة – رقباء يحصون علينا الكبيرة والصغيرة ، ويحاسبوننا على اليسير والعظيم . ولعلهم أن يكبروا من أغلاطنا ما نراه صغيراً ، وأن يعظموا من تقصيرنا ما نراه هيناً ، وأن يقولوا : طالَبوا بالاستقلال ، وأتعبوا أنفسهم ، وأتعبوا الناس فى المطالبة به ، حتى إذا انتهوا إليه لم يذوقوه ، ولم يسيغوه ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون به .

أخشى هذا كله ، وأريد كما يريد كل مصري مثقف ، يحب وطنه ، ويحرص على كرامته ، وحسن رأي الناس فيه ، أن تكون حياتنا الحديثة ملائمة لمجدنا القديم ، وأن يكون نشاطنا الحديث محققاً لرأينا فى أنفسنا حين كنا نطالب بالاستقلال ، ومحققاً لرأي الأمم المتحضرة فينا حين رضيت لنا عن هذا الاستقلال ، وحين أظهرت لنا ما أظهرت من الترحيب وحسن اللقاء في جنيف .

نعم وأريد كما يريد كل مصري مثقف ، محب لوطنه ، حريص على كرامته ، ألا نلقى الأوربى فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا ، وما يضطرنا إلى أن نزدري أنفسنا ، ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء .

إن أبغض شيىء إلى الرجل الكريم الذي يشعر بالعزة والكرامة ويحرص عليهما أن يرى نفسه مضطراً إلى أن يعترف بأنه لم يصبح بعد لهما أهلا .

فليحرص كل مصري على أن يجنِّب نفسه وأمَّته هذا الخزي ، وسبيل ذلك أن نأخذ أمورنا بالحزم والجد منذ اليوم ، وأن نعرض عن الألفاظ التي لا تغنى ، إلى الأعمال التي تغني ، وأن نبدأ في إقامة حياتنا الجديدة من العمل الصادق النافع على أساس متين » .

وإذا وقفنا بين يدى هذا الفصل – متلمسين أوضح ما فيه من خصائص أسلوب طه حسين – لوجدنا جزئياتها على اختلاف نعوتها أو مسمياتها تستقى من رافدين غامرين أو تتجمَّع فى خاصيتن أساسيتين هما :

ا – الاسترسال فى الحديث مع استطالة الإبانة عن الفكرة ، بإمكانيات المتحدِّث المحترف لفن التحدُّث ، وقدرات المناور الفطِن فى توجيه مسار الكلام .

ب – التلقائية فى الأداء ، مع التمكن من أدوات اللغة المنطوقة التى من شأنها مخاطبة السمع وأسْره ، وإثارة الانفعال وجذبه .

وهذان الرافدان أو هاتان الخاصيتان تفرعا من مصدر واحد هو هذه الآفة التى اعتاد – بتكيفه معها فى نفسه ، وتكيفه بها مع غيره – أن يرى الأشياء والأحياء ، وأن يقرأ عن الأشياء ، وما يكتبه الأحياء ، بسمعه ، عوضا عن فقد بصره ، كما اعتاد بها كذلك – بعد ممارسة وطول مران بلغا به درجة الإتقان – أن يحمل المتلقِّين على أن يستمتعوا بقراءة ما ينتج لهم عن طريق أسماعهم لا أبصارهم .

وخاصية الاسترسال فى الحديث مع استطالة الإبانة عن الفكرة يرى بعض الباحثين أنها حسنة من حسنات منهج طه حسين فى الحديث إلى الناس ، أو إملائه ما ينشره عليهم ، ويعرِّف هذه الحسنة بأنها أسلوب من أساليب « التهام » القارىء من خلال هذا الدوار السَّلِس الذى يأخذه [طه حسين] به ... ذلك أنه لا يطمع بما هو دون الاستيلاء على القارىء ، وبما هو دون تجنيده عنده ، ويظل يلحُّ على ما يريد بأسلوب

واضح مباشر حينا ، وأسلوب واضح ولكنه غير مباشر أكثر الأحايين ، حتى يستشعر انضواء قارئه إليه ، وانجذابه نحوه [١] .

وهناك من يرى أنها مأخذ يلام به ، ويحُسب عليه ، بل ويتطرف فى اللوم والحساب ، فيُخرج إنتاجه بسببها من عالم الكتابة ، إذ قلّ فيه – بأثرها – جانب التعمق والغوص ، وزاد فى مقابل ذلك التبسُّط والحشو ، ويردُّ هذه الخاصية عند طه حسين إلى آفتين أولاهما:فقد البصر الذى يفرض على صاحبه الشك ، ويدفعه إلى اتخاذ الحيطة والحذرة ، وقد كان طه حسين – فى رأيه – يرتاب فى كل شىء ، يرتاب فى أن يكون القارىء قد أخطأ الفهم ، أو غفل عن القصد ، أوسها عن الحديث ، فيكرِّر ، ثم يكرر حتى تطمئن نفسه ، ويطيب خاطره من ناحية القارىء ، وبمرور الزمن أُصبح التكرار عنده عادة لا يستطيع الانفكاك عنها ، وثانيهما:هى آفة التدريس التى تفرض على محترفها ، وتعوِّد المشتغل بها التبسط فى الإيضاح ، والإطناب فى الشرح ، والتكرار أيضا ، وبعبارة أجلى تضطر المدرس إلى تجنُّب العمق والغوص ، وأن يكتفى ما وسعه الاكتفاء – بما لا عسر فى فهمه ولا عناء فى تلقينه ، وطه حسين عمل مدرساً ، وطال عهده بحقل التعليم [٢] .

وعلى كل حال ، فإن هذه الخاصية – بمالها عند البعض ، وما عليها عند الآخرين – قد استقرّت فى أسلوب طه حسين على مجموعة عناصر تطلبها طبيعة الاسترسال فى الحديث ، وتعتادها قدرات المحترف لفنه ، وأهم هذه العناصر :

(١) اقرأ هذا الرأى للأديب شكرى فيصل ، فى المقدمة التى كتبها لكتاب « تقليد وتجديد » للدكتور طه حسين ، ص ١٢ .

(٢) اقرأ هذا الرأى للمازنى فى قبض الريح ص ٤٥ . وفى « طه حسين الشاعر الكاتب » لمحمد سيد كيلانى ص ٨٩ .

أولا – الاعتماد على التعبيرات الوصفية والمترادفة ، ونراها فى حديثه كثيرة ، مختلفة المواطن في محلها الإعرابى من البناء ، ولا تكاد تخلو فقرة من فقرات الموضوع دون أن نجد لها وجوداً فى شكل من أشكال الإسهاب ، فإذا أخذنا الفقرة الأولى موطن تطبيق فنجد : الموضوع وبعده صفته ، ثم مصر وبعدها صفتها ، ثم عصر وبعده صفته ، ثم غاية وبعدها صفتها ، كما نجد كذلك الترادف الذى يغنيه عنده الاسترسال فى الحديث ، وطبيعة الإملاء للموضوع ، واضحا فى ردَّت وأعيدت ، وفى تقصد إليها الشعوب وتسعى إليها الأمم ، وفى أشمل فائدة وأعمّ نفعا .

ثانيها – الاتِّكاء على تكرار الألفاظ فى الجمل المتتابعة ، وتكرار الجمل فى الفقرات المتتالية ، وتكرار الفكرة فى الصياغات المتنوعة ، فلو أخذنا من الألفاظ التى أتكأ عليها فى الفقرتين الأوليين لفظتى الحرية والاستقلال ، لوجدناه يفتنُّ فى استعمالهما على انفراد مرة ، وفى اتصال مرة أخرى ؛ ليتجنب – بهذا التلوين فى الاستعمال – إملال المستمع أو فتور القارىء ، وإذا ما احتاج إلى إضمام اللفظين المكررين فى الاستعمال يذهب بقدرته على التكوين إلى ما يربط بهما من أفكار أو ينسب إليهما من آثار ، من ذلك تكراره لفظتى الثقافة والعلم فى الفقرة الثالثة فى تلازم متواتر ، وتلوينه فيما نسب إليهما من آثار هى الحضارة والقوة والثروة ، وفيما نسب إلى فقدانهما من آثار هى فقد الحرية وإضاعة الاستقلال ، وهكذا أصبح تكرار الألفاظ عند طه حسين – فى أسلوبه الذى صار به صاحب طريقة – تكراراً موظَّفا وفنيا ، وليس من قبيل ذلك التكرار الذى أُخذ عليه من قبل ، وهوجم بسببه من معاصريه . وكذلك كان أمره فى تكرار الجمل : وظَّفها فى الربط بين فقرتين كما فى جملته « تضيف إليهما » التى ختم بها الفقرة الثانية وبدأ بها الفقرة الثالثة ، وكما فى تعبيره « من الخير أن » فى الفقرتين الثالثة والرابعة ، أو وظَّفها فى توكيد الفكرة وإتمام حصارها أو حصرها فى ذهن القارىء كما فى تعبيراته : « أشفق من » ، « وأخاف أن » ، و « أريد كما يريد كل مصرى مثقف يحب وطنه ويحرص على كرامته » ، ونرى ذلك فى فقرات الموضوع السادسة والسابعة للتعبير الأول ، والثامنة والتاسعة للتعبير الثانى ، والعاشرة والحادية عشرة للتعبير الثالث ، وعلى ضوء هذه الإشارات يمكن تتبع وظائف التكرار فى أسلوبه ، وتمكّنه من الترويج له والتفنُّن فى تلوينه ، وأما تكرار الفكرة

فى الصياغات المتنوعة فهى نتاج ذلك كله ، ولازمة من لوازم هذه الخاصية فى أسلوب طه حسين ، حتى إن هذا الفصل كله قد أقامه على فكرة واحدة هى عنوانه ، وجاءت فقراته تكراراً لهذه الفكرة ، فى صيغ متنوعة .

ثالثا - الإلحاح فى الإحاطة بتفاصيل الفكرة بقصد إقناع القارىء وإغراق المستمع ، حيث يأخذ إليها كل طريق ، ويدور حولها من كل جانب ، ويشدُّ معه فى دورانه حولها قارئه ، فيدور معه حيث يدور ؛ لأنه أوحى إليه بمشاركته له فى هذا الأمر ، وبمسئوليته التى ينبغى أن يحملها تجاه هذه الفكرة ، متنقلا به من الفكرة الكليَّة إلى جزئياتها ، أو من المعانى المجردة إلى ما يجسِّدها من آثارها وموصوفاتها ، ومستطردا معه فى حركة دائبة إلى عمومية الفكرة أو عالَمِيَّتها إن كانت خاصة أو محلية ، وإلى آثارها الوجدانية والحياتية إن كانت ذهنية أو فلسفية ، فإذا بالفكرة التى يدعو إليها ، وآثارها التى يرجو خيرها ، تصير مالكة من القارىء أو المستمع فكره ونفسه ، وكأنَّها خرجت منه ونبعت عنه ، لايجد فى نفسه قدرة على الجدل أو رغبة فى الاستفسار ، لأن طه حسين بإلحاحة على تفاصيل الفكرة التى أغرقه بها ، صرفه عن ذلك ، حيث دفع به دفعا إلى التسليم أو إلى الاستسلام كما يقولون .

رابعا - الروح الخطابية التى تعتمد عليها خاصية الاسترسال فى الحديث ، وجذب الانتباه فى إلقاء المحاضرة ، والتى جعلت كتابته أقرب إلى الخطابة منها إلى الكتابة التى تخضع لمعاناة التجويد المقصود للأسلوب ، ومعاودة المكتوب بالإصلاح والتنقيح واستئناف النظر ، مما جعل أسلوبه يطرب السمع أكثر مما يشبع الفكر ، ويتورط فى اللف والدوران من غير ضرورة ، ويعتمد على التعبيرات الوصفية والمترادفات ، ويلجأ إلى تكرار الألفاظ والجمل والعبارات ، ويلحّ فى التفاصيل والجزئيات ، حتى تكاد الفكرة تنبهم على المتلقى ، أو يكاد ينصرف عن الوعى بما وراءها من غايات ، ولقد اعترف طه حسين نفسه بحاجة ما يكتبه إلى كثير من التركيز إذ قال : « ما كتبت فصلا إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية به والنظر فيه ، وأنا أقدّر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر ، حتى إذا فرغت منه ونشرته ... وعرضت لغيره فى مثل هذه الحالة العقلية التى عرضت له فيها معتزما أن أستأنف العناية به والنظر فيه ، مستحييا أن أقدِّمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى

الإصلاح ، والأيام تمضى والظروف تتعاقب مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها كانت تحول دائما بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر »[١] .

أما الخاصية الثانية لأسلوب طه حسين وهى التلقائية فى الأداء مع التمكن من أدوات اللغة المنطوقة ووسائلها التى من شأنها مخاطبة السمع وأسْرِه ، وإثارة الانفعال وجذبه ، فإنها أيضا أثر من آثار عاهته عليه فى أسلوبه ، وقدرة يتسلح بها المسترسل فى الحديث ، أو المملى فى الكتابة ، وقد تبلورت هذه الخاصية فى أسلوبه فى مجموعة عناصر أوضحها ما يلى :

أولا : موسيقية الصياغة ، فهو مؤمن بأن « أدبنا العربى لا يهمل الأسماع إهمالا قليلا أو كثيرا ، وإنما يعنى بها أشد العناية ، فهو أدب منطوق مسموع قبل أن يكون أدبا مكتوبا مقروءا ، وهو من أجل هذا حريص على أن يلذّ اللسان حين ينطق به ، ويلذّ الأذن حين تسمع له ، ثم يلذّ بعد ذلك النفوس والأفئدة حين تصغى إليه ، وليس أدلّ على ذلك من أن العرب فى جميع عصورهم لم يعنوا بشىء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته ، ورقيق الأسلوب ، ورصانته ، وقد جعلوا الإعراب واصطفاء اللفظ ، والملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الذى ييسّر على اللسان نطقه ، ويزيّن فى الأذن وقعه ، أساساً لكل هذه الخصال » ،[٢] وهذه الموسيقية تحوّلت عنده – بطول الدربة وشدة المراس – إلى قدرة تلقائية فى حديثه أو فى إملائه ، تقوم على توازن المقاطع ، وتشابه الإيقاعات بلا تكلف أو معاناة ، وفى تنوع بين توافق الجمل فى الطول أو القصر ، وإن رجحت فى أسلوبه كفة الجُمل القصار التى تساعده على الاسترسال فى الحديث ، وتتفق عنده وطبيعة الإملاء ، فنقرأ له فى الفقرة الأولى قوله : « رُدّت إليها الحرية بإحياء الدستور ، وأعيدت إليها الكرامة بتحقيق الاستقلال » فالجملتان متشابهتان عدد كلمات وتوازى إيقاع ، ومثلها قوله : « فلم تُغْن عنها الحرية شيئا ، ولم يجد عليها الاستقلال نفعا » ، وكذلك : الحضارة التى تقوم على ... والقوة التى تنشأ عن ... وهكذا تجد أمثال ذلك فى كل فقرة ، وفى كل جزئية فكرة . وموسيقيّة الصياغة عنده لا تتوقف عند حدود

---

(١) معارك أدبية ، أنور الجندى ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) ألوان ، طه حسين ، مقالة : الأدب العربى بين أمسه وغده ، ص ٣٩٨ (المجلد السادس من المؤلفات الكاملة لطه حسين) .

الجملتين المتتابعتين ، وإنما تتجاوز هذا إلى وقوعها فى الجملة الواحدة حيث يستحدث وحدة الإيقاع بين المتعاطفين كقوله : ... أرق منهما وأبقى ، وقوله : ... بالاغتباط والابتهاج ، أو بين النعتين المتتابعين كقوله : هذا الجهاد العنيف الشريف ... وقوله ... من العمل الصادق النافع ، أو بين المتعلقين بفعل واحد كقوله : ألا يصرفنا الأمل عن العمل ، وقوله : نعرض عن الألفاظ التى لا تغنى إلى الأعمال التى تغنى ... إلى غير ذلك من التلوين فى الملاءمة بين الكلمة والكلمة فى الجرس ، والجملة والجملة فى الصياغة مما يزيّن فى الأذن وقعه وييسّر على اللسان نطقه كما قال ، ولكن طه حسين يقدّم هذا كله – كما قلت – فى تلقائية تباعد بينه وبين الزيات فى هندسته الموسيقية ، وروعته البيانية القائمة على إعادة النظر فيما ينسّق ، وتحقيق التعادل التام فيما ينظم ويقسّم .

ثانيا : سهولة اللفظ وقُرب معناه ، مما يتفق وتلقائية الأداء عند طه حسين ، ويتجانس مع طبيعة الاسترسال فى الحديث لديه ، وييسّر عليه التركيز على موسيقية الصياغة التى يتغياها ، والرعاية لتحقيق صلته الوثيقة بأكبر عدد من جمهور قراء الصحف ومستمعى الأحاديث ، فإذا به يمسك بزمام الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، ببشر بن المعتمر فى صحيفته حين قال لمن يريد أن يكون بليغا بين الناس : « فكن فى ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك ، إلى أن تُفهم العامة معانى الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام » (1) .

وإذا أعدنا قراءة الفصل كله لا نجد لفظا غير سهل ، بحيث يلطف عن عامة

---

(1) البيان والتبين ، للجاحظ ، جـ ١ ، ص ١٣٥ .

القراء والمستمعين ، وإن كانت السهولة فى ألفاظه لا تنحدر إلى العامية والابتذال ، وإنما هى سهولة متأنقة تطرب المتأدبين ، ولا تسخط الخاصة من الأدباء والمفكرين ، فلفظه فصيح وإن سهل ، ومعناه قريب وإن عظم ، وطه حسين متفرد بين أدباء جيله بهذه السهولة المتأنقة ، لمخاطبته فيما يكتب ويتحدث الأسماع أولا ، ولذلك يؤمن بسبب حالته الخاصة بأن « للألفاظ فى نفسها قِيَما ذاتية تقدِّرها الأذن ، وتحدث فى النفس لذة موسيقية خاصة »[1] ، وهذا ما كان يعمل به ، ويركز عليه .

ثالثا : بساطة التركيب مع تنويع الأساليب ، وهذا العنصر أيضا مستمد من تلقائية الأداء ونزعة الاسترسال فى الحديث ، وهذان لا يتيحان للكاتب فرصة المعاناة فى إحكام العبارة أو تركيب المعانى ، أو توليد الأفكار ، وإنما يفرضان عليه أن يترك نفسه على سجيتها ، ويتابع حديثه فى انطلاقه واسترساله . وما دامت سهولة اللفظ عنده مذهبا ، وموسيقية الصياغة عنده غاية ومقصدا ، فلابد أن ينتهى ذلك بهذا الأديب إلى التراكيب البسيطة المتتابعة فى انبساط وموسيقية وجمال ، وإلى التنويع فى الأساليب ؛ ليحفظ المستمع من أنْ يناله الفتور ، ويجنِّب القارىء أن يصيبه ملال ، ولذلك تجده يمتاز بالإكثار من أساليب الإثبات المرتبطة بأساليب النفى ، والتقرير المرتبط بالاستثناء ، والمقارنات المعتمدة على التضاد ، والتفصيل القائم على التشبيهات ، والتعليل الممتزج بالاستدراكات ، يضاف إلى ذلك كله ما سبقت الإشارة إليه من عنايته بالترادف ، ورعايته لتوازن المقاطع وتشابه الإيقاع ، مما يدفعه إلى التجنيس أو السجع أو الازدواج وغيرها من مزينات الكلام ومحققات الجرس الصوتى ، وإلى المقابلة والطباق ومراعاة النظير وغيرا مما يحقِّق لأسلوبه التناسق المعنوى .

رابعا : طغيان « الأنا » وإظهار الذات فى صراحة وبضمير المتكلم حينا ، أو ضمنيًّا من خلال الآخرين وبضمير الجماعة حينا آخر ، أو بضمير الغائب أو لفظ يدل عليه – فى غير هذا الفصل – حينا ثالثا ، وهى سمة وإن لم تكن ممتنعة على غيره من كتابنا البارزين وأصحاب الطرق المميزة فى فن الكتابة ، إلا أنها عنده أدلّ عليه ، وأقرب لطبيعته ، وأثر آفته فى أطوار حياته ، وما أظن أنه من الإنصاف للرجل ، أو الإقرار بالحق

---

(١) مع أبى العلاء فى سجنه . طه حسين ص ١٣٠ .

أن نغفل عما كان وراء صراعه الدائب والدائم من تلبية لما سبقت الإشارة إليه ، حيث الجموح فى إثبات الذات ، ولو بالتهجم على الآخرين ، وانتهاج أسلوب الاستفزاز ، وحيث الاستمرار فى تحقيق « الأنا » ولو بمخالفة البيئة الاجتماعية فى عرفها وتقاليدها ، ومناقضة البيئة الثقافية فى مناهجها ومسلماتها ، وهو هنا فى هذا الفصل يكثر من الإشارة إلى نفسه ، وإثارة الانتباه إليه ، من ذلك قوله : الموضوع الذى أريد أن أدير فيه هذا الحديث .... ما أعرف أنى أشفقت من شىء كما أشفق من ... أشفق منهما لأنى أخشى ... وأنا أخاف أشد الخوف ألا تقدر ... أخشى هذا كله وأريد ... ، وما أظن موضوع البحث أو فكرة هذا الفصل أو المقال هى الدافع إلى كل هذا ، ولكنها العادة التى تركبت فى بناء هذه الشخصية منذ صغرها ، وفى صراعها مع عاهتها ، ومع الحياة بسببها ، وهذا ما تقبله خاصية الاسترسال فى الحديث ، وخاصية التلقائية فى الأداء ، إلا إذا كان الموضوع قصة يسردها وأحداثا يرويها أو شخصيات يرسمها وأماكن يصورها وأزمانا يجليها ، فإنه حينئذ ينشغل بما يسرد ويروى ، أو بما يرسم ويصور ويجلّى ، وعندئذ تسلك أنويته طريقا آخر لجذب المستمع إليها ، وتنبيه القارىء لها ، فإذا هى فى هذا الطريق مجموعة « لازمات » [1] تركيبيَّة ، يبدأ بها الجملة ، أو ينتقل بها بين الفقرة والفقرة أو بين الفكرة والفكرة ، أو ينبِّه بها القارىء ، ويستعيد انجذابه إليه وهو يبسط له الآراء أو يفصِّل له العلل ، وكأنما تكرار كل لازمة منها بين الحين والحين بديل للإعلام عن أنويته بضمير المتكلِّم أو الغائب أو غيرهما ، من تلك اللازمات المرتبطة به والمعلنة دائما عنه قوله : ليس من شك ... أو ما فى ذلك شك ... وقوله : ليس بد من أن ... أو لابد إذن من ... وقوله : مهما يكن من شىء ... أو مهما يكن من أمر ... وقوله : يحدث هذا حينا ، ويحدث ذلك حينا ، ويحدث كذا فى كثير من الأحايين ، وقوله : أو تستطيع أن تسميه ... وتستطيع أن تسميه ... وأنا زعيم لك بأنه ليس ... وإنّما هو شىء آخر غير ... وغير ... جميعا ، وإن لم تقع عين القارىء وأذن المستمع على شىء من هذه اللازمات فهى لابد واقعة على ماينبئها بأن المتحدث أو الكاتب هو طه حسين من عناصر هاتين الخاصيتين المجسِّمتين لمكونات « أنا » طه حسين .

---

(١) أشار إلى هذه الظاهرة الأستاذ الدكتور أحمد هيكل فى كتابه « تطور الأدب الحديث فى مصر » ص ٤٢٣ .

ومجموعة هذه العناصر المكوِّنة لهاتين الخاصيتين – اللتين ارتبطتا بطه حسين طريقة فى الكتابة أو أسلوبا فى الحديث والإملاء – لا نعدم لهما وجودا فى المقال أو الكتاب أو القصة ، وإن تفاوت نسب توافرها بين موقف وموقف ، وبين موضوع للحديث وآخر ، مع تفاوت نسب توافر ما يضاف إليها من عناصر أخرى مثل الاستطراد ، ودقة التفصيل للموصوفات ، وتوظيف محفوظه من تراثنا الشعرى والنثرى فى الاستشهاد ، ومخزونه من الآداب الأجنبية – وبخاصة الأدب الفرنسى – فى طريقة العرض ومجال الاجتهاد ، ومثل قدرته الخاصة فى المزج القاصد به السخرية والتهكم ، وفى المدح الذاهب به مذاهب التفنن فى النقد والذم ، ومثل مباغتته القارىء بأوصاف الشخصية حسيا ومعنويا ، أو نعوت المكان ظاهراً وباطنا ، دون أن يحدد له اسمه إلا بعد أن يبلغ به الشوق إلى المعرفة أقصاه ، وبعد أن يبلغ هو من التجسيد أو الوصف غايته ، من ذلك ما نلاحظه فى أول ما يباغتنا به فى الفصل الأول من قصة « المعذبون فى الأرض » أو من قصة « شجرة البؤس » أو من غيرهما ، وهو فى وصفه المكان أو تحليله للشخصية يجنح إلى التهويل والكاريكاتيرية ، والأمثلة على هذا الملمح فى قصصه كثيرة ، منها ما يواجه القارىء به فى تدفق بليغ ، وتتابع متصل مضطرب بين صفاته الجسدية والمعنوية للشخصية ، فيبدهه بقوله : « كان الشيخ مهيبا رهيبا ، وكان فخما ضخما ، قد ارتفعت قامته فى السماء ، وامتدَّ جسمه فى الفضاء ، وكان وجهه جهما عريضا ، تضطرب فيه عينان صغيرتان غائرتان بعض الشىء ، ولكنهما على ذلك فى حركة متصلة لا تكادان تستقران ، وهما متوقدتان دائما ، ينبعث منهما شىء كأنّه الضوء المشرق على هذا الوجه الجهم الغليظ ، فإذا لحظتا شيئا أو أطالتا النظر إليه فكأنما تقذفانه بالشرر ، أو تسلطان عليه شواظا دقيقا قويا من النار ، وكان الشيخ فوق هذا كله ذكيا حاد الذكاء نافذ البصيرة ، يتعمَّق ما يعرض له من الأمر ، دون أن يحس الناس منه تعمقا لشىء ، يسأله الناس فيجيبهم لساعته جواب من فكَّر وقدَّر وأطال التفكير والتقدير ، فيعجبون منه ويعجبون به ، وكان بعد هذا كله بطىء المشى ، ثقيل الحركة ، وقورا فى كل ما يصدر عنه ، وكان صوته يلائم هذا كله من أمره ، فكان صوتا ضخما عميقا ، يسمعه السامع فيخيَّل إليه أنه يخرج من غار بعيد الإيقاع ، وكان الناس يهابونه ويرهبونه ، كما كانوا يجلُّونه ويكبرونه ، فإذا سألتهم عن مصدر ذلك لم يعرفوا كيف يجيبون ، إنما كان هذا الرجل

يُبْهِرهم ، ويُسْحِرهم ، ويملأ نفوسهم إكباراً وإعظاما ، فإذا ذُكر الوليد بن المغيرة فقد ذُكر سيِّد من أروع سادات قريش ، ورجل عظيم من رجالات البطحاء . » (١)

ومنها ما يواجه به القارئ من مقدمات قد تطول فتبلغ الفصل أو الفصلين من بداية القصة ، يلفّ فيها ويدور لتحديد مكان القصة أو زمانها ، مسهبا في تعليلات جدلية ، وافتراضات ظنية ، مستطردا فى ثنايا ذلك إلى بعض قواعد الفن ، وبثّ ما يحلو له من أراء ، وما يزدحم به فكره من معارف فلسفية وجغرافية وعلمية وفنية ، ورصْد ما ظهر له من ملاحظات نقدية يتخفّى عنفها وتتوارى قسوتها وراء سخرية يكسوها بأساليب المديح ، وعبث يدثّره بجلال الجد ، ويملأ بهذا كله صفحات فساحًا ، حتى يصل فى نهاية الفصل إلى تحديد مكان القصة ، وتهيئة القارىء لاستقبال أحداثها وأشخاصها ومفاجآتها ، وإن لم يهيِّئه فى مطّ ذلك كله لاستنباط غاياتها . وليكن النموذج الكامل المختار من كتاباته القصصية – للإحاطة بخصائص طه حسين الأسلوبية وما تقوم عليه من عناصر فى هذا المجال – هو الفصل الأول من عمله القصصيّ « ما وراء النهر » (٢) ، وقد أملى طه حسين آخر فصوله فيها ، فى فبراير ١٩٤٧ ، ثم تركها دون إتمام ،

– ١ –

« لست أدرى أين وقعت أحداث هذه القصة ، ولكنى أقطع بأنها لم تقع فى مدينة القاهرة ، فقد تتبعت شاطىء النيل كله فى هذه المدينة ، فلم أجد ربوة شديدة الارتفاع والاتساع ، يقوم عليها قصر فخم ضخم ، شاهق فى السماء ، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يُظل ضُرُوباً من النجم لا تعد ، وفنونا من الزهر لا تحصى ، وهذه الربوة المرتفعة الواسعة تنحدر فى يسر إلى النهر كأنما تسعى للقائه ، أو كأنما تيسِّر للشجر والزهر السعى للقائه .

لم أجد على شاطىء النيل فى القاهرة هذه الربوة ولا شيئا يشبهها ، ووجود هذه الربوة شرط أساسى لوقوع الأحداث التى تعرضها هذه القصة ، فما أظنك تخالفنى فى

---

(١) على هامش السيرة . جـ ٣ ، ص ٧ ، ٨ .

(٢) ما وراء النهر ، د . طه حسين ، الفصل الأول ، ص ١٩ – ٢٥ .

أن ما يمس الإنسان من الأحداث ، وما يصور هذه الأحداث من قصص ، لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بحدوده وأوصافه ، وقد وقعت أحداث هذه القصة فى مكان ، ما فى ذلك شك ، بل وقعت فى هذا المكان الذى وصفته وصفا موجزا ، وأكاد أعتقد أن هذا المكان نفسه هو الذى أنشأها ، وهو الذى ابتكر أحداثها ، ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث .

وقد علّمنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التى يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها فى حياتهم اليومية ، ولو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو فى قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة – لا على هذه الربوة المرتفعة التى تمتاز مما حولها من الأرض ، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور ، وتنحدر بشجرها وزهرها فى سذاجة ويُسر إلى النهر – أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة فى دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل ، لما أجروا ما أجروا من الأحداث ، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب . فغرفات القصر وحجراته ، وأفنية القصر وأبهاؤه ، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية ، وهذه النجوم المتقابلة المتدابرة ، وهذا الزهر المنسَّق المنمَّق ، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لوناً أو ألواناً من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا فى سيرتهم ما يلائمه ، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله ، وبهذا القول أو ذاك من أقواله ، بحيث لم يكن بدٌّ من أن تحدث هذه الأحداث فى هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأمكنة ، وإلا لبطلت قواعد الفن ، ولفسد التاريخ الأدبى ، ولذهب الأدباء بإنتاجهم الأدبى كل مذهب ، وسلكوا به كل سبيل ، لا يخضعون لأصل من الأصول ، ولا يتقيَّدون بقانون من القوانين التى وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ، ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن .

وإذن فلابد لهذه القصة من ربوة عظيمة الارتفاع والاتساع ، ومن قصر شاهق ، وشجر باسق ، وزهر رائق ، ونجم شائق ، ونهر دافق يجرى من تحت هذا كله فى أناة حيناً وفى عنف حيناً آخر . فإذا فُقِد شىء من هذا ضاعت القصة ، وما أظنك ترغب فى أن تضيع ؛ فأنت محتاج إليها لتنفق الوقت فى القراءة ، وأنا محتاج إليها لأنفق الوقت فى

الإملاء ، والمجلة محتاجة إليها لتملأ عدداً من صفحاتها قليلا أو كثيراً . كل شيء يضطرنى إلى أن أملى ، وكل شيء يضطر المجلة إلى أن تنشر ، وكل شيء يضطرك إلى أن تقرأ ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن نقبل هذه الربوة وما فيها وما عليها ، لنمضى فيما يُسر له كل منا ، من الكتابة والنشر والقراءة . فلتكن هذه الربوة ما دام لابد لها ولنا من أن تكون . ولكنها لا تستطيع أن توجد فى القاهرة ، لأن شاطىء القاهرة منبسط ، مستو ، ليس فيه نِجاد ولا وهاد . فلو زعمنا أن الربوة قائمة فى هذا المكان أو ذاك من المدينة ، لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ، ويخاصمنا بالحقائق الواقعة ، ويضيِّع علينا القصة وما بذلنا فى كتابتها ونشرها وقراءتها من الجهود .

وأكاد أعتقد أن هذه الربوة لا توجد على شاطىء النيل فى مصر كلها ، فلست أزعم أنى قد تتبَّعت الشاطىء المصرى كله على النيل ، ولكننى لم أسمع قط عن ربوة كهذه الربوة ، ولا عن قصر كهذا القصر . ولو قد وُجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثر عنها الحديث فى كتب الخطط أولا ، وفى الصحف والمجلات ثانياً ، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك ؛ لأن جوَّ مصر من الصفاء والنقاء ، بحيث لا يخفى شيء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمَال كما تتكاثف على الآثار . وقصتنا لم تحدث فى العصر القديم ، وإنما نزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جدًّا .

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة ، توجد لتفنى ، وتفنى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غداً ، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد ؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ، ويراها الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها ولكننى أستبعد ذلك ، لا لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة ؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن ، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربى وتفنى ، وأن تظهر وتخفى ، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة . ثم تمضى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس . وما دام الزمان يمضى فليس بأس من أن يمضى المكان كما يمضى الزمان . وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة ، فمصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ، ويختلف علمهم بأصول الفن

وما أحب أن ينجم لى منهم قارىء أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة ويجادلون فيما لا معنى للجدال فيه .

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعلة أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان ، وإنما هى أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان ، لأنها تتَّصل بالأخلاق ، فأهل مصر كلهم أخيار أبرار ، لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل ، ولا يبغضون شيئاً كما يبغضون الجور ، ولا يؤثرون شيئاً كما يؤثرون ذكاء القلب وصفاء النفس وطهارة الضمير ، ولا يرفعون أنفسهم عن شىء كما يرفعونها عن مقارفة الإثم ومصاحبة الفساد : ينأون عن السيئات أشد ما يكون النأى ، ويتجافون عن الموبقات أشد ما يكون التجافى ، وينزِّهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه ؛ فلست ترى بينهم قويًّا يستذل ضعيفاً ، ولا غنيا يستذل فقيراً ، ولا ناعماً يستطيل على بائس ، ولا سعيداً يستخف بشقى . ولست ترى بينهم متعجلا للمنفعة ، ولا مؤَجِّلا لعمل من أعمال البر ، ولا مضحياً بمصلحة الكافة فى سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون مواطنيه . ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة ، ويؤثر العاجلة على الآجلة ، ويتهالك على اللذات لا يصطنع فى سبيلها أناة ولا وقاراً ، ويقبل على الآثام لا يرى فى الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً ؛ لست ترى من بينهم أحداً يهم بشىء من ذلك أو يفكر فيه أو يصدّ نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلا أو كثيراً ، وإنما هم قوم فطروا على البرّ والإحسان ، وركِّبت فى طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات ، وائتلفت أذواقهم من حب الجمال المادى والمعنوى ؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تتأذّى به العيون ، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئز منه النفوس ، حياتهم الأولى فى هذه الدنيا مشاكِلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين فى الجنة التى وعد الله عباده المتقين . وفى هذه القصة ، كما سترى ، شىء من ظلم وجور ، وشىء من استطالة واستعلاء ، وشىء من الاستئثار باللذات فى غير تحرّج ، والإقدام على الآثام فى غير تحفظ ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه . فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة فى مصر ؛ لأن أحداثها منافرة أشد المنافرة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين فى عصورهم المختلفة ، وفى عصرهم هذا الحديث خاصة ؛ لأن الأخيار يمضون

فى الخير كلما تقدَّم الزمان ، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة . وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء – على تقدم الزمن – طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة فى السماء إلا آماد قصار . وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية ، فإنه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس ؛ لأنها لم تقدَّر للناس فى حياتهم الدنيا .

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكانها لا يوجد فى أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون فى جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسى : أين وقعت أحداث هذه القصة ؟ والحق أن الجواب عن هذا السؤال ليس شاقا ولا عسيراً ؛ فما أكثر البلاد التى ترتفع فيها الربى على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الربى ! وإذا لم تكذبنى الذاكرة فإن شاعراً من أصحاب الموشحات قد صور لنا ربى كثيرة فى إسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجلل تيجانها بالحلى ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من لجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلقى عليها من الضوء ، وما يعكس عليها من الألوان ؛ فهى من فضة حين يمتع النهار ، وهى من ذهب حين يترقرق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دلَّنا على مكان هذه الربوة الرائعة التى يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنقل إذن إنها فى إسبانيا . وأنت تعرف أن إسبانيا هى البلد الذى يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ، ومن القصور المطاوعة التى ترتفع فى السماء وتتَّسع فى الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتى تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانقباض ، والتى تندك وتنهار وتصبح أطلالا بالية حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشد عليها هذا الشعر الذى أنشده النابغة على طلله القديم :

يادار مية بالعلياء فالسَّنَد ... أَقْوت وطال عليها سالف الأمد

وقفتُ فيها أصيلا لا أسائلها ... أعيت جواباً وما بالرَّبْع من أحد »

وما أظن خاصية الاسترسال فى الحديث مع استطالة الإبانة عن الفكرة

بإمكانيات المتحدث المحترف لفن الحديث ، وقدرات المناور الفطن فى توجيه مسار الكلام ، والأخرى الممثَّلة فى التلقائية فى الأداء مع التمكن من أدوات اللغة المنطوقة التى من شأنها مخاطبة السمع وأسْره ، وإثارة الانفعال وجذبه ، بمختلف العناصر المتداخلة والمكونة لهاتين الخاصيتين ، ثمَّ ما أُضيف إليهما فى تعقيب تبسيطهما والإبانة عنهما ما أظن ذلك كله بُمنبهم على قارىء هذا الفصل من أوله إلى آخره ، وما أظن قارئا تقع عينه على هذه الصفحات – غير مقرونة باسم كاتبها أو مُمليها – ولا يرجِّح عنده أن يكون كاتبها هو طه حسين ، إن كان من المتأدبين ، أو يعلو الرجحان عنده إلى درجة اليقين إن كان من الأدباء المنشئين أو من المتلقين القارئين .

وإن لم يكن ذلك توقُّعا – إن لم يرتفع إلى صدق اليقين فلن يتنزَّل عن مغالبة الرجحان – فمن – إذن – من أصحاب الأساليب المميزة فى فن الكتابة بمصر فى نهضتنا الحديثة – غير طه حسين – يجتمع له هذا اللف والدوران فى تحديد مكان القصة بتدفق هذا الاسترسال ، والإسهاب فى التفصيل الذى يملأ سبع صفحات الفصل ؛ ليخرج القارىء منها بأن هذه القصة لم تقع فى القاهرة ، إذ ليس بالقاهرة هذه الربوة التى هى شرط أساسى لوقوع الأحداث التى تعرضها ، ويشد معه القارىء فى هذا اللف والدوران ، ويأخذ إليه كل طريق ؛ مخافة أن يحوك الشك فى صدره فلا يصدِّق ، أو تثور الاحتمالات فى ذهنه فلا يذعن ، أو يصيب الملال مزاجه فلا يصبر ، فها هو فى أول الطريق يقول له : « فما أظنك تخالفنى فى أن ما يمس الإنسان من الأحداث ، وما يصور هذه الأحداث من قصص لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بحدوده وأوصافه ... وفى أواسط الطريق يقول له : « فإذا فقد شىء من هذا ضاعت القصة وما أظنك ترغب فى أن تضيع ، فأنت محتاج إليها لتنفق الوقت فى القراءة ... » ، ويلح عليه فى أن يشاركه غضبه من أهل مصر ، ويقاسمه التهكم بهم والسخرية منهم ، ولكن فى مكر الماكر ودهاء المناور الفطن ، فيقول له : فلست ترى بينهم قويا يستذلّ ضعيفا ، ولا غنيا يستذل فقيرا ، ولا ناعما يستطيل على بائس ، ولا سعيدا يستخف بشقىّ ، ولست ترى بينهم متعجلا للمنفعة ، ولا مؤجلا لعمل من أعمال البر ، ولا مضحيا بمصلحة الكافة فى سبيل المصلحة الخاصة ... لست ترى من بينهم أحداً يهم بشىء من ذلك أو يفكر فيه ، أو يصد نفسه عنه متكلفا من الجهد قليلا أو كثيراً ... » إلى آخر هذا النقد

العنيف والغمز الساخر ، واللمز الجارح الذى ألبسه ثياب الثناء والمديح ، وهو فى الحق ينفذ ضاربا بسهامه فى المقتل ، كمن يمزج السم لقتيله بطعامه الشهىّ ، أو يقدِّم له الموت سائلا ورديا فى كأس بللورى ، وفى نهاية المطاف أو آخر الطريق يريحه من عناء الدوار وكثرة الاستطراد والإلحاح فى الافتراض والتعليل – لأن تكون القصة قد وقعت فى غير مصر – فيفرض عليه وعلى نفسه معه موقفا يشتركان فيه وينتهيان إليه ... وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسى : أين وقعت أحداث هذه القصة ؟ ... ويفرض عليه أيضا أن يشاركه افتراضه الذى حدد به مكانها ، بل ويفرض عليه أن يعلم عن هذا المكان مثل علمه به : « فلنقل إذن إنها فى أسبانيا ، وأنت تعرف أن إسبانيا هى البلد الذى يبنى الخيال فيه ما يشاء من القصور ... وتصبح أطلالا بالية حين تريد أن تقف عليها ، وأن تنشد عليها هذا الشعر الذى أنشده النابغة على طلله القديم ... » .

ومَن – إذن – مِن أصحاب الأساليب المميزة فى فِن الكتابة ، بمصر فى نهضتنا الأدبية الحديثة – غير طه حسين – يجتمع له مع هذا الاسترسال والاسهاب فى التفصيل ونقد عيوب المصريين ، والتنويه بأعمال أصحاب الموشحات المُفتَنّين ، يجتمع له مع هذا كله الدأب على التكرار للألفاظ والأوصاف بهذه السهولة المتأنقة التى تعتمد على موسيقية الصياغة ، وبساطة التركيب المتوازن المقاطع ، المتشابه الإيقاع ، فهذه الربوة مثلا : يقوم عليها قصر فخم ضخم ... يتكاثف فيها شجر باسق ملتف ، ولابد لها من :

قصر شاهق ، وشجر باسق ، وزهر رائق ، ونجم شائق ، ونهر دافق . ومن الجائز أن تكون مسحورة : توجد لتفنى ، وتفنى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غدا ، وتستخفى غدا لتظهر بعد غد ... وفى هذه القصة مثلا سيرى القارىء :

شىء من ظلم وجور . وشىء من استطالة واستعلاء .

وشىء من الاستئثار باللذات فى غير تحرُّج ، والإقدام على الآثام فى غير تحفّظ .

إلى آخر هذه الصياغات الزاخرة بجمال الإيقاع ، وتنوُّع الجرس ، وتلقائية الأداء عند المُتَمَكِّن من أسْر السمع بتنوع أدواته ، وإثارة الحركة والنشاط عند المتلقى بمهارة قدراته .

ثم يضاف إلى هذا كله علوّ صوت طه حسين ، وطغيان ذاته ، واتساع انتقالاته واتصالاته ، ووضوح لازماته فى بسط آرائه وتصوراته ، مما جعله بكل هذا بين كتاب العصر نسيجا وحده ، وجعل بعض نقادنا يرى أن هذا النسيج لا يمكن أن تحاك خيوطه بهذا النهج ، وتتآلف أصباغه على هذه الصورة ، إلا أن يكون هذا بفعل التقاء ثقافتين هما : اليونانية والعربية ، فى ذهن نشط قادر على المزج والاحتواء ، مثل ذهن طه حسين وقدراته الفنية ، يقول الأستاذ الدكتور شكرى عياد : « أسلوب طه حسين امتداده وتماسك أجزائه ، وتصفّحه لجوانب الموضوع الواحد ، موسيقيته وتوازن مقاطعه ، ووقار عبارته مهما تمتلىء بالعاطفة ، أسلوب لا يمكن أن يكون إلا ثمرة التقاء الثقافة اليونانية بالثقافة العربية فى ذهن واحد » [١] .

وبعـــد :

فإن الإنسان إذا جوّد العمل ، فمنتهى همِّه أن يجعله على قضاء مآربه أعون ، أو يكون له فى أسباب معيشته أنجح وأربح [٢] ، وما أظن طه حسين إلا مجيداً عمله ، مصيبا به مآربه ، فقد كان بصيرا – منذ أن فقد بصره صغيراً – بأن الطريق وعر ولكنه أصر على أن يكون ، وكان بصيرا بأنه لن يكون فرداً فذاً دون أن يذعن لتبعات طموحه رغم مصيبته بفقد بصره ، ولا سبيل لتحقيق هذا الطموح ، فى ظل هذه العاهة التى لا مفرَّ منها ، ولا علاج لها ، إلا أن يعيد صياغة داخله بقبول واقعها ، وأن يعيد بناء شخصيته على استثمار – مشاق ضررها بالتمكّن من مظان خيرها ، وفى الدأب على إتقان توظيف جوارحه الأخرى لتكون عوضا لها ، وفى الأخذ بزمام النفس إلى ما ييسِّر له ذلك كله ، فإذا به يأخذها بالعنف والشدة فى إعراضها عن ماديات الحياة ؛ كى يتجنب الحرج والضرر والحياء ، وفى إقبالها على مقوِّمات الحياة من ظمأ إلى المعرفة ، ونهم فى

---

(١) تجارب فى الأدب والنقد . د . شكرى عياد . ص ٦٧ .

(٢) القوس العذراء . محمد محمود شاكر ص ٢٦ .

الدرس والتحصيل ، ومغالبة للشدائد وصبر على المكروه ؛ ليصل به ذلك كله إلى ردم ما فى إعماقه من إحساس بالقهر ، وتعويض ما أصابه بسببها من نقص ، والنجاح فى إثبات ذاته فى كل مكان ، وفى كل حين .

وكان بصيرا بأن إثبات الذات لن يدوم له الاستقرار والاستمرار عند من قنع بالقليل ، ودرج على الاحتذاء ، فصبر على ذلك حينا حتى استوى نبته واستحصد ، فانطلق إلى المنافسة والمبارزة ، ودرب على الاقتحام والمقاومة ، متسلحا لذلك بالتزود المستمر من ينابيع المعرفة ، والسعى الممتد فى طلب العلم ، فإذا به أول الحاصلين على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، وأنشط الحاصلين على نفس الدرجة – بعد ذلك – من الجامعة الفرنسية ، وأبرز أبناء جيله فى إثارة الانتباه إليه ، وتكثيف الأنصار والخصوم من حوله ، لم يبطر بكثرة من معه ، ولم يفزع لكثرة من عليه ، وهو فى الفريقين ثائر ومثير لا يخور ولا يلين .

وكان بصيرا بأن هذا الطريق الوعر ، وذاك الطموح العنيد ، لاتنقاد له وعورة الأول ، ولا يرتاض له عناد الآخر ، إلا بأن يتخذ لِطريقه أنيساً ، وأن يتخذ لطموحه مشجعين، وأنصاراً، ووسائل أحرارا ، ولما كان الطريق على وعورته طويل ممتد على طول امتداد العمر ، وليس لعمر الإنسان أنيس مثل شريكة للحياة ، قادرة على أن تجنّبه التعثر فى مطاوى الطريق ، ومؤهَّلة لأن تأخذ بيده ، فتكون له عينا يرى بها دقائق الأشياء ، ويقرأ بها خفايا الظنون ، ويغوص بها فى أعماق الأدب الفرنسى ، ويجوب بها آفاق اللغة اللاتينية ، وأين لهذا كله حينئذ من فتاة عربية ؟؟ إذن فلتكن « سوزان ريسون » ، الفتاة المتحضرة المثقفة الفرنسية .

ولما كان طموحه – على عناده فى هذا الطريق الوعر – يجمح به لأن يكون – فى مرحلة التعليم – فذًّا فى مجال الدرس والتحصيل وتحقيق التفوق بين المتعلمين المتلقين ، كما يجمح به – فى رحلة العطاء والإنتاج – لكى يكون فذا فى ساحة الأدب والفكر وتحقيق التميز بين الأدباء والمفكرين ، وأن يكون فذا فى ميدان الصحافة والسياسة والفن وغير ذلك من الميادين ، فإنّه اضطر أن يستنصر بأولى الدفع والنفع فى كل مجال ، وأن يستعدى عليه آخرين فى كل طور ، وأن يسلك لتحقيق مطامحه طريق الشعر ، لِمَا كان

للشعراء عندئذ بين الناس من شهرة وخلود ذكر ، فإذا استحال عليه أن يكون فيه ظاهرة متفرِّدة ، فإنه يسلك طريق النثر ؛ ليصبح فيه نسيجا وحده ، وهو فى كل ذلك يتسلح بكلّ سلاح فى مجال المنافسة ، وليكن سلاح الاستفزاز والتهجم ، أو سلاح السخرية والتهكم ، أو سلاح المخالفة والتمرد ، أو سلاح الإضافة والتفرد ، أو كل هذه الأسلحة مجتمعة فى موقف واحد ، ما دام فى النهاية هو طه حسين ، بكل ما يحمل هذا الاسم من خصال صاحبه بين المتميزين .

رحم الله طه حسين فقد عاش بصيرا ، مستعوضا - بفقد البصر - نور البصيرة ، مستلهما من معني الحياة تدفُّق النشاط وتنوُّع العطاء ، وتجدُّد البقاء بطبيعة متحدِّية متمردة ، ودوافع متمردة متعانقة كانت - طوال حياته - شهيقه وزفيره .

وغفر الله لطه حسين فقد اشتد على نفسه فتقلب بها وتحوّل ، فى المنهج والمسلك والأداء ، حتى ثبت على ما يريد وتأيّد . كما اشتد على غيره فيما اشتد به على نفسه ، واستكثر فى طريقه من الأصدقاء والأعداء ، ولم يقف فى اشتداده عند حد ، وكان فى كل ذلك بآفته متأثرا ، وبما يريد بصيرا .

وبعـــد :

ففى خاتمة هذا البحث أردِّد قول الجاحظ « فإنْ كُنَّا أصَبنا فالصواب أردنا ، وإنْ كُنَّا أخطأنا فما ذاك عن فساد من الضمير ، ولا قلّة احتفال بالتقصير . ولعلّ طبيعة خانتْ أو لعلّ عادة جذبتْ ، أو لعلّ سهواً اعترض ، أو لعل شُغلاً منع » .

* * *

ثبت المـراجـع والدوريـات

أولاً : المـراجـع [1] :

١ – أبو العلاء المعرى ، د . عائشة عبد الرحمن ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ م .

٢ – الأحزاب السياسية فى مصر (١٩٠٧ – ١٩٨٤) ، د . يونان لبيب رزق ، دار الهلال ، ١٩٨٤ م .

٣ – الأدب العربى فى مصر ، د . شوقى ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف ، ١٩٧١ م

٤ – أدباء معاصرون (جزءان) ، المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم ، تحرير وتقديم د . أحمد إبراهيم الهوارى ، دار المعارف ، ١٩٨٥ م

٥ – الأسلوب ، أحمد الشايب ، ط ٣ ، مكتبة النهضة ، ١٩٥٢ م .

٦ – أسلوب طه حسين فى ضوء الدراسات اللغوية ، د . البدراوى زهران ، دار المعارف ، ١٩٨٢ م .

٧ – اصطلاحات الصوفية ، تأليف عبد الرازق الكاشانى ، تحقيق د . عبد الخالق محمود عبد الخالق ، دار المعارف ، ١٩٨٣ م .

٨ – أعلام الأدب المعاصرون فى مصر (١) طه حسين ، د . حمدى السكوت ، د . مارسدن جونز ، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ١٩٧٥ م .

٩ – ألوان ، د . طه حسين ، المجلد السادس من المؤلفات الكاملة لطه حسين ، ط ١ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ م .

١٠ – الأيام (٣ أجزاء) ، د . طه حسين ، المجلد الأول من المؤلفات الكاملة للدكتور طه حسين ، ط ١ ، دار الكتاب اللبنانى – بيروت ، ١٩٨٢ م .

١١ – أيام مع طه حسين ، د . محمد الدسوقى ، المؤسسة العربية للدراسات العربية ، ١٩٧٨ م .

١٢ – بشّار بن برد ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، مطبعة دار الشعب ، ١٩٧١ م .

---

(١) المراجع مرتبة ترتيبا هجائيا حسب اسم المرجع .

١٣ – البيان والتبين ، الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجى ، ١٩٧٥ م .
١٤ – تاريخ الأدب العربى ، أحمد حسن الزيات ، ط ٢٦ ، دار الثقافة ، بيروت .
١٥ – تجارب فى الأدب والنقد ، د . شكرى عياد ، دار الكاتب العربى للطباعة ١٩٦٧ م .
١٦ – تجديد ذكرى أبى العلاء ، د . طه حسين ، ط ٥ ، دار المعارف ، ١٩٥٨ م.
١٧ – تحت راية القرآن ، مصطفى صادق الرافعى ، مطبعة الرحبانية ، ١٩٢٦ م .
١٨ – تطور الأدب الحديث فى مصر ، د . أحمد هيكل ، دار المعارف ، ١٩٦٨ م .
١٩ – تقليد وتجديد ، د . طه حسين ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
٢٠ – تقويم دار العلوم ، محمد عبد الجواد ، دار المعارف ١٩٥٢ م .
٢١ – حافظ وشوقى ، د . طه حسين ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٣٣ م .
٢٢ – حديث الأربعاء (٣ أجزاء) ، د . طه حسين ، دار المعارف ، ١٩٧٥ م .
٢٣ – حديث عيسى بن هشام ، محمد المويلحى ، الدار القومية ، ١٩٢٤ م .
٢٤ – خمسة من شعراء الوطنية (٣ أجزاء) ، د . بدوى طبانه (بالاشتراك مع مجموعة من الباحثين) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ م .
٢٥ – دراسات حول طه حسين ، د . حسين نصار ، دار اقرأ ، بيروت ، ١٩٨١ م .
٢٦ – دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو ، ١٩٦٣ م .
٢٧ – ديوان أحمد الزين ، أحمد الزين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ م .
٢٨ – ديوان بشار (٤ أجزاء) ، بشار بن برد ، علّق على الديوان محمد رفعت فتح الله ، ومحمد شوقى أمين ، مطبعة الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م .
٢٩ – ديوان الجارم (٣ أجزاء) ، على الجارم ، مطبعة المعارف ، ١٩٣٩ م .
٣٠ – ديوان حافظ (جزءان) ، حافظ إبراهيم ، مطبعة دار الكتب العربية ، ١٩٣٧ م .

٣١ – ديوان الخليل ، خليل مطران ، مطبعة الهلال ، ١٩٤٩ م .
٣٢ – ديوان الزهاوى ، جميل صدقى الزهاوى ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ .
٣٣ – ديوان سقط الزند ، أبو العلاء المعرى ، مطبعة هندية ، ١٩٠١ م .
٣٤ – ديوان عبد الرحمن شكرى ، عبد الرحمن شكرى ، جمع وتحقيق نقولا يوسف ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ م .
٣٥ – ديوان لزوم ما لا يلزم ، أبو العلاء المعرى ، وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٩٥٩ م .
٣٦ – ديوان المازنى (جزءان) ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، ١٩٦٣ م .
٣٧ – رسالة الغفران ، أبو العلاء المعرى ، ط ٣ ، دار المعارف ، ١٩٦٣ م .
٣٨ – رسائل الرافعى ، جمع وترتيب محمود أبو ريه ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٠ م .
٣٩ – زكى مبارك ناقداً ، مقالات للدكتور زكى مبارك ، جمعتها دار الشعب ، ط ١ ، مطبوعات الشعب ، ١٩٧٨ م .
٤٠ – ساعات بين الكتب ، عباس محمود العقاد ، حـ ٢ ، مطبعة النهضة ، ١٩٤٥ م .
٤١ ه السيرة فن وتاريخ ، د . ماهر حسن فهمى ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٧٠ م .
٤٢ – الشخصية ، محمد عطية الأبراشى ، ط ٣ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٨ م .
٤٣ – الشوقيات ، جـ ١ ، أحمد شوقى ، مطبعة الآداب والمؤيد ، ١٨٩٨ م .
٤٤ – صهاريج اللؤلؤ ، محمد توفيق البكرى ، مطبعة الملاح ، ١٩٠٦ م .
٤٥ – طه حسين الشاعر الكاتب ، محمد سيد الكيلانى ، الدار القومية للطباعة ، ١٩٦٢ م .
٤٦ – طه حسين فى معاركه الأدبية ، سامح كريم ، كتاب الإذاعة والتلفزيون (٢١) ١٩٧٤ م .
٤٧ – طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه ، الأب كمال قلته ، دار المعارف ، ١٩٧٣ م .

٤٨ – طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، د . عبد العزيز شرف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ م .
٤٩ – عبد العزيز جاويش ، أنور الجندى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م .
٥٠ – العبرات ، مصطفى لطفى المنفلوطى ، مطبعة الاستقامة ، ١٩٤٨ م .
٥١ – العقاد والتجديد فى الشعر ، العوضى الوكيل ، دار الكاتب العربى للطباعة ، ١٩٦٧ م .
٥٢ – على هامش السيرة (٣ أجزاء) ، د . طه حسين ، ط ٢٩ ، دار المعارف ، ١٩٨ م .
٥٣ – فقه اللغة ، د . على عبد الواحد وافى ، ط ٣ ، لجنة البيان العربى ، ١٩٥٠ م .
٥٤ – الفكر التربوى لرعاية المكفوفين ، د . لطفى بركات ، مكتبة الخانجى ، ١٩٧٨ م .
٥٥ – فى عالم المكفوفين . أحمد الشرباصى ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٦ م .
٥٦ – قبض الريح ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، المطبعة العصرية ، ١٩٢٧ م .
٥٧ – القوس العذراء ، محمود محمد شاكر ، دار الفكر بيروت .
٥٨ – لسان العرب ، (٦ أجزاء) ، ابن منظور ، دار المعارف .
٥٩ – ما وراء النهر د . طه حسين ، ط ٢ ، دار المعارف ، ١٩٧٧ م .
٦٠ – مذكرات طه حسين ، د . عبد الرحمن بدوى ، بيروت ، دار الآداب ، ١٩٦٧ م .
٦١ – مستقبل الثقافة ، د . طه حسين ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
٦٢ – المعارك الأدبية ، أنور الجندى ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦١ م .
٦٣ – مع أبى العلاء فى سجنه ، د . طه حسين ، دار المعارف ، ١٩٦٣ م .
٦٤ – مع طه حسين (جزءان) ، سامى الكيالى ، دار المعارف ، ١٩٦٨ م .
٦٥ – معك ، سوزان طه حسين ، دار المعارف ، ١٩٧٩ م .
٦٦ – المقال وتطوره فى الأدب العربى الحديث ، د . السيد مرسى أبو ذكرى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ م .
٦٧ – من أدبنا المعاصر ، د . طه حسين ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٩ م .

٦٨ – من لغو الصيف إلى جدّ الشتاء ، د . طه حسين ، ط ٥ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
٦٩ – نثر حفنى ناصف ، شرح د . محمد مهدى علام ، وعبد الحميد حسن ، مطبوعات المجلس الأعلى (١٤) ، ١٩٦٠ م .
٧٠ – نشأة النثر الحديث وتطوره ، عمر الدسوقى ، ط ٢ ، مطبعة دار الفكر ، ١٩٧٦ م .
٧١ – النظرات ، مصطفى لطفى المنفلوطى ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٥ م .
٧٢ – نكْت الهميان فى نكت العميان ، للصفدى ، تحقيق أحمد زكى ، المطبعة الجمالية ، ١٩١١ م .
٧٣ – هذا مذهبى ، د . طه حسين ، كتاب الهلال الماسى (العدد ٤٨) ، ١٩٥٥ م .
٧٤ – وحى الرسالة ، أحمد حسن الزيات ، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٩ م .

* * *

ثانيا : الدوريات :

١ – الأهرام (١٨٨٦ ، ١٩٥٥ م) .
٢ – الثقافة (١٩٣٦ م) .
٣ – الجريدة (١٩٠٨ ، ١٩١٣ م) .
٤ – الشعب (١٩١٠ م) .
٥ – العلم (١٩١٠ م) .
٦ – الفتح (١٩٣٠ م) .
٧ – اللواء (١٩٠٩ م) .
٨ – المجلة المصرية (١٩٠٠ م) .
٩ – مصر الفتاة (١٩٠٩ ، ١٩١٠ م) .
١٠ – المؤيد (١٩١٠ م) .
١١ – الهداية (١٩١٠ م) .
١٢ – الهلال (١٩٢٨ ، ١٩٦٧ ، ١٩٨٦ م) .
١٣ – الوطن (١٩١٥ م) .

فهـــرس الكتـــاب

الموضـــوع	الصفحة

هــذا الكتاب :

لم تكن مِحنة فقْد البصر – فى عصر من العصور أو فى وطن من الأوطان – مِحنةً تتوقَّفُ بسببها حياة إنسان ، أو كارثة يتكدَّر بحدوثها صفاء إيمان ، حتى وإنْ شَقِيَ بها صاحبها لشعوره بنقص فى الجوارح ، وهلعت لوقوعها أفئدة آلِهِ ، بِحُكْم الطبيعة البشريّة فى مواجهة المكاره .

وبين مِحنة فقْد البصر وَالْمُمْتَحَن بها علاقةٌ ممتدة الظلال ، متباينة الآثار ، وكانت علاقة طه حسين بهذه المحنة نموذجاً مغايرا لِمَا كانت عليه عند شركائه فى الابتلاء بها ، ولدى نظرائه المحمولين فى رحلة الحياة على هودجها : راضين أو كارهين ، سعداء أو ساخطين ؛ إذ كانت عنده علاقة إدانةٍ لجهل البيئة وظُلْم دنياه ، وعلاقة عداءٍ لهج به لسانه طوال الحياة .

ثم ماذا ؟؟

أخذ طه حسين يتقلّب بها فى أطوار حياته ، وعلى امتداد عمره ، فجعل يحُثُّ اليبيس من وعورة الطريق ومعوِّقاته ، حتى تعبَّد له الإسراع فيه ؛ لأنها – كما يقول هذا البحث – كانت له قوَّةً مَحَّصَتْ مُكوِّناتِه الشخصية بأساليب النضال ، واقتحام المصاعب ، وتجويد العمل ، فتحقّق له ما تحقّق من شهرة ومجْد واستمرار بقاء ، بَعْدَ أنْ تَسَاقَى بها رحيق الحياة وخمْر الأمل ، وسيظلّ طه حسين بها – فى وجدان الحياة والأجيال – بصيراً بِفَقْدِهِ البَصَرَ صغيراً ، وبصيراً بمغالبة الظلمة كبيراً ، وبصيرا بما أراد فحقّق ، وما تمنّاه فأنجز .

مطبعة المدنى المؤسسة السعودية بمصر ٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت ٨٢٧٨٥١